مَنَارَاتُ السَّائِرِينَ

إلى حَضْرَةِ اللهِ جل جلاله

ومقامات الطائرين



تأليف

نجم الدين أبي بكر عبد الله بن محمد
ابن شاهاور الرازي الأسدي

المتوفى ٦٥٤ هـ

تحقيق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

منشورات

محمد علي بيضون

لنشر كتب السنة والجماعة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Rami Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Rami Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4115-5

http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، الأحد في ذاته، والباطن في عمائه، وخفاء كنزيته، الذي لا تدركه الأبصار وهو يدركها، والحمد لله الواحد في أسمائه وصفاته، المتجلي الظاهر بمرائي استعدادات وقوابل الأعيان الثابتة في علمه.

وصلّ اللهم على سيدنا محمد الأول بروحه الأمري اللاهوتي، والآخر بجسمه الناسوتي الملكي، نقطة الكمال ومجمع الجلال والجمال، وبرزخ بحري الوجوب والإمكان. سيد ولد آدم، النبي الخاتم والإنسان الكامل، المبعوث رحمة للعالمين، ليعلمهم كيفية الرجوع إلى الأصل النوراني، بالمرور على منازل ومقامات السلوك الملكية والملكوتية والجبروتية، النفسية والقلبية والروحية.

وعلى آله الطيبين الطاهرين من دنس خيال سراب الأغيار مصداقاً لقوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ﴾ [النور: ٣٩]، المتحققين بقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وبقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. وعلى أصحابه المقربين المتخلقين بأنوار أسرار حقائق حبيبهم المختار، المتجلية بالمظاهر الأنفسية والآفاقية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

وبعد، فقد حظيت كتب الحقائق الإلهية عند السادة الصوفية من شيوخ ومريدين بأهمية عظيمة وعناية جليلة في سلوكهم إلى الله تعالى، مروراً بمنازل وأحوال ومقامات التجليات الذاتية والأسمائية والصفاتية والأفعالية الإلهية. وفي هذا الإطار وانطلاقاً من هذه الأهمية نقدم للقراء الكرام طالبي معرفة الله تعالى كتاب: «منارات السائرين إلى حضرة الله ومقامات الطائرين» محققاً عن مخطوطة معهد المخطوطات

برقم (٥١٢ تصوف) عن نسخة الأزهر برقم (٩٣٣ حليم) (٢٣٥٦٧ تصوف) للعالم الرباني الشيخ نجم الدين أبو بكر عبد الله بن محمد بن شاهور الأسدي، الذي يقول في مقدّمة كتابه مبيناً سبب تأليف الكتاب: «قد التمس مني بعض خلص أصحابي ممن تمسك بذيل إرادتي، ولزمني بأن أصنف كتاباً كاملاً في شرح مقامات العارفين، شاملاً لكرامات السالكين، جامعاً لمنازل السائرين، ساطعاً لمراحل الحائرين، ليكون مفيداً للمستفيد وممداً للمستمد المنتهي، . . . وسميت هذا الكتاب «منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله» . . . ووضعت للمقامات عشرة أبواب تبركاً بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]». وهذه الأبواب العشرة التي تحدث عنها المصنف هي التالية:

الأول: في مقام المعرفة. **والثاني**: في مقام التوحيد. **والثالث**: في مقام النبوّة. **والرابع**: في مقام الولاية. **والخامس**: في مقام الإنسان. **والسادس**: في مقام الخلافة المختصة بالإنسان. **والسابع**: في مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه. **والثامن**: في مقامات النفس. **والتاسع**: في معرفة القلب ومقاماته في التصفية. **والعاشر**: في معرفة الروح ومقاماته. وقسم المؤلف كل باب من هذه الأبواب إلى عدّة فصول. كما جعل للكتاب مقدّمة ممهدة للموضوع الرئيسي وخاتمة ملخصة لما ورد في الكتاب.

إنّ هذا الكتاب يسمح للمريد بمعرفة الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطلع من خلاله على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقق بأحكام مقام الإسلام وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالم بأمراض النفوس والقلوب؛ وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض. لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث؛ الإسلام والإيمان والإحسان؛ الشريعة والطريقة والحقيقة؛ العبادة والقصد والشهود؛ الملك والملكوت والجبروت، مصداقاً لقوله ﷺ: «إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم».

هذا ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين ومن أنوار أسرار ما تعبدنا به على لسان نبيه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝﴾ [الأحزاب: ٢١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [الأحزاب: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ

ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]. لنصل إلى السعادة الحقيقية المتمثلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا وشهود تجلياته ببصيرة قلوبنا وأرواحنا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

كتبه الشيخ الدكتور
عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة المؤلف

عبد الله بن شاهاور(*)
(٥٦٤ ـ ٦٥٤هـ/ ١١٦٨ ـ ١٢٥٦م)

هو عبد الله بن محمد بن شاهاور الرازي الأسدي الملقب بنجم الدين وهو من علماء القرن السادس والسابع الهجريين المتصوفين. ولد بخوارزم سنة ٥٦٤هـ ١١٦٨م وتوفي في بغداد سنة ٦٥٤هـ، ١٢٥٦م، ترك مؤلفات عدّة منها: مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد، وسلوك أرباب النعم، وتحفة الحبيب، وحسرة الملوك ومنارات السائرين إلى حضرة الله تعالى ومقامات الطائرين وهو الكتاب الذي بين أيدينا الذي قمنا بتحقيقه ونشره لأهميته في موضوعاته المتعلقة بعلمي الطريقة والحقيقة؛ الإيمان والإحسان. التي وكما يقول المؤلف لم يسبقه أحد إلى الكتابة فيها.

(*) مصادر ترجمته: شذرات الذهب لابن العماد (٥/ ٢٦٥) وهدية العارفين لإسماعيل البغدادي (١/ ٤٦١) ومعجم المؤلفين (ج ٥ ـ ٦ ص/ ١٢٢).

Brockelman: g. 1: 448, 449, S, I: 803, 804.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه نستعين

الحمد لله المتوحد في ذاته المتفرد من صفاته، المبدع في مبدعاته، المبدىء من مخترعاته الذي خلق ببديع كلمته، وصنيع حكمته أول ما خلق روح المصطفى، ثم خلق منه أرواح الأنبياء والأولياء وأولي الأحلام والنهى؛ فجعله أب الأرواح، كما جعل آدم أب الأشباح، ثم خلق منه العالم بما فيه إنساناً كبيراً، وجعل شخص آدم فيه عالماً صغيراً ووشحه بالرحمة، والرأفة، ورشحه للمعرفة والخلافة، وكرمه بالإعانة على حمل الأمانة وجعله مستعداً لهذا الشأن العظيم، والثناء الجسيم فجعله صدف درة حبيبه المجتبى ونبيه المصطفى والمبعوث إلى كافة الورى الذي سماه محمداً وخاط خلعة النبوة على قده؛ فجعله مقتدى وآتاه كتاباً ينابيع الحكم فوارة في دَرْجه وشموس الغيوب طالعة من برجه، فأصبح والعالم في سرِّ باله، وكل العلوم في سرباله، صلوات الله عليه، وعلى آله الذين هم أئمة الهدى ومصابيح الدجى وعلى أصحابه الذين هم ورثة مواريثه، ونقلة أحاديثه، وعلى أزواجه الطيبات الطاهرات، أمهات المؤمنين والمؤمنات وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد، فقال شيخنا ومولانا الإمام الرباني صفوة الله وخاصته أبو بكر عبد الله بن محمد بن شاهاور الأسدي - رضي الله عنه - وشكر سعيه قد التمس مني بعض خلص أصحابي ممن تمسك بذيل إرادتي، ولزمني بأن أصنف كتاباً كاملاً في شرح مقامات العارفين، شاملاً لكرامات السالكين، جامعاً لمنازل السائرين، ساطعاً لمراحل الحائرين، ليكون مفيداً للمستفيد، وممداً للمستمد المنتهي، سالكاً فيه طريق الإيجاز مجداً في مواعيده الإنجاز، ساعياً في كشف الأغطية عن حقائقها، راعياً إيراد أمثلة محسوسة لدقائقها، ناصباً أعلاماً موضحة لطرائقها، وإني وإن كنت قد صنفت قبل هذا بنيف وثلاثين سنة كتاب «مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد» وهو مستجمع أكثر

شرائط الملتمس ولأرباب السلوك أكبر المقتبس ولكنه مؤلف بالعجمية وقد حرم من فوائده أهل العربية فأردت أن يكون هذا الكتاب مؤلفاً بالعربية الفصيحة، بدلاً عن العجمية المليحة؛ ليكون على موائد فوائده العلماء المتبحرون، والفضلاء المعتبرون، فاستخرت الله، وأسعفت ملتمسه، وعرفت مقتبسه بقدر الإمكان بعد الإمعان، مستعيناً بالله في إلمامه مستهدياً منه في إتمامه، مستنبطاً معانيه من إشارات القرآن، وتلويحات الأخبار، ورموز المشايخ الكبار، مؤسساً مبانيه على مشاهدات الأنوار ومكاشفات الأسرار من غرائب المواهب وعجائب المراتب، سالكاً فيه طريقة لم أسبق إلى سلوكها، وإن صنفت في هذا الباب كتب كثيرة من أرباب الحقائق وملوكها ورحم الله عبداً إذا عرف اعترف، وإذا استنصف أنصف، حين أوضح معالم الدين بحيث يحصل للطالب الراغب منه برد اليقين، فيكون مناراً للسائرين إلى الله، ومطاراً للطائرين بالله بتوفيق الله الموفق والمعين إن شاء الله رب العالمين.

وسميت هذا الكتاب بهذا الاسم «**منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله**» ولعمري إنه جرى بهذا الاسم وقرىء بهذا الوسم فإن السائر يسير بأنوار مناره والطائر يطير بأطوار مطاره، وجعلت للكتاب فاتحة وخاتمة ووضعت للمقامات عشرة أبواب. تبركاً بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] ، **ويشتمل كل باب منها على عدة فصول وهذا فهرست الأبواب والفصول.**

الباب الأول: في مقام المعرفة، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مقام معرفة العوام.

الفصل الثاني: في مقام معرفة الخواص.

الفصل الثالث: في مقام معرفة أخص الخواص.

الباب الثاني: في مقام التوحيد، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في مقام توحيد العوام وهو مقام المبتدىء.

الفصل الثاني: في مقام توحيد الخواص وهو مقام المتوسط.

الفصل الثالث: في مقام توحيد أخص الخواص، وهو مقام المنتهي.

الباب الثالث: في مقام النبوة. وهو يشتمل على عشرة فصول:

الفصل الأول : في كيفية إرتقاء الحواس الخمس إلى الحس المشترك ومنه إلى ما فوقه إلى أن يصير الروح به قابلاً للوحي.

الفصل الثاني: في كيفية الوحي.

فاتحة الكتاب

اعلم أيدك الله بروح منه، وأحياك بنوره، أن لهذا الملتمس مقدمات ينبغي أن تعرف أولاً حتى تستطلع منها هذه المطالب، وهي معرفة مراتب الموجودات الصادرة من مبدعها وموجدها على سبيل الاختصار وهي؛ الحضرة الإلهية المسماة عند بعضهم بواجب الوجود. ونعني بواجب الوجود أن يكون وجوده من ذاته لا من غيره ووجود غيره منه فيكون كل ما سواه ممكن الوجود، والممكن ما يكون طرفا وجوده وعدمه متساويين فلا بد له من مرجح يرجح طرف وجوده على عدمه والمرجح هو الله الواحد الأحد، الصمد الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحداً.

فصل: ثم اعلم أن العالم بما فيه من الغيب والشهادة مكون من الفيض الأول الذي عبر عنه بكلمة كن، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠] وأول شيء تكون بتكوين الفيض الأول الروح الأعلى والنور الأربى، وهو روح سيد الأولين والآخرين محمد المصطفى عليه وعلى آله أفضل الصلوات وأزكى التحيات، ونوره، كما قال ـ عليه السلام ـ: «أول ما خلق الله روحي» وفي رواية «نوري»[(١)]. وإنما قال في رواية أخرى: «أول ما خلق الله القلم»[(٢)] لأن روحه كان قلم الحق سبحانه وتعالى، فكما أن القلم يستفيض من المواد للكتابة كان روحه مستفيضاً من الفيض الأول، ويفيض على المكونات فكأن المكونات كتاب كتبه الله تعالى بقلم روحه ومداد أنوار فيضه الأول، فلهذا السر قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «خلق الله القلم من نور ومداده النور»[(٣)] وكل عالم من العوالم المختلفة حرف من حروف كتابه، والإنسان الكامل كلمة من كتابه مركبة من حروف

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٨٢٦) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) أخرجه أحمد في المسند عن عبادة بن الصامت، حديث رقم (٢٢٧٧٤) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت. ورواه غيره.

(٣) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

العوالم المختلفة كلها، كما سمى الله تعالى عيسى ـ عليه السلام ـ بالكلمة فقال: روح الله وكلمته[١]، وكان بهذا الاعتبار كل نبي كلمة، وكان نبينا ـ ﷺ ـ هو الكتاب كله، وقد كشف القناع عن هذا السر بقوله ـ ﷺ ـ: «لما خلق الله القلم قال له اكتب، قال وما أكتب قال: اكتب لا إله إلا الله، محمد رسول الله»[٢] يشير به إلى أنه لا مكون للمكونات إلا الله سبحانه وتعالى لأنه كونها بفيض جوده، ولا وجود للمكونات إلا بمحمد ـ ﷺ ـ لأنه برسالته إلى المكونات، استفاض من الفيض الأول، وأفاض عليهم فتكونوا برسالته كما تتكون الحروف والكلمات برسالة القلم المستفيض من المواد، وتبليغه إلى المصحف وقد صرح النبي ـ ﷺ ـ بتحقيق هذا المعنى في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن أول شيء خلق الله، قال: «هو نور نبيك يا جابر، خلقه ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شيء وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنتي عشرة ألف سنة. ثم جعله أربعة أقسام، فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء وخلق القمر والكواكب من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثنتي عشرة ألف سنة، ثم جعله أربعة أجزاء. فخلق العقل من جزء وخلق العلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنتي عشرة ألف سنة ثم نظر الله إليه فترشح النور عرقاً فقطرت منه مائة ألف وعشرين ألفاً وأربعة آلاف قطرة من النور، فخلق الله تعالى من كل قطرة روح نبي أو رسول ثم تنفست أرواح الأنبياء ـ عليهم السلام ـ فخلق الله تعالى من أنفاسهم نور الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة، فالعرش والكرسي من نوري والكروبيون من نوري والروحانيون من الملائكة من نوري وملائكة السموات السبع من نوري والجنة وما فيها من النعيم من نوري والشمس والقمر والكواكب من نوري والعقل والعلم والتوفيق من نوري وأرواح الرسل والأنبياء من نوري والشهداء والسعداء من نتائج نوري، ثم خلق الله اثني عشر حجاباً فأقام النور وهو الجزء الرابع في كل حجاب ألف سنة وهي مقامات المعبودية وهي حجاب الكرامة والسعادة والهيبة

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (النساء: الآية ١٧١).
(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٨٢٣)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

والرحمة والرأفة والعلم والحلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين فعبد الله به ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب ركبه الله تعالى في الأرض فكان يضيء منها ما بين المشرق والمغرب كالسراج في الليل المظلم. ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور في جبينه، ثم انتقل منه إلى شيث وكان ينتقل من طاهر إلى طيب ومن طيب إلى طاهر إلى أن أوصله إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب ومنه إلى رحم أمي آمنة ثم أخرجني إلى الدنيا فجعلني سيد المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين وقائد الغر المحجلين، هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر»(١). فثبت أن المكونات تكونت بإضافة فيض نور النبي - ﷺ - الذي هو مستفيض من الفيض الأول فكان مثل روحه - ﷺ - مع المكونات مثل البذر مع الشجر فإن أصلها وفرعها وجذعها وأوراقها وثمراتها متفرعات ونتائج من البذور فيصح عن الزارع، لو قال للبذور لولاك لما زرعت الشجرة كما قال تعالى لنبيه - ﷺ - لولاك لما خلقت الكون.

ثم اعلم أنه كما أن للبذر لطافة مودعة فيه بالحكمة البالغة لقبول تعلق النفس النامية التي هي من عالم الملك وله مكان من جنسه ليستقر فيه ولا بد له من مادة ليستمد منها المدد لاستكمال الشجرة، وهي الأرض فكذلك كان لروح محمد - ﷺ - لطافة مودعة فيه لقبول تعلق الفيض الإلهي به وهو غير جنس روحه وله مكان من جنسه ليستقر فيه، وهو الوجود الروحاني ولا بد له من مادة يستمد منها لاستكمال شجرة المكونات وهي الفيض الأول أعني أمر كن فإنه يمده إلى الأبد، ثم نقول: الأمر بالنسبة إلى الآمر هو الفيض الأول وبالنسبة إلى المأمورات فهو المفيض وأول فيضه الروح كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] فبهذه النسبة فالروح هو الفيض الأول ومنه ينشأ عالم الأرواح بأسره فروح النبي - ﷺ - بهذا الاعتبار آدم الأرواح وأبوها كما كان - عليه السلام - آدم الأشباح وأباها.

فصل: ثم اعلم أن أقسام المكونات تنقسم إلى قسمين: روحانيات وجسمانيات، وقد تسمى بالغيب والشهادة، وتارة تسمى بالعلويات والسفليات، وأخرى تسمى بالدنيا والعقبى والآخرة والأولى، ومرة تسمى بالملك والملكوت فالملك ما يظهر من الكون وتدركه الحواس الخمس وهو قابل للقسمة والتجزيء والملكوت ما بطن من الكون ولا تدركه الحواس الخمس، ولا يقبل القسمة

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

والتجزيء؛ لأنه ليس بجسم ولا عرض بل هو جوهر قائم بذاته والدليل عليه أن الجسم إذا قبل صورة ما، لم يمكنه أن يقبل صورة غيرها من جنسها إلا بعد أن يخلع الصورة الأولى ويفارقها على التمام، ومثال ذلك أن الفضة إذا قبلت صورة الجام(١) لم يمكنها أن تقبل صورة الكوز إلا بعد أن يزول عنها صورة الجام ويخلعها خلعاً تاماً، وكذلك الشمع إذا قبل صورة نقش ما، لم يمكنه أن يقبل صورة نقش آخر إلا بعد أن تنمحي صورة النقش الأول وتفارقه مفارقة تامة، وعلى هذا جميع الأجسام وهذه قضية صادقة مشهورة لا يحتاج فيها إلى دليل، فإنّا إذا وجدنا شيئاً حاله بخلاف حال الأجسام في المعنى الذي ذكرناه، أعني أنه يقبل صوراً كثيرة من غير أن يبطل شيء منها تبين لنا أنه ليس بجسم، فإن بان لنا أنه كلما كثرت هذه الصور فيها ازدادت قوة على قبول غيرها، ثم جرى ذلك منها على هذا النظام إلى غير نهاية، ازددنا بصيرة ويقيناً أنه ليس بجسم فالروح الإنساني الذي هو من الملكوت الأعلى بهذه الصفة، وذلك أنه إذا قبل صورة معقول ما أو ثبتت تلك الصورة ازداد بها قوة على تصور معقول آخر إليها من غير أن تفسد الصورة الأولى، ثم كلما كثرت صور المعقولات فيه اقتدر بها على قبول غيرها وقوي في هذا القبول قوة متزايدة بحسب تزايد المعقولات.

فصل: ثم إنه من الأمور المسلمة أن الإنسان إنما تميز عن البهائم وغيرها بهذا المعنى الموجود له بتخاطيطه ولا بشيء من أشكاله البدنية، ومن الدليل على أن ذلك كذلك أن هذا المعنى هو الذي يقال به فلان أكثر إنسانية من فلان إذا كان فيه أبين وأظهر، ولو كانت الإنسانية بالتخطيط وغيرها من جملة البدن لكان إذا تزايدت من إنسان قيل بها فلان أكثر إنسانية من فلان، ولسنا نجد الأمر كذلك، وبهذا المعنى الذي ذكرناه يسمى مرة بما نسميه روحاً إنسانياً ومرة نفساً ناطقة ومرة قوة عاقلة ومرة قوة مميزة ولسنا نشاح في الأسماء فليسم بأي اسم كان، ولكن الاسم الذي به سماه الله تعالى ورسوله أولى به وأليق وهو الروح، ومما يدل أيضاً أن هذا المعنى أي الروح ليس بجسم أن جميع أعضاء الإنسان وغيرها من الحيوان صغر فيه أم كبر ظهر منه أو بطن، إنما هو آلة مستعملة لغرض لم يكن يتم إلا بها وإذا كان البدن كله آلات ولكل آلة منها فعل خاص لا يتم إلا بها اقتضى مستعملاً يستعمله كما نجد آلات الصائغ والنجار وغيرهما، وليس يجوز أن يقال: إن بعض البدن يستعمل بعضه هذا

(١) الجَامُ: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وقد غلب استعماله في قدح الشراب. ويقال: صب عليه جام غضبه. (المعجم الوجيز، مادة الجام).

الاستعمال لأن ذلك البعض الذي يشار إليه ويظن أنه يستعمل الآلات الباقية هو أيضاً آلة وجزء من آلة وجميعها مستعملة فمستعملها غيرها، وإذا كان مستعملها غيرها ولم يكن جزءاً منها وجب أن يكون غير جسم ليتم له ألا يشغله مكان الجسم، ولأن آلات الجسمية في مواضعها؛ لأنه لا يحتاج إلى مكان ويستعملها كلها على اختلاف الأغراض المستعملة فيها في حال واحد من غير غلط، ولا عجز ليتم من الجميع أمر واحد، فإن هذه الأحوال ليست أحوال الأجسام ولا موضوعة في أحكامها، ثم نقول إن الروح ليس بعرض ولا مزاج؛ لأن المزاج والأعراض توجد في الجسم كلها تابعة للجسم والتابع للشيء هو أخس منه وأقل حظاً من الوجود؛ لأنه لا يوجد إلا بوجوده، فإن كان أخس منه فكيف يستخدمه ويستعمله كما يستعمل الصانع آلته ويصير رئيساً عليه ومتحكماً فيه، هذا قبيح شنيع.

٩٠٣

الباب الأول
في مقام المعرفة

وفيه ثلاثة فصول:

مقام المعرفة:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] جاء في التفسير: وما عرفوا الله حق معرفته، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: «إن دعامة البيت أساس، ودعامة الدين المعرفة بالله واليقين والعقل القامع فقلت: بأبي وأمي ما العقل القامع؟ قال: الكف عن معاصي الله والحرص على طاعة الله»(١). وقال داود ـ عليه السلام ـ يا رب لماذا خلقت الخلق قال: (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف)(٢).

اعلم أن ألسنة الفصحاء عن ذكر حقائق أمور المعرفة محتبسة وقلوب العرفاء عن شرح دقائقها مختنسة، حارت عن التكشف بكيفيتها عقول العقلاء وطارت عن استدراك كليتها بصائر العلماء فرجعت العقول منه خاسرة خائبة وانقلبت البصائر إليهم خاسئة هائبة تعظيماً وإجلالاً لتلك المعاهد وتخشعاً وتذللاً لتلك المقاصد جل جناب القدس عن درك العقول وعز سرادق الكبرياء عن الحضور بالوصول وكبر عنقاء الوصول عن الاصطبار بالحصول.

لقد طفت في تلك المعاهد كلها	وسيرت طرفي بين تلك العوالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر	على ذقن أو قارعاً سن نادم

(١) أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٢٢) طبعة القاهرة.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١٤) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ولكن غاية الأمر مع عظم شأنه وعزيز برهانه، قد جعل الله للسائرين إليه منارات ورتب وللطائرين به مقامات، فبلغهم من ذلك على قدر ما طابت لهم ريح العناية وسارت بهم على فلك الاستقامة حتى وصلوا إلى معادن جواهر الهداية فبذلوا ليحصلوا، وانفصلوا ليتصلوا فهبت نفحات ألطاف الربوبية فانحرفت حجب أستار البشرية عن وجه العبودية عند سطوات نكهات أوصاف الألوهية، فكشف عن قلوبهم غطاء ظلمة الفكرة وكوشفوا بأنوار المعرفة، فعاشوا بعد أن طاشوا، وطاشوا بعد أن عاشوا، فتارة بتجلي جماله عاشوا، وأخرى بتجلي جلاله طاشوا فيه مترددون بين روضة عيش وغدير طيش، إلى أن قطعوا مفاوز العيش وعبروا عن بحار الطيش، فلم يبق العيش ولا الطيش ففنوا عن أنانيتهم بهويته وبقوا بلاهم بربوبيته.

واعلم أن مقامات المعرفة مبنية على ثلاثة فصول:

الفصل الأول : في مقام معرفة العوام.

الفصل الثاني: في مقام معرفة الخواص.

الفصل الثالث: في مقام معرفة أخص الخواص.

الفصل الأول

في مقام معرفة العوام

وهي معرفة عقلية، وقد تساوى فيه المسلم والكافر، واليهود والنصارى، والمجوس والملاحدة، والفلاسفة والطبائعية والدهرية، فإن لهم شركة في العقل، وقد اتفق كلهم على وجود إله بلا خلف وإنما وقع الخلاف فيما بينهم في صفات الألوهية لا في الذات، وهذا الخلاف أيضاً واقع فيما بين المسلمين، ولكل طائفة منهم مذهب في إثبات الصفات ونفيها فلا نشرع في شرحه لئلا يخرجنا من حد الإيجاز، والذي يدل على اتفاق المؤمن والكافر في إثبات ذات الله تعالى قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ ولقد قال الذين يعبدون الأصنام أيضاً: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣] .

واعلم أن هذا النوع من المعرفة أعني المعرفة العقلية ليست بمنجية من النار إلا أن يكون الاستدلال العقلي مؤيداً بنور الإيمان ومؤكداً بالأعمال الصالحة. والله أعلم. والمعرفة العقلية ما يكون ثابتاً بالدليل الواضح على وجود الصانع الباري ووحدانيته من الإلهية جل جلاله.

ثم اعلم أن أولى الاستدلالات على وجود الصانع ووحدانيته بالحركة وأنها أظهر

الأشياء دلالة عليه وهو أن أحد الأصول المبنية للعقل التي قال بها من اتبع الحق إنه لا يحدث شيء من الأشياء من غير علة ولا يتحرك متحرك إلا عن محرك له سواه، وذلك أن لكل جسم طبيعي حركة تخصه، وذلك أن الجسم ما كان منه موجوداً وما كان منه متكوناً وإنما قوامه بصورته الخاصة التي هي به، وصورته الخاصة هي المقومة لذاته هي طبيعته وطبيعة مبدأ الحركة الخاصة به، وحركته الخاصة به هي التي تحركه إلى تمامه، وتمام كل شيء هو ما لائمه ووافقه وكذلك كل متحرك يتحرك إلى تمامه وإلى ما يوافقه، ولهذا قيل: إن كل متحرك يتحرك إلى تمامه فهو بالشوق والذي يشتاق فهو معلول مما يشتاق إليه والعلة تتقدم على المعلول بالطبع، فلذلك صار الاستدلال بالحركة أظهر الأشياء وأولاها بالدلالة على الصانع عز وجل. ونعود فنقول إن الحركة المطابقة للأجسام الطبيعية هي ست: حركة الكون، والفساد، والنمو، والنقصان، والاستحالة، والنقلة. وذلك أن للحركة نقلاً وتبدلاً ما، والتبدل في جسم إذا كان طبيعياً لا يخلو من أن يكون عرضاً إما بمكانه، وإما بكيفيته وإما بجوهره. وأما التبدل بالمكان فإما أن يكون بكله أو بجزئه، فإن كان بكله كانت حركته مستقيمة، وإن تبدل بجزئه كانت حركته مستديرة، ونفرض للمستدير أن يتحرك أيضاً إما من محيطه إلى مركزه وإما من مركزه إلى محيطه، فإن تحرك من مركزه إلى محيطه كانت حركته نمواً، وإن تحرك من محيطه إلى مركزه كانت حركته نقصاناً، وأما المتبدل بالكيفية فليس يخلو إما أن يحفظ جوهره أو لا يحفظ، فإن حفظ جوهره كانت حركته استحالة، وإن لم يحفظ جوهره كانت حركته فساداً، وهذه الحركة الأخيرة إذا نظر إليها بقي إلى جوهره الثاني، أعني ما استحال إليه سميت كوناً، ثم نقول: إن لكل متحرك بحركة من أنواع الحركات محركاً سواه، وإن محرك جميع الأشياء غير متحرك وأنه علة تمامها وعلة حركتها، وذلك لأن كل متحرك تحرك بغير محرك فذلك المتحرك لا يخلو من أن يكون حياً أو غير حي، فإن كان حياً وادعى مدع أن حركته من ذاته لا من غيره، قلنا له: لو كان كذلك لكنا إذا نزعنا جزءاً من أجزائه الشريفة بقيت حركة الحي وحركة الجزء المنتزع جميعاً، وليس الأمر كذلك بل هو بالضد، فليس إذاً ذات جوهر الحي هو المحرك بل غيره، وإن كان المحرك غير حي فهو إما نبات وإما جماد، فإن كان نباتاً فيلزم في حركته ما يلزم من حركة الحي أيضاً، وإن كان جماداً فإنه إما أن يكون أحد العناصر الأربعة أو واحداً من مركباتها، فإن كان أحد العناصر لزم فيه إن كانت حركته من ذاته ألا يقف إذا بلغ موضعه الخاص به إذا انتهى إليه، وإن وقف فيه لزم أن يقف في غيره كما يقف الحيوان حيث

يريد، وليس الأمر على ذلك فليست حركة العناصر من ذاتها فهي إذاً من غيرها، وكذلك حال المركبات من العناصر.

فإن قال قائل: إن حركة العناصر إنما هي لطلبها المكان الذي يخصه؛ لأنه هو المطلوب المتشوق إليه، وكل مطلوب متشوق إليه فهو المحرك لطالبه فمن هذه الجهة أيضاً محرك العناصر غيرها، ويمكن أن نبين على هذه الجهة أن الحيوان إنما يتحرك بالشهوة أو بالكراهة، أما بالشهوة فليدنو من المشتهى شوقاً إليه، وأما بالكراهة فليبعد من المكروه هرباً منه، فمحركه إذاً غيره. ثم ننظر في هذا المحرك أيضاً، فإن لزمه نوع من أنواع الحركة لزم فيه ما لزم في المتحرك الأول، ولا يزال كذلك إلى أن ينتهي إلى محرك لا يتحرك بنوع من أنواع الحركة، وهو مبدأ أو علة لوجود جميع الأشياء، وبه قوام كل جوهر ووجود كل موجود. وإذا تبين ذلك فقد علم أن الوجود في جميع الأشياء بالعرض وهو في المبدع الأول بالذات، وقد اجتمعت العلماء والحكماء على أن كل ما يوجد في شيء ما بالعرض فهو في شيء آخر بالذات، وذلك أن العرض في الشيء أثر، والأثر حركة ولا بد له من مؤثر فقط، فالوجود إذاً ذات المبدع الأول الواحد الصمد جل جلاله؛ لأنه لم يقبله من غيره، ومن قبله جميع الأشياء التي دونه، وبه قوام صور الموجودات. وإذا كان الوجود فيه كما قلنا ذاتياً فليس يجوز أن يتوهم معدوماً. فهو واجب الوجود وما كان واجب الوجود فهو دائم الوجود، وما كان دائم الوجود فهو أزلي وإذا كان كذلك فلا يجوز أن يتوهم شيء من أنواع الموجودات لم يكن وجوده منه، لأنه عز وجل الذي فاض به وأعطاه ما دونه فهو إذاً من الوجود في أعلى رتبة ووجودات سائر الأشياء كلها فائضة عنه ومستفادة منه وبيان أنه تعالى واحد أنه لو كان الفاعلون أكثر من واحد للزم أن يكونوا مركبين وذلك أنهم اشتركوا في أنهم فاعلون واختلفوا بالذوات، ولا بد أن يكون الشيء الذي به خالف أحدهم الآخر غير ما وافقه به، فيجب من ذلك أن يكون كل واحد منهم مركباً من جوهر وفصل، والتركيب حركة؛ لأنه أثر ولا بد له من مؤثر على ما تبين من قبل، فيجب من ذلك أن يكون للفاعل فاعل، وهذا يمر بلا نهاية فالبضرورة يرتقي إلى فاعل واحد يفعل بعض أفعاله بذاته وبعضها بتوسط أشياء من مفعولاته. والله أعلم.

الفصل الثاني
في مقام المعرفة النظرية
وهي معرفة الخواص

وهم أهل البصائر والرؤية من أرباب القلوب السليمة الزكية فإنهم ينظرون من روزنة القلوب في ملكوت الأشياء، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥] فيرون الآيات المودعة في كل شيء فتدل الآيات على معرفة الله ووحدانيته كما قيل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وإن القلب إذا سلم عن الآفات وأعرض عن الدنيا، وأقبل إلى المولى وصقل بمصقل الذكر زالت عنه كدورات صفات البشرية وتنور بنور الذكر وهو كلمة: لا إله إلا الله، وهي مركبة من نفي وإثبات فبنفيها تنفي شواغل القلب وظلماتها، وبالإثبات تثبت شواهد أنوار المذكور فينكشف الغطاء عن بصر بصيرة القلب، فيرى بها جمال آيات الحق تعالى كما قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] ومن هنا قال من قال: ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه، فمعرفة العوام بدلائل المعقول ومعرفة الخواص بشواهد المدلول فأين من يعرف الحق تعالى بإرادة العقل، ممن يعرفه الحق بإرادة آياته في مرآة الآفاق وقلبه كما قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] .

الفصل الثالث
في مقام المعرفة الشهودية
وهي معرفة أخص الخواص

وهم أصحاب مشاهدات الجمال وأرباب مكاشفات الجلال، الذين استخصهم الله بهذه السعادة واصطفاهم لهذه السيادة بلا هم، وهم في كتم العدم محبوسون من عهد القدم، وخياط القضاء بخياطة القدر، وخيط المشيئة على حانوت الأزل بيد العناية وقوة القدرة، وصناعة الحكمة كأن يخيط خلعة المعرفة على قدهم من ثوب قد نسج من سدى يحبهم ولحمة يحبونه، كما قال الله تعالى: (فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف)[1]، فكان

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

وجود العالم بما فيه في الخلقية تبعاً لهذه المعرفة فلا يدري أهي درة في صدف المحبة أو المحبة درة صدف المعرفة، فإن المحبة بغير المعرفة لا يمكن وصولها، وإن المعرفة بغير المحبة لا يمكن حصولها، فلما أمعنت النظر وأتقنت الفكر كوشف لي أن المعرفة صدف درة المحبة؛ لأن المحبة من صفات الله تعالى، والمعرفة من صفة العبد، ولهذا سبقت المحبة على المعرفة حيث قال: فأحببت أن أعرف، فقد أضاف المحبة إلى نفسه ونسب المعرفة إلى غيره والمحبة قديمة والمعرفة حادثة، والقديمة أولى بالدُّرية، والحادث أحرى بالصدفية، وقد كشف القناع عن وجه هذا المعنى النبي - ﷺ -: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»[1] حيث قال: «إن الله خلق آدم على صورته»[2] أي على صفته، فتحقق من هذا أن العالم صدف ودرته، آدم - عليه السلام - وآدم صدفة ودرته، محمد - ﷺ - وشخص محمد صدف وقلبه درته وقلبه صدف والمعرفة درته والمعرفة صدف والمحبة درته، ولهذا سمي حبيب الله، واختص بهذا الاسم دون سائر الخليقة من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين، وهو المشار إليه بكفاية المحبة والمعرفة في قوله تعالى: «فأحببت أن أعرف»[3] والناس تبع له في نيل هذين المقامين ومن هنا كان النبي - ﷺ - يقول: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[4] ويقول: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر»[5] ولواؤه هو المقام المحمود الذي خصه الله تعالى به من كمال المعرفة والمحبة، وما بلغ إليه من سواه وهم تحت مقامه.

ثم اعلم أن لكل نبي وولي تمتعاً من مقام هذه المعرفة على قدر شهودهم الذي قدر الله لهم، واستعدادهم في قبول الفيض الإلهي بلا واسطة حجاب، ولا يبلغ السائر الصادق إلى هذه المرتبة السنية إلا بالعبور على مقامات النفس، والقلب، والسر، والروح، والخفي مؤيداً بالتأييد الإلهي كما يجيء شرحه في مواضعه إن

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه، حديث رقم (١١٥ـ ٢٦١٢) طبعة دار الكتب العلمية بيروت. ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٨٣١١) دار الكتب العلمية ـ بيروت. ورواه غيرهما.

(٣) أي في الحديث القدسي الذي سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٤) تصوير بيروت، وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال حديث رقم (٣٢٠٣٧) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٥) رواه أحمد في المسند عن عبد الله بن عباس، حديث رقم (٢٥٥١) طبعة دار الكتب العلمية، ورواه غيره.

شاء الله تعالى. ثم السير يتبدل بالطير فالسير يكون في مقامات البشرية السفلية بالجذبة، فالجذبة تبعده عن أنانيته وتقربه إلى هويته إلى أن تورث الجذبة المشاهدة، فالمشاهدة أحضرته معه وغيبته عنه إلى أن تثمر المشاهدة المعاينة، فالمعاينة تجمعه به وتفرقه عنه إلى أن ظهر بالعيان، فالعيان يسحقه والعين يمحقه، ثم يحق الحق ويزهق الباطل، فيكاشف بأنوار غيب الغيب، فيطالع أسرار ربوبية الملك والملكوت، ويله حيران في تيه العظمة والجبروت، حتى يتجلى له شمس الربوبية عن سماء العبودية، فأشرقت أرض البشرية بنور ربها، وترقى المقام إلى تلألأ أنوار الألوهية المستفادة من سر الله نور السموات والأرض، ثم هبت نفحات ألطاف الربوبية، وانفتح في عين الشمس باب الهوية، وانغمس فيه المنغمس ثم لا يسأل. شعر:

قد كان ما كان سراً لا أبوح به فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فاستضاءت الآفاق الجسدانية بضوء الشريعة، وظهرت المشكاة النفسانية بلوامع الطريقة، وتنورت الزجاجة القلبية بأنوار حقيقة الروحانية، وأشرق المصباح الروحاني بنار نور الإلهية، وبدت شجرة الوحدانية ونودي موسى السر من الشجرة: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] فانمحت الجهات، وتلاشت الصور، وانطمست الأبعاض وانعدمت الأجزاء، وسطت عزة الوحدانية، وتجلى نور الصمدانية الربانية، فدك جبل الإنسانية وخر موسى الروحانية صعقاً، فاحترقت الغيرية بنار العينية، وارتفعت الشركة وبقيت الوحدة متعززة برداء الكبرياء والعزة متزرة بإزار العلاء والعظمة، وحده لا شريك له: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨] هذا أوان ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] هذا وقت ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣] ألا وهو سر «كنت له سمعاً وبصراً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق» ولعمري إن هذا حال من كوشف أسرار «كنت كنزاً مخفياً» فلما كشف الغطاء وذهب الخفاء ورفع الخباء وطويت الأرض والسماء ظهر الخفاء ودام اللقاء فـ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] ولا القلب ما روى فرعى في رياض المعرفة وشرب من حياض المحبة وسقى بكأس الجمال شراب الجلال من بحر الوصال، فاستراح من ضروب القيل والقال، وكثرة السؤال وتغير الأحوال، إذ تجافى عن المحاط المطلق المحيط به، والغيب المحاط يحيط به غيب المحيط المطلق، فتحقق له حقيقة ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤] كما أقول:

أبان الحق ليس به خفاء وباح السر وانكشف الغطاء

فنفسي زايلت والروح بادت فلم يبق التكدر والصفاء
تحلت سطوة الجبروت حتى فنينا ثم قد فنى الفناء
بقاء الحق أفنانا وأفنى بفناء فنائنا ذاك البقاء

فهذا مقام المعرفة الشهودية الحقيقية التي يعرف فيها الرب بالرب، كما قال ـ عليه السلام ـ: «عرفت ربي بربي، ولولا فضل ربي ما عرفت ربي»[(١)] ورزقنا الله وإياكم كمالية هذا المقام وثبت الله أقدامنا على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام.

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الباب الثاني
في مقام توحيد العوام

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول
في مقام توحيد العوام

وهو مقام المبتدي قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١] فلما سأل العوام الجهال عن الله تعالى النبي - ﷺ - قائلين له: أنسب لنا ربك من أي شيء هو من ذهب أو من فضة؟ فأنزل الله تعالى هذه السورة(١)، وأمره أن يصفه تعالى بأمر ملائم لعقولهم على حسب مقامهم، وعرف لهم نفسه به مخبراً عن معنيين وهما: إثبات صفات الكمال وسلب صفات النقصان.

فأثبت أنه هو الله أحد، وهو للحصر، أي هو الله الذي أحدي في ذاته بالإلٰهية، ليس له ثان في الإلٰهية والأحدية، فأما نفي الإثنينية عنه في الإلٰهية، فقد تقدم الدليل عليه، وأما نفي الإثنينية لأحديته فلأن أحديته لا تشبه أحدية شيء آخر، وذلك أن كل شيء في أحديته قابل للتصنيف، والتضعيف، بحيث لو نصف أو ضعف ذلك الشيء لا يتغير عن جنسيته التي اختص بها مثله، كمثل دينار واحد، أو ثوب واحد، لو نصف أحدهما يبقى منه نصفه ولو ضعف يصير مثنى ولا يتغير من الجنسية المختصة بالدينار أو الثوب بخلاف أحدية الإلٰهية، فإنها تتغير بالتصنيف والتضعيف عن الإلٰهية وصفتها؛ لأن من وصف الإلٰهي أن لا يكون ناقصاً ولا زائداً كما ثبت في الدليل، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٢] دال على هذا المعنى؛ لأن

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة الإخلاص، حديث رقم (٣٩٨٧) [ج٢ ص ٥٨٩]. وأخرجه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الإخلاص، حديث رقم (٣٣٦٤) وأخرجه غيرهما، وانظر تخريجه في كنز العمال للمتقي الهندي، كتاب الأذكار، قسم الأفعال، سورة الإخلاص حديث رقم (٤٧٣١).

الصمد هو الكامل الذي لا يحتاج إلى شيء لكماليته وكل شيء ناقص بالنسبة إلى كماله محتاج إليه في إتمامه، وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾ [الإخلاص: ٣ـ ٤] يدل على سلب صفات النقص، ليعلم أن معرفته مبنية على إثبات صفات الكمال وسلب صفات النقص لأرباب النظر، وكان أصل أحد: وحد، فقلبت الواو همزة، والواو المفتوحة قد تقلب همزة كما تقلب المكسورة والمضمومة، ومنه امرأة أسماء بمعنى وسماء من الوسامة. ومعنى الواحد في اسمه سبحانه قيل: هو الذي لا يصح في وصفه الوضع والدفع بخلاف قولك: إنسان واحد؛ لأنك تقول إنسان بلا يد ولا رجل، فيصح رفع الشيء منه والحق سبحانه بخلاف ذلك، ويقال التوحيد على لسان العلم: الحكم بأن الشيء واحد. وأيضاً العلم بأن الشيء واحد وقالوا: وحدته إذا وصفته بالوحدانية كما يقال: شجعت فلاناً إذا نسبته إلى الشجاعة، وقيل: التوحيد ثلاثة:

الأول: توحيد الحق للحق: وهو علمه بأنه واحد وخبره عنه بأنه واحد.

الثاني: توحيد الحق للخلق: وهو حكمه سبحانه بأن العبد موحد وخلقه توحيد العبد.

والثالث: توحيد الخلق للحق: وهو علم العبد بأن الله واحد وحكمه وإخباره عنه بأنه واحد.

واعلم أن التوحيد فرض على المؤمنين بقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هُود: ١٤] ففرض التوحيد: اعتقاد القلب أن الله عز وجل واحد لا من طريق عدد، أول ولا ثاني له، أزلي لا أزلية لقدمه، أبدي لا غاية لأبديته، آخر في أوليته، أولي في آخريته، ظاهر في باطنيته باطن في ظاهريته، وهو حي وله حياة، ومريد له إرادة، وقادر له قدرة، وسميع له سمع، وبصير له بصر، ومتكلم له كلام، وعليم له علم، وباق له بقاء، وأن صفاته وأسماءه وأنواره غير مخلوقة ولا منفصلة عنه، وأنه أمام كل شيء ووراء كل شيء وفوق كل شيء ومع كل شيء ومن نفس الشيء، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء، وليست الأشياء محلاً له، ولا يشبه الأشياء، وأنه على العرش استوى، كيف شاء بلا تكييف، استواء يليق بذاته، وأنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا نزولاً يوافق صفاته ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فَاطِر: ١٠] وهو باين من جميع خلقه يحتاج إليه العرش وحملته، وهو حاملهم بقدرته كيف يشاء، غير محتاج إلى شيء من خلقه، كان الله ولم يكن معه شيء له الأسماء الحسنى والصفات العلى. لا زال ولم يزل بها موصوفاً لا أغيار فتفارقه، كما قالته الكرامية، ولا ذاته

متماثلة كما قالته النصارى والهذيلية من المعتزلة، ولا أحوال تعرف كما قالته البهشيمية، ليس بجسم فيكون محدثاً مركباً كما قالته المجسمة، ولا جوهر فيكون محلاً حاملاً، منزه عن الصفات الموجبة للحدوث والآفات موصوف بما وصف به نفسه، هو ورسوله، تعالى عن أن يكون في المخلوقات كما وصفه جهم ومتبعوه، خلق آدم بيديه كما قال تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، وكلتا يديه يمين، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القَصَص: ٨٨] نفذت مشيئته كما سبق الأشياء علمه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، خالق المحدثات وصانع المصنوعات، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفُرقان: ٢] لا خالق معه يشاركه في خلقه، كما قال: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فَاطِر: ٣] والخلق لا يستطيعون أن يخرجوا من علمه ولا يقدرون على اكتسابهم إلا بعونه، وهم محتاجون إلى الله تعالى في كل جزء من أفعالهم في أن يعطيهم حولاً وقوة، وأن ما وجدوه من الإيمان والطاعات فبهدايته وتوفيقه ولطفه، وما تركوه من السيئات فبعصمته وتسديده، وما كان من كفرهم ومعصيتهم فبخذلانه ومشيئته، يعترفون أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، قال الله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعـراف: ١٨٨] وأن الله تعـالـى ينعم على من يشاء من خلقه ويؤلم من يشاء، ويغني ويفقر ويؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء، وهو في جميع ذلك عدل غير جائر؛ لأنه المالك القاهر، الذي كانت الأشياء به وليس فوقه آمر ولا زاجر، بذلك نطق الكتاب، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، ويعتقدون أنه تعالى يراه أولياؤه في الآخرة، وأن الكافرين محجوبون عنه، ويسألون النظر إلى وجهه الكريم تأسياً برسولهم، وهو من أعظم نعيم أهل الجنة عندهم، لا يوازنه نعمة ويقرون بعذاب القبر ويتعوذون بالله منه، ويرون أن السؤال في القبر حق والبعث بعد الموت حق، والحساب والميزان حق، وتطاير الكتب والحوض حق، والوقوف بين يدي الله حق، وشفاعة المصطفى حق لأهل الكبائر، ويخافون على مسيئهم ويرجون لمحسنهم، ولا يكفرون أهل المعاصي من الموجودين المؤمنين كما يكفرهم الخوارج، ولا يخرجونهم من الإيمان كما يذهب إليه المعتزلة، ولا أنهم لا يدخلون النار كما قال بعض المرجئة، بل هم بين خوفه ورجائه، ويكلون أمرهم إلى خالقهم فإن شاء عذبهم وإن شاء عفى عنهم، ويؤمنون بإخراج قوم من النار بشفاعة المصطفى، وإن لم تؤمن به المعتزلة، وبعض الرافضة متبعون لكتاب ربهم ولما ثبت عن نبيهم ملازمون للجماعة

مطيعون لسلطانهم ولا يرون الخروج عليهم كما تراه الخوارج والمعتزلة والروافض، ويؤدون حقوقهم ويصبرون فيما لهم وعليهم، ويفضلون أصحاب نبيهم وآله ويعرفون حقوقهم وينشرون مناقبهم وفضائلهم، ويمسكون عما شجر بينهم تعظيماً لهم، ويرون الأسلم لدينهم ويقدمون أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ في الإمامة والفضل، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليًا كرم الله وجوههم، لا يميزون بينهم كالرافضة، ولا ينكرون فضل عثمان وعلي كالمارقة، يعترفون أنهم الخلفاء الراشدون والمهديون، خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، ويرون الجمعة والجماعة خلف كل بر وفاجر، والمسح على الخفين في السفر والحضر، اقتداء بنبيهم ـ ﷺ ـ. وصدقوا بخروج الدجال ونزول عيسى ـ عليه السلام ـ ومعراج النبي ـ ﷺ ـ في اليقظة والرؤيا حق، والسحر وظهور الآيات وكرامات الأولياء حق، وأن الدعاء حق، وأن الصدقة عن الموتى والاستغفار ينفعهم بفضل الله، وأن الله هو الرزاق حراماً كان أو حلالاً، وأن الله هو المسعر، وغلاء الأسعار ورخصها بيده، والآجال مقدرة لا يموت ميت إلا بأجله، قد سلموا لما ثبت من أخبار نبيهم إيماناً بلا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل، كقول النبي ـ ﷺ ـ: «ينزل الله إلى سماء الدنيا»(١) وأن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء. بلا كيف وكذلك بكل ما ثبت عن نبيهم قائلون ومسلمون لا يرون المراء والخصومات متبعون غير مبتدعين، وأن الله سبحانه لم يزل موجوداً بصفاته كلها، كما لم تزل له، وأن صفاته قائمة به لم تزل كذلك ولا يزال بلا نهاية ولا غاية. وأن ما سوى أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من الملك والملكوت والحروف محدث وكلها كانت بعد أن لم تكن بأوقات مختلفة، محدثة على وفق الإرادة والحكمة البالغة الأزلية، هذا الذي ذكرناه جملة من مذهب أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين الذين اتبعوهم بإحسان، ومعتقد السلف الصالح، وعلى هذا قد اندرج أئمة الهدى والعلماء الراسخون والمشايخ المعتبرون من أرباب الحقيقة، ليقتدي به المريد الصادق والطالب الموافق، ويجعله منار سبيله، وواضح دليله، محترزاً من مذاهب أهل البدعة والأهواء المختلفة، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيما أوصى: «فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»(٢) ففي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: «يريدون أن يبدلوا كلام الله» حديث رقم (٧٤٩٤) ورواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، حديث رقم (١٦٨ـ ٧٥٨) ورواه غيرهما.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (١٨/ ٢٤٩) طبعة العراق. وأخرجه غيره.

قوله ﷺ: «فسيرى اختلافاً كثيراً» إشارة إلى ظهور البدع والأهواء.

فالصراط المستقيم إلى الله تعالى ما كان عليه - ﷺ - هو ومتبعوه كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١] وقال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨] فالله تعالى كما أمر بلزوم المتابعة أمر بمجانبة أهل الأهواء، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف: ٢٨] وقال رسول الله - ﷺ -: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»(١). وقال ابن مسعود - رضي الله عنه -: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم. وقال: من كان مستناً فليستن بمن مات، أولئك أصحاب محمد - ﷺ - كانوا خير هداة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه - ﷺ - ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطريقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم، وقد أخبر النبي - ﷺ - عن افتراق هذه الأمة وظهور الأهواء والبدع فيهم، وحكم بالنجاة لمن اتبع سنته وسنة أصحابه، فقال: «إن بني إسرائيل تفرقت على اثنتين وسبعين ملة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين كلهم في النار إلا ملة واحدة» قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

فعلى الطالب الراغب مجانبة أهل الأهواء والبدع، لئلا يعتقد شيئاً من البدع فلا يفلح أبداً، فإن من شرط السائرين إلى الله تعالى أن يكونوا على الصراط المستقيم ليبلغوا مقاصدهم ويفيد اجتهادهم ويكون سعيهم مشكوراً، ولا يكونوا من جملة من يقول تعالى فيهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣] ومن أراد أن يقف على مذاهب المبتدعين من أهل الأهواء الذين تفرقوا على اثنتين وسبعين فرقة فليطالع كتاب الملل والنحل للشهرستاني فإنها مشروحة فيه. شرحاً وافياً، كافياً، شافياً، والله أعلم.

الفصل الثاني
في مقام توحيد الخواص

وهو توحيد بالحال فضلاً عن المقال وذلك بأن يتحلى القلب بحلية علم التوحيد على ما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [هود: ١٤] أمرهم

(١) أخرجه السيوطي في الدرر المنثور (ج٢/ ص ١٧٨)، وابن كثير في تفسيره (ج١/ ص٥٢١)، وابن حجر العسقلاني في فتح الباري، باب ما يذكر من ذم الرأي (ج١٣/ ص ٢٨٩).

بعلم التوحيد، وذلك مبني على تجريد القلب عن تعلقات الكونين فيكون قابلاً لنور الوحدانية فيستفيد منه علم التوحيد، وهذا مقام الإحسان الذي سأله جبريل - عليه السلام - للنبي - ﷺ فقال: ما الإحسان. قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[١].

وإنما يتهيأ التجريد للقلب بعد أن يتجرد القالب عما له بد منه، غير ما ألجأته إليه الضرورات الإنسانية، لئلا يكون شاغلاً للقلب عن قطع التعلقات، ولا يتيسر للقلب قطع التعلقات إلا بمعونة الذكر، وهو ذكر: لا إله إلا الله، فإن للذكر في هذا المعنى تأثيراً عظيماً، فلهذا قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] فالفلاح فلاح القلب عن تعلقات الكونين، وللذكر آداب وشرائط سنبينها في موضعه إن شاء الله، فبملازمة ذكر اللسان يصفو القلب، ثم بدوام الذكر يتنور القلب بنور الذكر، ودوام الذكر يستدعي العزلة والخلوة، وللخلوة شرائط وآداب نذكر شرحها إن شاء الله تعالى، فإذا تخلى العبد عن الخلق متوجهاً إلى الله تعالى بصدق النية وتردد الذكر بلا فتور ولا قصور، بحيث لا يفتر عنه في طريق الوضوء وحالة الأكل، يأخذ قلبه عن لسانه ولسانه عن قلبه حتى تصير الكلمة متأصلة في القلب، مزيلة لحديث النفس مستولية على قطع العلائق إلى أن يتشربها القلب، فلا يسكت عنها بسكوت اللسان، ثم يتجوهر القلب بجوهر الذكر فينتفي بنفيه حجب تعلقات الكونين، ويثبت بإثباته شواهد المذكور في مرآة القلب عند اتحاد القلب والذكر، فيكاشف بالوحدانية. فيقول: رأى قلبي ربي، فيتحقق له علم التوحيد بعين اليقين. وقال الجنيد: علم التوحيد مباين لوجوده ووجوده مفارق لعلمه. وقال الجريري: ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد، وقال الحصري: أصولنا في التوحيد خمسة أشياء: رفع الحدث، وإفراد القدم، وهجر الإخوان، ومفارقة الأوطان، ونسيان ما علم وجهل.

الفصل الثالث

في مقام توحيد الأخص

قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] اعلم أن مقامات التوحيد ثلاث:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، حديث رقم (٥٠)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (١ ـ ٨)، . وأخرجه غيرهما.

التوحيد: وهو ما يحصل للطالب المبتدىء عن صدق المقال، وقد مر شرحه.

والوحدانية: وهي ما يصدر عن الحال بإرادة الحق في مرآة الآفاق المتوسط كما بينا.

الوحدة: وهي المقام المحمود الذي اختص به محمد ـ ﷺ ـ بقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسرَاء: ٧٩] دون سائر الخلائق، اللهم إلا بعض خواص الأولياء من أمته، ومتابعيه بتبعيته، وذلك من كمالية علم التوحيد المبني على التفريد بعد آداب حق التجريد. وهو أن يفردك الحق عنك بفردانيته عند استيلاء سلطان الذكر حين يخرج من قشر الحرف والصوت فيفنى بسطوة نفيه وجود الذاكر ويبقيه بسلطنة إثباته ببقاء المذكور، فينوب المذكور عن الذاكر بدوام الذكر، على مقتضى قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] فيصير حينئذ الذاكر مذكوراً، والمذكور ذاكراً، ويتبدل الأين بالعين، والمباينة بالمعاينة، والاثنينية بالوحدة هذا أوان أن يسمع بسمعه، ويبصر ببصره، ويتكلم بكلامه، ويعلم بعلمه، أنه لا إله إلا الله ويستغفر عن ذنب حسبان أنه يعلم أنه لا إله إلا الله كما هو؛ لأن علمه غير متناه والذي يدل على اختصاص النبي ـ ﷺ ـ وخواص أمته بحقيقة علم التوحيد المخصوص بلا إله إلا الله، وإن كانت الأمم الماضية يباشرون هذه الكلمة ويعتقدونها ما روينا في كتاب «عوارف المعارف» عن عبد الرحمن بن زيد عن أبيه: أن عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ قال: رب أنبئني عن هذه الأمة المرحومة، قال: أمة محمد ـ ﷺ ـ، علماء أخفياء حلماء كأنهم أنبياء، يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم بالقليل من العمل، وأدخلهم الجنة بلا إله إلا الله. يا عيسى هم أكثر سكان الجنة؛ لأنها لم تذل ألسن قوم قط بلا إله إلا الله كما ذلت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قط بالسجود كما ذلت رقابهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ. قال: إن هذه الآية مكتوبة في التوراة: يا أيها النبي إنا سلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للمؤمنين، وكنزاً للأميين أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى تقام به الملة المعوجة، بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتحوا أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، يعني أعيناً عمياً عن رؤية جمال الحق، وآذاناً صماً عن سماع كلام الحق، وقلوباً غلفاً مغطاة عن إدراك علم التوحيد والمعرفة.

الباب الثالث
في مقام النبوة

وهو يشتمل على عشرة فصول:

الفصل الأول
في كيفية ارتقاء الحواس الخمس إلى الحس المشترك ومنه إلى ما فوقه إلى أن تصير الروح به قابلاً للوحي

اعلم أنا وإن كان قصدنا في هذا الباب الكلام على النبوات ولكنا لا نصل إلى تحقيقه إلا بعد ذكر مراتب الموجودات واتصال بعضها ببعض والحكمة السارية في جميعها التي نشأت من قبل الله الواحد، فأعطت كل مرتبة قسطها ووزنها بميزان العدل كما سنبينه في موضعه إن شاء الله تعالى؛ فاقتصرنا من جميعها على شرح الحواس الخمس التي هي: حاسة السمع والبصر والشم والذوق واللمس، وهي حاصلة في الحيوان الكامل في الحواس الخمس، وهي مع ذلك متفاوتة المراتب: فمنها الجافية الحواس البليدة، ومنها الذكية المطيعة التي تستجيب للتأديب وتقبل الأمر والنهي، وتستعد لقبول أثر النطق والتميز كالفرس من البهائم، والبازي من الطيور، ثم يرتقي في أفقه الأعلى إلى أول مرتبة الإنسان، وهذه المرتبة وإن كانت شريفة من مراتب الحيوانات، وهي أعلاها وأفضلها وهي رتبة خسيسة من مرتبة الإنسان وهي مراتب القرود وأشباهها من الحيوانات التي قاربت الإنسانية وليس بينها وبينها إلا اليسير الذي إن تجاوزته صار إنساناً، فإذا بلغه انتصبت قامته وظهر فيه من قوة التميز إلى الشيء اليسير الذي تناسب حالته وقربه من أفق البهائم. ولكنه على حال يهتدى فضل اهتداء إلى المعارف، ويقوى فيه أثر النفس ويقبل التأديب بالفهم والتمييز، وهذا الأثر وإن كان شريفاً بالإضافة إلى ما دونه من رتب البهائم فهو خسيس دني جداً، بالإضافة إلى

الإنسان الكامل الناطق، ثم للحواس الخمس ارتقاء إلى الحس المشترك ليجمعها ويؤلفها في ذاته، ولولا هو لتفرقت علوم الحواس ولم يكن لها ما يؤلفها ولا ما يحفظها بعد أن تزول آثارها، فنقول: إن النفس لما تحركت الحركة المنسوبة إلى أسفل لم يكن ممكناً للجسم المركب على جفائه وغلظه أن يتصل بالنفس على لطفها وبعدها من الجوهر الحسي إلا بوسائط يلطف فيها الحس أولاً فأول، حتى ينتهي إلى غاية ما يمكنها أن تنتهي إليه، فحينئذ يمكن أن يقع بينهما الاتصال الذي يصير أحدهما قابلاً أثراً من الآخر، ومثال ذلك أن المعدة إذا لطفت الغذاء بالهضم وحصل منه في القلب دم رقيق ألطف ما أمكن من الغذاء، عادت الحرارة التي في القلب عليه فزادته تلطيفاً وأجرته في العروق الجوفية التي تسمى شريانات، وهو ألطف ما يكون من الدم، وحصل منه في العرق الأجوف الذي يرتقي إلى الدماغ فيجري فيه جريان الماء في الأنابيب، أعني أنه يبقى فيه فضاء ما. فلا يختنق فيه بأن يملأه وذلك الدم الحار قريب العهد بالقلب فيرتفع منه بخار لطيف يحصل في فضاء العرق الأجوف الخالي من الدم، كلما ارتفع لطف هذا البخار حتى يحصل في الدماغ فيشعب إلى عروق دقاق كثيرة شبيهة بالشعر في الدقة، ويتفرق في الدماغ فيعدل برده بحره، ويعتدل هو أيضاً ببرد ذلك ويصير منه ما يسمى روحاً حيوانياً، وبحسب صفاء هذا الروح وتهذبه، فحالاته تكون صدور قوى الروح الإنساني عنه واستعداده لقبول آثاره من الحس والفهم، وتنشيء الطبيعة حينئذ من الدماغ أعصاباً يكون بها الحس والحركة الإرادية في جميع البدن وبها يتميز الحيوان من النبات، فمنها العصبة الجوفاء التي تنقسم إلى ثقبي العينين وينفذ فيها ذلك الروح، وقد تهذب غاية تهذبه وتلطف جداً فيكون به البصر، ومنها التي تأتي الأذن فيكون بها السمع وكذلك الباقيات، فإذا حصل في كل واحد من الحواس أثر من المحسوس تأدى منه إلى الحس المشترك، وهو قوة من قوى النفس في أفق هذا الجوهر اللطيف من الجسم يقبل هذه الآثار كلها، وكما أن كل حس من الحواس الخمس يختص بنوع من المحسوس فيقبل آثاره ثم يميز بين أشخاصه، فكذلك الحس الجامع المشترك يقبل الآثار من الحواس كلها، ثم يميز بينها، إلا أن الفرق بينهما: أن الحواس الخمس إنما تقبل الصور من المحسوسات بالدفعات وتتأثر منها والحس المشترك إنما يقبل الصور من الحواس في دفعة واحدة من غير أن يتأثر منها بما يحصل فيه من تلك الصور لأنه في نفسه صورة. والصورة لا تقبل الصورة على طريق التأثر بل على طريق آخر وبنحو أعلى وأشرف، ولذلك لم يدرك الجميع بلا زمان ولا تجزئة ولا انقسام، ولا تختلط الصور هناك ولا تتزاحم

كما تتزاحم في الأجسام، وترتقي هذه القوة إلى قوة تسمى المتخيلة، وربما يظن أنهما واحد، وهذه القوة يظهر فعلها في جزء الدماغ المقدم، ثم يرتقي إلى قوة أخرى للنفس تسمى الحافظة وهي كالخزانة التي تحفظ الأشياء الكثيرة، استحضر منها ما يحتاج إذا امتد الزمان. فهذه القوة يظهر فعلها في الجزء المؤخر من الدماغ، وهناك قوة أخرى للنفس وهي قوة الفكر تقع بها حركة الرؤية والتوجه نحو العقل، ويختص بهذه القوة الإنسان دون سائر الحيوان، ويظهر فعلها في البطن الأوسط من بطون الدماغ وليس للحيوانات الباقية هذا الجزء من الدماغ، وإنما لها تانك القوتان في ذينك الجزءين فقط، ولذلك لا رؤية لها، فإذا حصلت تلك الصورة في هذه القوة حتى تقبلها وتنظر فيها فقد ارتقت إلى أفق الإنسان وفي هذه المرتبة تظهر الإنسانية، وعلى قدر هذه الحركة واستقامتها وصحة نظرها وتميزها تكون مرتبة الإنسان وتميزه عن البهائم وعلى قدر استكمالها بالحركة، وقبولها أثر العقل يكون مقداره من الإنسانية، فإذا جعل الإنسان أقصى سعيه بما يستفيده من حواسه أن يرقيها إلى هذه القوة ويحركها أبداً في طلب أسبابها ومبادئها الأول، أعطاه حينئذ العقل حقائقها فاستكملت صورة الإنسانية فيه وتصورت نفسه بحقائق الأشياء وتلك الحقائق هي أبدية الوجود غير داخلة تحت الكون ولا تحت المدة والزمان لأنها بسائط، فتصير محاولات هذا الإنسان كلها ومساعيه فيها بطريق الرياضات النفسانية والمجاهدات الشرعية كما سيجيء شرحها إن شاء الله تعالى. ويبلغ الإنسان في هذه المرتبة متصاعداً فيها إلى غاية أفقه التي إن تجاوزها لم يكن إنساناً بل صار ملكاً كريماً، وينبغي أن يتصور ذلك كما تصورت الوسائط الأخرى في أواخر أفقها وأوائل آفاق ما هو فوقها، إلى أن تدركه العناية الأزلية، وهبت نفحات ألطاف الحق فانحرقت الحجب النورانية الروحانية بهبوبها، وتأثر الروح العلوي بشواهد الأنوار الربانية، ويتقوى بقوة لم تكن في استعداد الإنسان مجبولة وهي لطيفة ربانية روحانية، تسميها المشايخ خفياً؛ لأنها كانت مخفية مُتكمِنة لا يخرجها من القوة إلى الفعل إلا سطوات الأنوار الربانية، فبالارتقاء إلى مقام الخفي يستعد للترقي من أواخر الأفق الإنساني إلى أوائل آفاق ما فوقها، فيستعد لقبول الفيض الرباني بلا واسطة وهذا مقام الإنباء، بأن ينبئه الحق تعالى بإراءة آياته في آفاق نفسه عما يشاء كما يشاء، أما الأولياء بالإلهام، وأما الأنبياء بالوحي بحسب استعداد كل واحد منهم. والله أعلم.

الفصل الثاني
في كيفية الوحي

اعلم أن ما ذكرناه من مقام الأنبياء هو غاية شرف الإنسانية، والأفق الأعلى منه، فلم يبق له الارتقاء عن هذا المقام بسعيه وجهده بل تختلط إليه الأمور الإلهية والجذبات الربانية وحياً أو إلهاماً، كما قال تعالى لنبيه ـ ﷺ ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] أي: ما كنت تدري مع كمال عقلك وغاية حسن استعدادك، ما يكون الكتاب والإيمان، يشير إلى أن الإنسان بالعقل الكامل لا يطلع على حقائق القرآن ونور الإيمان، ولكن جعلناه يعني الكتاب والإيمان، نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا بالوحي المنزل إليهم، ومثال ذلك: أن الإنسان إنما ارتقى من قوة الحس إلى قوة التخيل، وارتقى من قوة التخيل إلى قوة الفكر، ومن قوة الفكر إلى إدراك حقائق الأمور التي في العقل. وذلك أن هذه القوى متصلة اتصالاً روحانياً كما بينا فيما مضى، فربما عرض لها من قوة قبول بعضها من بعض الآثار أن ينعكس في بعض الأمزجة منحطة كما تصاعدت على سبيل الفيض فيؤثر حينئذ العقل في القوة الفكرية وتؤثر القوة الفكرية في القوة المتخيلة في الحس، فيرى الإنسان أمثلة الأمور المعقولة، أعني حقائق الأشياء ومبادءها وأسبابها، كأنها خارجة عنه. وكأنه يراها ببصره ويسمعها بأذنه، وكما أن النائم يرى أمثلة الأشياء المحسوسة في القوة المتخيلة ويظن أنه يراها من خارج وربما كانت صحيحة مبشرة أو منذرة في المستأنف، وربما رأى الأمور بأعيانها من غير تأويل وربما رآها مرموزة تحتاج إلى تأويل، كذلك حال هذا المستيقظ إذا استقرت فيه هذه القوة العالية أخذته عن المحسوسات حتى كأنها غابت عنها فيشاهد في القوة المتخيلة ما انحدر إليها من علو الخفي من إراءة الله تعالى إياه إلى العقل ومن العقل إلى الفكر ومن الفكر إلى المتخيلة. ويسمع ما لا يشك فيه، ولأن تلك الأمور ليست في زمان فمستقبلها وماضيها واحد. لأنها حاضرة معاً فالأمور لائحة له، فيشاهد مستقبلها كما يشاهد ماضيها فإذا أخبرها كانت صحيحة وكانت وحياً. والله أعلم.

الفصل الثالث

في أصناف الوحي

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] فالله تبارك وتعالى جعل أقسام كلامه مع عباده ثلاثة: وحياً بلا واسطة، كما أخبر عن حال النبي - ﷺ - بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝﴾ [النجم: ١٠] وكلاماً من وراء حجاب، كما أخبر عن حال موسى - عليه السلام -. بقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] والذي يدل على أنه كلمه من وراء حجاب قوله تعالى حكاية عن موسى - عليه السلام -: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أي ارفع الحجاب عني لأنظر إليك، وإرسال الرسول: وهو جبريل - عليه السلام - وغيره من الملائكة يرسلهم إلى الرسل - عليهم السلام -، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] ثم أصناف الوحي ثلاثة:

الأول: وحياً للعجماء، وهو بالإجراء كما أخبر عن حال النحل بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٦٨] الآية. فآثار الوحي في معاملاتها ظاهرة. فلو لم يكن أنها اتخذت البيوت المسدسة الهندسية التي يعجز العقلاء عن اتخاذ مثلها، بإجراء الوحي الرباني، وإلا فكيف يصدر من حيوان يكون بمعزل من العقل مثل تلك المعاملات.

الثاني: وحياً للأولياء، وهو بالإلهام كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [المائدة: ١١١] فلو لم يكن إيمان الحواريين بالإلهام الرباني إلى قلوبهم لكفروا. كما أخبر الله تعالى عن حالهم وحال غيرهم من بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ﴾ [آل عمران: ٥٢] فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، يعني فآمنت طائفة الحواريين من بني إسرائيل بالإلهام الرباني وكفرت طائفة منهم إذ لم يلهموا به.

والثالث: وحياً للأنبياء، وهو بالإيحاء من الله تعالى تارة بواسطة جبريل، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وأخرى بغير واسطة في النوم، كما قال تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] وقال رسول الله - ﷺ -: «رؤيا الأنبياء وحي»[1] وقد ورد عن بعض الحكماء الإسلاميين:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عبد الرحمن الرازي في التفسير، حديث رقم (١٨٢٣) [ج١٠ ص ٣٢٢١].

أن أصناف الوحي يجب أن تكون بعدد أصناف قوى النفس وذلك أن الفيض الذي يأتي النفس إما أن تقبله بجميع قواها أو ببعضها، وقوى النفس تنقسم بالقسمة الأولى إلى قسمين وهما: الحس والعقل، وكل واحد من هذين القسمين ينقسم إلى أقسام كثيرة، وأقسامها إلى أقسام أخر كثيرة، حتى تنتهى إلى الجزئيات التي لا نهاية لها، وإنما غرض هذه الأقسام بحسب الآلات والمدركات الكثيرة، فأما قواها: التي هي الحواس فمنها ما هو في أفق النبات، ومنها ما هو في أفق الحيوان البهيمي، ومنها ما هو في أفق الإنسان، وأعلاها مرتبة ما هو في أفق الإنسان، أعني حس البصر والسمع، وذلك أن أول ما يقبله الحيوان من أثر النفس ويتميز به عن النبات هو حس اللمس، الذي يوجد في أنواع الصدف، ثم حس الذوق. والشم، اللذين في أصناف الدود، وكثير من الفراش، ثم تأخره إذا قبل صورة السمع والبصر صار منه الحيوان الشريف الذي شرحنا من أمره ما شرحنا وإنما صار هذان الحسان شريفين لأنهما أبسط وأقل مخالطة للهيولي، وذلك أنهما يقبلان صور الأمور من غير استحالة إليها، فأما تلك الحواس الأخر فإنها لا تقبل الأثر إلا بمخالطة وممازجة واستحالة هيولانية، وإذا كانت صور الحقائق التي تأتي النفس من فوق غير ملابسة لشيء من الهيولي لم تتجاوز حس البصر والسمع؛ لأنه ليس في طاقة الحواس الأخر أن تقبلها بنوع من الأنواع ولا بجهة من الجهات، وعلى أن تلك المعاني البسيطة الشريفة التي انتهت إلى السمع والبصر صار فيها ظل الهيولي، ولذلك تظهر في معرض منها ولم يمكن بعد ذلك أن تتجاوز منها إلى كثافة أخرى؛ لأن في ذلك خروجاً عن ذواتها وهذا محال، فقد تبين أن أصناف الوحي بعدد أصناف قوى النفس إلا ما استنار به من الحواس الثلاث التي هي في أفق الحيوان البهيمي القريب من النبات، وأقواها ما اشتملت عليه النفس بقواها الباقية كلها، ثم اشتملت عليه ببعضها إلى أن ينتهي إلى ما تقبله بقوة واحدة من قواها. وبالله التوفيق والله أعلم. هذا من كلام الحكيم.

وأما ما جاء على لسان العلم من أصناف الوحي؛ فمنها: الرؤيا الصالحة في النوم، كما روت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: أول ما بدىء به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ضوؤه وإنارته. يعني ما يرى في النوم بالليل جاءه بالنهار حقاً ظاهراً لا يحتاج إلى التأويل والتعبير.

ومنها: ما يبدو في اليقظة فيسمع صوتاً أو يرى ضوءاً، كما روينا عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقام رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة خمس عشرة سنة وفي رواية،

ثلاث عشرة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين ولا يرى شيئاً وثماني سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشراً منها ما يرى ملكاً فيكلمه، كما جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارىء وقال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقاريء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء فأخذني وغطني الثالثة. ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ١ ـ ٣] فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زملوني زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. الحديث(١).

ومنها: ما يظهر له الملك في أفق الفلكية، وكما روينا عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يحدث عن فترة الوحي: «بينا أنا واقف فرفعت رأسي إلى السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: فخشيت منه فرقاً فرجعت فقلت: زملوني زملوني دثروني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥] ثم تتابع الوحي»(٢).

ومنها: ما ينفث الملك في الروع، كما جاء في الحديث: «إن الروح الأمين نفث في روعي، أي نفسي وخلدي، أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها»(٣).

ومنها: ما نزل جبريل به على قلبه ـ ﷺ ـ. ومنها: ما يلقيه الله تعالى في القلب بغير واسطة جبريل كما جاء في الأحاديث الربانية، كقوله ـ عليه السلام ـ: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»(٤) الحديث.

ومنها: ما يأتي به جبريل ـ عليه السلام ـ: متمثلاً في صورة إنسان، كما كان يأتي في صورة دحية وصورة الأعرابي.

ومنها: ما يأتي به غيره من الملائكة كما كان يأتي في صور مختلفة. ومنها: ما كان سراً بين الله تعالى ورسوله ـ ﷺ ـ، فلم يحدث به أحداً.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب «اقرأ باسم ربك الذي خلق» حديث رقم (٤٤٥٣)، ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ حديث رقم (٢٥٢ـ ١٦٠). ورواه غيرهما.

(٢) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٢٠) طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت.

(٣) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع (٥٥٧٥) طبعة مجمع البحوث، وأخرجه غيره.

(٤) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٩٣٧٠) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ومنها: ما يحدث به الناس، وذلك على صنفين: فمنه ما كان مأموراً بكتابته قرآناً، ومنه ما لم يكن مأموراً بكتابته قرآناً، فلم يكن في القرآن والله أعلم.

الفصل الرابع
في أن العقل ملك مطاع بالطبع

متهيء لقبول الوحي والإيمان به:

اعلم: أن الله تعالى خص العقل برتبة هي أعلى مراتب المبدعات، وأن جميعها محتاجة إليه وهو الذي يمدها بفضائله وإن كان بعضها لأجل بعدها عنه، وقلة حظها منه، تتمرد عليه. وعلى ذلك فإنه لا محالة تخضع له إذا ظهر لها أدنى ظهور، فمثله كمثل الملك الذي يحتجب عن بعض عبيده ويطلع عليهم من حيث لا يرونه، فإذا خالفوا أمره واجترأوا على بعض ما نهى عنه إنما ذلك لأنهم لا يرونه ولا يعلمون أنه يراهم، فإن أحسوا به أدنى إحساس انقبضوا ضرورة وهابوه طبعاً، ويظهر هذا المعنى ظهوراً تاماً في البهائم، فإنها تخدم الإنسان وتهابه بالطبع، وتتبع العدة الكثيرة الراعي الواحد، وربما كانت قوة واحد منها تزيد على قوى عدة كثيرة منهم، وكذلك حالها في عظم الأجسام والجرأة والبطش، وعلى هذا يجري أمر الناس بعضهم مع بعض، فإن عامتهم إذا وجدوا بينهم واحداً أكثر حظاً من العقل فإنهم يهابونه ويخضعون له ويتبعونه منقادين مستسلمين كشبه البهائم، إذ الطبيعة واحدة بعينها، وكذلك يفعل أولئك العقلاء لمن هم فوقهم في العقل من الطاعة والانقياد وشدة الهيبة، ولقوة هذا الأمر الطبيعي، ربما ظن بواحد من الناس أكثر مما فيه من العقل فينقاد له، فقد بان ما أردنا بيانه من مرتبة العقل، وأنه ملك مطاع بالطبع، فأما الدليل على أنه متهيء لقبول الوحي والإيمان به. فقول النبي ـ ﷺ ـ: «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر، فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، بك أعرف وبك آخذ، وبك أعطي وبك أعاقب وبك أثيب» وفي رواية: «وبك أعبد»[1] فصح أنه متهيء لقبول الوحي، إذ كان هو أول من اختص من الله تعالى بالوحي والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة والعبودية والنبوة بإنباء الحق إذ أنبأه عن معرفة نفسه ومعرفة ربه، وإذا أمعنت النظر وأيدت بنور الله تحقق لك أن الذي هو المعبر عنه بالعقل والموصوف باختصاص الوحي والخطاب والمحبة والمعرفة والعبادة

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

والعبودية والنبوة، هو روح حبيب الله تعالى ونبيه محمد ـ ﷺ ـ أفضل الصلوات، فإنه الذي قال: «أول ما خلق الله عز وجل روحي»[(١)] وفي رواية «نوري» فروحه الشريفة جوهر نوراني ونوره هو العقل، وهو عرض قائم بجوهره، ومن هنا قال ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد»[(٢)] أي لم يكن بعد روحاً ولا جسداً؛ ومن هنا قال: من عرف نفسه فقد عرف ربه؛ لأنه عرف نفسه بتعريف الله، إذ قال له: «ما خلقت خلقاً أحب إلي منك» وعرف الله أيضاً، بتعريف الله نفسه إياه، «إذ قال: «وعزتي وجلالي، ما خلقت أحب إلي منك» فعرف أنه الإله الذي من صفاته العزة والجلال، والخالقية والمحبة، وهو المعرف لكل عارف وله القدرة والحكم على الأخذ والإعطاء والثواب والعقاب وهو المستحق العبادة، وقد أخذ عن بعض الكبراء من الأئمة إن أول المخلوقات ملك كروبي يسمى العقل، وهو صاحب القلم بدليل توجه الخطاب إليه في قوله: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر. فأدبر، ولما سماه قلماً قال له: اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة[(٣)]، وتسميته قلما كتسمية صاحب السيف سيفاً. وقد سمى النبي ـ ﷺ ـ: خالد بن الوليد سيف الله وهذا أول لقب في الإسلام، فلا يبعد أن يسمى روح النبي ـ ﷺ ـ ملكاً لغلبة صفات الملكية عليه، كما يسمى جبريل روحاً لغلبة الروحانية عليه، كقولهم: فلان شعلة نار لحدة ذهنه، وسمي عقلاً لوفور عقله وقلما لكتابة المكونات به ونور النورانية، وقد سماه الله تعالى نوراً في القرآن بقوله: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المَائدة: ١٥] فالنور محمد ﷺ وقد يكون العقل في اللغة بمعنى العاقل كالعدل بمعنى العادل، فعلى هذا التقدير والتأويل يكون روح النبي ـ ﷺ ـ هو المخلوق الأول، ولكنه بهذه الاعتبارات ملك وعقل ونور وقلم، فالقلم قريب المعنى من العقل، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العَلَق: ٤] جاء في التفسير عن بعضهم: أي بالعقل؛ لأن الأشياء تعلم بالعقل.

لطيفة: وفي قوله للعقل: أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر، إشارة إلى أن للعقل إقبالاً وإدباراً، فورث إقباله المقبلون وهم صنفان؛ السابقون المقربون من الأنبياء والأولياء وهم أصحاب الميمنة، وهم أهلِ الجنة. وورث إدباره المدبرون وهم أصحاب المشأمة، وهم أهل النار. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ [الواقِعَة: ٧] الآية. والله أعلم.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠٠٥) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

الفصل الخامس
في المنام الصادق

وأنه جزء من النبوة. والفرق بين المنام ووقائع القوم. عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ. قال: سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] قال ـ ﷺ ـ: الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له[(١)]. وقال ـ ﷺ ـ: «الرؤيا الحسنة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[(٢)] قوله ـ ﷺ ـ: «من النبوة» أراد تحقيق أمر الرؤيا وتأكيده، وإنما كانت جزءاً من النبوة في حق الأنبياء دون غيرهم. وقيل: معناه أنها جزء من أجزاء علم النبوة، وعلم النبوة باق والنبوة غير باقية.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، يقول: سمعت النبي ـ ﷺ ـ: «يقول: لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: يا رسول الله، وما المبشرات؟ قال ـ ﷺ ـ: «الرؤيا الصالحة»[(٣)].

وقال بعض أهل العلم في قوله ـ ﷺ ـ : «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» إن مدة وحي الرسول ـ ﷺ ـ من حين بدىء إلى أن فارق الدنيا، كان ثلاثاً وعشرين سنة، وكانت ستة أشهر منها في أول الأمر يوحى إليه في النوم، وهو نصف سنة، فكانت مدة وحيه في النوم جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من جملة أيام الوحي.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا كان آخر الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب، فأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً»[(٤)].

والرؤيا ثلاثة: رؤيا بشرى من الله عز وجل، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه، ورؤيا من تحذير الشيطان، وإذا رأى أحدكم ما يكره، فلا يحدث به وليقم فليصل والقيد في المنام ثبات في الدين والغل أكرهه»[(٥)] والمعبرون يقولون: أصدق الرؤيا في الوقت الربيع عند اعتدال الليل والنهار.

وأما حقيقة النوم فنقول: هو تعطيل النفس آلات الحواس إجماماً لها، وإنما

---

(١) و(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه، حديث رقم (٩٦٦٩) ولفظه: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب التعبير، باب المبشرات، حديث رقم (٦٩٩٠) ورواه غيره.

(٤) أخرجه البغوي في شرح السنة (١٢/ ٢٠٨) طبعة المكتب الإسلامي، بيروت.

(٥) انظر تخريجه في كنز العمال للمتقي الهندي، حديث رقم (٤١٣٧٨) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

وجب هذا الإجمام فيها لأنها آلات جسمانية وصور في مواد، فيعرض لها من الكلال والفتور بكثرة الاستعمال ما يعرض لجميع الأقسام، فيضطر فيها إلى الإزاحة لتعود إلى حالتها ولتلافى الطبيعة في تلك الحال ما عرض لها من نقص وخلل فتتمه.

ومثال ذلك: أن العين إذا اشتغلت بالنظر فإنما يتم فعلها بالروح المتهذب في الشريانات التي في بطون الدماغ وهو يأتي إلى العصبة المجوفة المنقسمة إلى ثقبتي العين وهو من اللطف بحيث يتخلل من ذلك الثقب في طبقات العين ويخرج معه الشعاع بالقوة الذي يتبعه ويستكمل بالضوء الذي يصادفه من خارج العين في الهواء من الشمس أو من غيرها، فيقبل من صور الأشياء التي حصلت في الجرم الصقيل من ناظر العين ما يسمى رؤية وبصراً، فإذا تخلل ذلك الروح المتهذب الصافي بأجمعه تبعه الكدر منه والغليظ، ولذلك يحس الإنسان في تلك الحال بألم يعرض في عينيه وكأنه يجد فيها شبيهاً بالرمد والخشونة؛ لأن مثل العين في تلك الحال مثل حوض فيه ماء صاف رائق فخرج من منفذه أولاً، ثم تبعه الكدر، فإن سد ذلك المنفذ ولم يسمح إليه ماء أخرجه أمره على الاستقامة، وإلا فسد وفنى ماء الحوض، فكذلك حال العين، إذا فني الروح الصافي منها وجب أن تسد ثقبها وتطبق جفنها إلى أن يستجمع فيها من الروح الصافي ما يكون سبب إبصارها ولا تزال هذه متداولة للعين ما دام أمرها جارياً على المجرى الطبيعي، وإذا كان ذلك كذلك فالإجمام واجب في العين وسائر الحواس، وإن كان في العين أوجب، وهذا الإجمام هو النوم، فأما سببه فقد ذكرناه ونعود الآن فنقول: إن النفس في تلك الحال التي تتعطل فيها الحواس لا تهدأ من الحركة، فإذا لم تجد الجزئيات من خارج عادت إلى ما حصلته واستفادته من الحواس واستحفظته في القوة الحافظة التي سميناها الذاكرة وهي كالخزانة لها، فأخذت تتصفحه وأقبلت تستعرضه فربما ركبت تلك الأشياء بعضها على بعض وهو شبيه بالعبث من فعلها، وهو ما يرى الإنسان في نومه كأنه يطير وكان جملاً مركباً على طائر وثوراً على بدن إنسان وضروب التركيبات الباطلة، وجميع هذه تسمى أضغاث أحلام. فأما إذا تحركت النفس في حال النوم نحو العقل ولم تشتغل بتصفح ما استفادته من الحواس. رأت حينئذ الأشياء المعدومة على الكون في الأحوال المستقبلة فإن كان هناك حظ من هذا المعنى وافراً كان ما يرى صادقاً بغير تأويل؛ لأنها ترى الشيء بعينه، وإن كان الحظ قليلاً كان ما تراه مرموزاً يحتاج إلى تأويل، وهذه الحال غير أحوال النبوة؛ لأن النبي - ﷺ - تكون هذه حاله في يقظته ونومه، ويكون مستمراً به، فأما ما غيره من أبناء الناس فإنما يعرض لهم ذلك في النوم وفي

بعض الأحيان وليس يتم لهم ذلك بالقصد ولا عند التعمد له، ولكن على ذلك لو لم ير الإنسان في عمره كله إلا مناماً واحداً لوجب أن ينتبه منه على فعل النفس وأن يشعر به ولو أدنى شعور، ويعلم منها ماذا أشير له منها إلى سعادتها وما هي معرضة له من الخلود والنعيم فيه، وسكن إليه وعمل عليه، فإن النفس إذ تركت عن صفاتها الذميمة وأخلاقها الردية بالتزهد عن الدنيا والعزلة عن الخلق ومجانبة الهوى واستعمال أركان الشريعة والتربية على قانون الطريقة، وملازمة الذكر تلطف وتصفو وتنورت بنور الذكر واطمأنت إليه تشعشعت بصيرتها كشعاع البصر، فلما تعطلت الحواس بالنوم أو بالمراقبة وعزلت النفس عن الخروج إلى المحسوسات رجعت إلى عالم الملكوت ولها عروج في العلويات بحسب صفاتها وقوتها في الترقي والسير في عالم الملكوت فيعلو شعاع بصيرتها إلى عوالم الروحانيات كشعاع البصر إلى السماوات، فيشاهد في كل عالم آية أودعها الله فيه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] . وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥] فتكون للنفس في هذه المقامات معاريج على قدر تبدل صفاتها بالسير عن خصائصها، وبحسب تلطف ذاتها بالتزكية عن أوصافها كما سيجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى، فيرى النائم في منامه والسالك في واقعته أنه يعرج إلى الهواء، ثم يعرج إلى السماء الأولى، ثم إلى الثانية، والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، ثم إلى العرش يرى أنه يعرج بأقل من طرفة عين من أسفل السافلين إلى أعلى عليين، ومن أعلى عليين يطير إلى أسفل السافلين إلى أن يبلغ مرتبته بالطير بعد كمال السير يشاهد فيها ويكاشف بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم اعلم أن تأويلات وقائع السائرين إلى الله تعالى لا تناسب تأويلات منامات أهل الدنيا وأربابها، فإن أكثر مناماتهم تكون متخيلاً من وساوس الشيطان وهواجس النفس، فأما وقائع أرباب السلوك وأصحاب السير فعلى ثلاثة أوجه: نفساني، وروحاني، ورباني. فالنفساني نوعين:

النوع الأول: ظهور صفات النفس في كسوة الخيال بصور الحيوانات المناسبة لتلك الصفات، فإن كان الغالب على النفس صفة الحرص تريها الخيال في صورة الفأرة والنملة وغيرها من الحيوانات الحريصة، وإن كان الغالب عليها صفة الشره تريها في صورة الخنزير والدب، وإن كان الغالب عليها البخل تريها في صورة الكلب والقردة.

وإن كان الغالب عليها الحقد والعداوة تريها في صورة الحية، وإن كان الغالب

عليها الغضب تريها في صورة الفهد، وإن كان الغالب عليها الكبر تريها في صورة النمر، وإن كان الغالب عليها الشهوة تريها في صورة الحمار والديك والفحول، وهلم جرا من الصفات البهيمة والسبعية والشيطانية. فما كانت الغالبة عليها تريها في صورة حيوان متصف بتلك الصفة الغالبة عليه ليكون السالك واقفاً على عيوب نفسه فيعالجها بتبديلها وإزالة غلبتها، وذلك من نتائج نظر العناية، كما قال النبي - ﷺ -: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه».

والنوع الثاني: الاطلاع على صفات النفس باستيلاء هذه الحيوانات والسباع عليها إما بانقيادها له؟ أو باستيلائه عليها بالقتل والإهلاك ليستدل بذلك على أحوال النفس في الصلاح والفساد.

والروحاني على نوعين:

النوع الأول: ما يكون للخيال في تصرف.

النوع الثاني: ما يتجرد عن وصمة الخيال. فما يكون للخيال فيه تصرف فهو من الوقائع القلبية بحسب صفاء القلب وترقيه ومرضه وسلامته من شوائب صفات النفس وتنوره بنور الذكر.

فيرى في الابتداء في صورة المياه منها جارية مثل العيون والأنهار والأودية وهي تدل على السير والترقي على قدر قوة الجريان وكثرة الماء وصفائه.

ومنها دائمة: كالحياض والإخاذات[1] وهي تدل على جمعية القلب وحضوره وأما البحار فلها تأويلات مختلفة، بعضها يدل على خويصة نفس الرائي بحسب كل مقام.

ومنها: ما يدل على قوته في الجمعية وصفاء القلب.

ومنها: ما يدل على وصوله إلى عالم الأرواح وسيره في الملكوت.

ومنها: ما يدل على عالم رباني يستفيد منه ويغترف من فوائده ويستنير من نور ولايته ويتخلق بأخلاقه ولذلك يرى المزارع والبساتين والأشجار المثمرة والرياحين والأزهار، فبحسب نشوئها ونموها واستواء ثمراتها ونقصانها وإصابة آفاتها تدل على ترقي القلب وثمرات الذكر، والأعمال الصالحات والرياضات والمجاهدات ونقصاناتها تدل على أنواع الفترة والوقفة والخلل في المعاملات وما يرى من أنواع الجواهر

---

(١) الأخْذُ: ما حفرت كهيئة الحوض لنفسك، والجمع الأخذان، والإخْذ والإخْذَةُ: ما حفرته كهيئة الحوض، والجمع أُخْذٌ وإخاذ. والإخاذ والإخاذة: الغُدُرُ، والإخاذات: الغدران التي تأخذ ماءَ السماء فتحبسه على الشاربة. (لسان اللسان، مادة «أخذ» ١/ ١٧، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت).

والمعادن والمواضع المعمورة المزخرفة. وكل شيء له جمال وبهاء ولطافة. فهو أيضاً على هذا القبيل.

وفي الوسط: يرى الطيران والمعاريج إلى السموات ويشاهد الأنوار كالسرج والشموع والمشاعل والنيران المشتعلة، ثم مثل الأضواء واللوامع والبروق ثم الكواكب والأقمار والشموس، ثم يرى الملائكة في صور مختلفة ويرى الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والأولياء والعلماء والصلحاء والمشايخ والخلفاء والسلاطين والملوك، وهذه كلها بإراءة الروح. ولكل واحد منها تأويلات بحسب المقامات ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عِمرَان: ٧] ولو شرعنا في شرحها لطال الكتاب وخرج من شرطنا.

وأما الذي يتجرد من وصمة الخيال فهو المعاني المكشوفة والحقائق المشهورة والعلوم الدقيقة، ثم تكون تجليات الروح وصفاته أنواراً مجردة عن المواد والصور ماحية ظلمات صفات البشرية الذميمة، مبدلة بصفات الروحانية النورانية الحميدة.

والرباني: على نوعين:

النوع الأول: بإراءة آياته في الملك والملكوت والكشف عن حقائق الأشياء والعلوم اللدنية وإراءة ماهية الأشياء كما هي.

النوع الثاني: ما يتعلق بتجلي صفات الجمال والجلال الذي مقتضاه فناء أوصاف الوجود، ثم التجلي الذاتي الذي من خصوصيته إفناء الوجود كما سنبين شرحه إن شاء الله تعالى، فظهر الفرق بين منامات الناس ووقائع القوم فلا نطول فيه الكلام، فمن أراد الوقوف على أنواعها فليطالع مرصاد العباد والله الموفق.

الفصل السادس

في دلائل النبوة والفرق بين الرسول والنبي

قال رسول الله - ﷺ -: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم اتباعاً يوم القيامة»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي. . .، حديث رقم (٤٩٨١) ولفظه «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». ورواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا، حديث رقم (٢٣٩ - ١٥٢)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية، (٦/ ٢٩٠)، طبعة دار الفكر، وفي التفسير (ج١ ص ٦١).

اعلم أن الله تعالى جعل المعجزات وهي ما تكون خارقة للعادة على يد مدعي النبوة، مقترنة بدعواه برهاناً قاطعاً على النبوة، وذلك الفعل يقوم مقام قول الله تعالى له: «أنت رسولي على رؤوس الأشهاد» تصديقاً لما ادعاه، مثاله: أن إنساناً قام في ملأ من الناس بحضرة ملك مطاع، فقال: يا معشر الحاضرين إني رسول هذا الملك وآية صدقي أن الملك يقوم ويرفع التاج من على رأسي، فيقوم الملك في الحال ويرفع التاج من رأسه عقيب دعوى هذا المدعي، أليس ذلك الفعل منه ينزل منزلة صدقت أنت رسولي، وإنما يراعى فيه أمور ثلاثة؛ الفعل الخارق للعادة واقترانه بالدعوى وسلامته عن المعارضة، إذ لو رفع التاج بقول غيره أو بعد ذلك بمدة لا يكون هو حجة لهذا المدعي، فهذه الثلاثة مجموعها برهان قاطع على صدق المدعي بالرسالة نازلة منزلة التصديق بالقول وهو مثل حصول العلم في سائر الأشياء من شواهد المقال وقرائن الحال.

واعلم أن خرق العادة على انفراده لا يكون معجزة ما لم يقترن به القرائن من التحدي وغيره فإن خرق العادة قد يقع بالسحر والشعبذة، وقد يكون بالكرامة للولي، ومثاله حمرة الوجه فإنه قد يكون من غلبة الدم ومن السكر ومن الخجل، وإنما تتبين بوجود القرائن، فإن كان معها تغير المزاج فهي من الدم، وإن كان معها اختلاط عقل وتمايل فهي من السكر، وإن كان من حادثة دالة على الخجالة، فهي من الخجل، كذلك الفعل الخارق للعادة إن كان من دعوى نبي فهو معجزة، وإن كان من غير ذلك فهو كرامة، وإن كان مع حيلة وإعداد آلة فهو سحر وسيأتي الفرق بين هذه الأشياء إن شاء الله تعالى.

فأما الفرق بين النبي المرسل وغير المرسل، فمن وجهين؛ **أما الصورة**: فبأن يكون مخصوصاً من الله تعالى بالرسالة إلى قوم معينين، كما كان في حق يونس ـ عليه السلام ـ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات: ١٤٧] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وينزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحي، ويكون عليه كتاب منزل من الله تعالى أو صحف، ويكون صاحب شريعة بإذن الله تعالى وأمره.

وأما المعنى: فإنه يتميز من غير المرسل، بأن يسمع بأُذُنِه من الله تعالى كلامه ويبصر بعينه في اليقظة شواهد الحق على حسب ما ذكرنا من كيفية ذلك فيما تقدم. وإن كان هو وهذا أقوى ما يكون من أحوال الوحي؛ لأن ذلك المعنى الفائض عليه من فوق ابتداء من قوته المميزة، أعني العقل فأثر فيه، ويبلغ من قوة أثره ذلك أن

تأدى من قوة إلى قوة، حتى انتهى إلى أقصى قواه من أسفل التي من أفق الحيوان أعني حس البصر، وحس السمع، وإما لجهة أخرى دون ذلك وهو أن يسمع ولا يبصر فيصير كأنه من وراء حجاب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١] فإذا سمع ذلك الوحي وجد في قلبه له روعة ثم تبعه سكون يقع منه اليقين وفي كلتا الحالتين يعمّ العمل الذين هم أبناء جنسه على الطريقة المثلى التي تؤدي بهم إلى الصراط المستقيم، وتأديبهم بالآداب التي تجري من نفوسهم مجرى الطب من الأبدان، لتسلم نفوسهم من الجهل وعملهم من الخطأ، وسعيهم من الضلال وتقودهم إلى الشريعة التي شبهت بشريعة الماء، أعني الطريق إليه، فإن العرب تسمى الطريق إلى الماء شريعة، فالشريعة أيضاً هي الطريق إلى الله تعالى، فالنبي - ﷺ - ولهذا الأمر مطيع لله تعالى يركب فيه كل صعب ذلول ويستهين فيه بالموت وأنواع الشدائد، ويحتمل ضروب الأذى والمكاره، ومن خاصيته أن يكون له قوة عظيمة في الإقناع بالكلام وتأييد عظيم في قوة كل إنسان إلى رأيه، وصرف الخواطر إلى ما يورده على الأسماع بإقناعاته وله قدرة على ضرب الأمثال وإبراز تلك الحقائق التي هي مقررة عنده في معارض مختلفة وتشبيهات ملائمة، ثم إنه مختص بسير وأخلاق مذكورة في سير الأنبياء وأخلاقهم، ومجتمع فيه خصال كريمة وفضائل يتميز بها عن غيره، ولا تكون مجتمعة في سواه.

وأما النبي الغير مرسل فإنما يلوح له ما يلوح من حقائق الأمور ويتجلى له في الأفق الذي ينتهي إليه ما يكون فيضاً من فوق ولا يكون مرتقياً إليه من أسفل بالتعليم والتدريج، ولا يكون مأموراً بأمر يتحمله ولا يبلغ من قوته فيما يلوح له من الأمور أن يتجاوز القوة الفكرية ويتأدى إلى الخيالية وما يليها، إلا أنه ربما خوطب بما يسمعه ويسمى مناجاة، أو يسمع من الهواتف، وهو إنسان شريف جداً من بين الناس مخصوص بفيض يأتيه من الحق وبأن يوحى إليه في المنام ويكون مقرراً لأديان الرسل، داعياً إلى شرائعهم، ويحكم بين الناس بالكتب المنزلة عليهم كما أمر. والله أعلم.

الفصل السابع
في الفرق بين النبوة والكهانة

اعلم أن مستند النبوة هي الحضرة الربوبية. وأن مستند الكهانة هي النفس الإنسانية بأن للنبوة مقامات ومراتب تستند إلى الحضرة. وللكهانة مقام ومرتبة واحدة تستند إلى النفس، كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

فأما مقامات النبوة ومراتبها:

فأحدها: أن لنفس النبي قوة جبلية مركوزة في أصل فطرتها قابلة لمشاهدات النقوش الغيبية الروحانية والأنوار الربانية، كاملة في هذا المعنى، بحيث لا تخطىء له فراسة ولا رؤية ولا يقع الكذب والتفاوت فيما يخبر ويروي.

وثانيها: أن نفسه قابلة للفيض الإلهي بواسطة جبريل وغيره من الملائكة ـ عليهم السلام ـ وبلا واسطة، بأن يسمع كلام الحق تعالى.

وثالثها: أن الله تعالى يتجلى لبعضهم ببعض الصفات، كما تجلى لموسى ـ عليه السلام ـ بالصفة السمعية ليسمع كلامه، وتجلى لعيسى ـ عليه السلام ـ بالصفة المحيية ليحيي الموتى.

ورابعها: أن من الأنبياء، ـ عليهم السلام ـ من يتجلى له الله تبارك وتعالى بذاته وجميع صفاته وهو نبينا ـ ﷺ ـ، تجلى له ليلة المعراج فأخبر عن تلك الحالة بقوله: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[1].

وخامسها: أن النبي ـ ﷺ ـ معجزة لنفوذ تصرفه في الأعيان وتقليبها عن طبعها وصورتها وإظهار الأشياء المعدومة وإخفاء الموجودة كأحوال عصا موسى ـ عليه السلام ـ.

وأخبر الله تعالى عن حالة نبينا ـ ﷺ ـ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] أخبر عن فنائه في الله بالكلية وبقائه بالله.

وأما مرتبة الكهانة: فلنفس الكاهن قوة غريزية جبلية قابلة لمطالعة نقوش الملكوت الروحانية غير كاملة في هذا المعنى، فإنه يخبر عن الأشياء الغيبية الروحانية من غير الربانية فيكون في بعضها صادقاً وفي بعضها كاذباً وليست له مرتبة غير هذا، ولا نفوذ لتصرفه في الأعيان، وإن كان في الأخبار صادقاً، وكان في الزمن الأول يعنون بالكهانة العلم، وكانوا يسمون العالم بالعبرانية كاهناً، وكان في التوراة اسم هارون أخي موسى ـ عليهما السلام ـ كهناديا، يعني عالماً ربانياً، فلما جاء الله بالإسلام ونسخ أمر الكهانة صار هذا الاسم مذموماً، لانقراض تلك الأديان، إذ كان في العرب رجال ونساء يتكهنون لهم وكانوا يختلفون إليهم في استعلام خبر الغائب وتدبير الأمر المحذور، واشتباه النسب وكان الكاهن يسجع لهم ويخبرهم به، وكانت سوابع الأسجاع في خواطرهم كسوانح الطير والوحش لأصحاب الطيرة، والواردات للرهابنة، وأصحاب الصوامع.

وقد رويت في ذلك قصص وأخبار كثيرة، وربما تحاكموا إلى الكاهن فيخبئون

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢١٥٧) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

له خبيئة يمتحنون بها صدقه، فإن استخرج الخبيئة رضوا بحكمه حتى قيل: إن قوماً أخذوا جرادة صفراء وأدرجوها في قطعة شن وعلقوها في عنق كلب لهم اسمه سوار، فلما أتوا الكاهن قالوا قد خبأنا لك خبيئة فأخبرنا ما هي؟ قال: خبأتم شيئاً طار شبيه الدينار، قالوا: نريد أبين من هذا، قال: خبأتم جرادة في عروة مزادة في عنق سوار ذي قلادة فقالوا: قد أصبت، فاحكم بيننا، وكانوا يسمون الكاهن: الطاغوت.

قال أبو عبيد في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ [الزُّمَر: ١٧] إنما أنثها لأنه يريد به الكاهنة. قال النبي ـ ﷺ ـ: «اجتنبوا النجوم فإنها تدعو إلى الكهانة»(١).

واختلفوا فيما يقول الكاهن من أين علمه؟ قال بعضهم: إنما يكون ذلك من قوة بعض النفوس الألمعية في أصل الخلقة والجبلة. زعم المنجمون أن ذلك لوقوع سهم الغيب في درجة المطالع أو برج التاسع. وقال بعضهم: إن الكاهن مخدوم الجن فيأتونه بالأخبار وهذا أقرب إلى الصواب. وقيل: إنه لم يرقط كاهن إلا وفيه خبل ونقص في الخلقة والصحيح من ذلك أنهم يقولون مما يلقي إليهم الشيطان من استراق السمع حين يرمي بالشهب، فإن الشياطين إذا استرقوا السمع ربما يحترق بعضهم بها وربما يتساقط بعضهم إلى نواحي الأرض، وقد بقي معه بعض أخبار الغيب مما استرقه من الملائكة المدبرات أمراً من السماء الأولى، فيلقي ذلك إلى روع الكهنة، فيخبروا الكهنة بها.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعَام: ١٢١] وأولياؤهم هم الذين يقارنونهم في مشاكلة خبث النفس وخبل الخلقة ونقصان العقل وفساد الدين وهم هؤلاء الكهنة.

وقال بعض الحكماء الإسلاميين: إن الفرق بين النبوة والكهانة. إنما يتبين بعد تبيين حقيقة الكهانة، وذلك أنها قوة من قوى النفس أكثر ما يظهر في أوقات الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وقبيل ورودهم، وذلك أن الفلك إذا أخذ يتشكل بشكل ما يتم به في العالم حدث عظيم أو يكمل به أمر كبير عرض بين بابتداء ذلك الشكل وآخره الذي هو غايته وتمامه في الأرض إحداث شبيهة بما يريد أن يتم ولكنها تكون غير تامة؛ لأنها شبهات وأيضاً غير تام، فإذا استكمل ذلك الشكل في الفلك وصار إلى غايته تم

---

(١) أورده السيوطي في الدرر المنثور، (ج٣ ص ٣٣١) بلفظ: «لا تعلم النجوم فإنها تدعو إلى الكهانة». وهو من كلام عبد الله بن عباس. وأورده بلفظ: «عن ميمون بن مهران قال: قلت لابن عباس أوصني قال أوصيك بتقوى الله وإياك وعلم النجوم فإنه يدعو إلى الكهانة». (ج٣ ص ٣٣٠).

به في العالم ما يقتضيه ذلك الشكل، وإنما يكون ذلك في ساعة قصيرة من الزمان كسرعة تبدل الأشكال في الفلك وكثرة حركاتها المختلفة فتصير تلك القوة التي يوجبها ذلك الشكل في شخص واحد أو في شخصين أو ثلاثة، ويستوعب ذلك الشخص تلك القوة ويستوفيها على التمام والكمال، أما من قرب من ذلك الشكل ولم يستوفه لتغيره بالحركة فإنه يكون ناقص القوة بحسب بعده من الشكل، ولذلك تكون النبوة أكثر ما تظهر في الزمان الطويل لشخص واحد، وربما في بعض الأزمنة أن يوحي إلى اثنين أو ثلاثة وربما اجتمعوا في مدينه، وربما تفرقوا في عدة مدن بحسب ما تقتضيه المصلحة العامة. والنظر الإلهي لكافة الناس، فإذا ظهرت النبوة التي هي ما قصد إليه بذلك الشكل تبين حينئذ قصور تلك القوى التي تقدمت أو تأخرت عنه وعجزها ونقصانها عن ذلك التمام، ولذلك أيضاً يكون ما يظهر بزمان كل نبي جنس ما يريد أن يتم على يده، ومن نوع ما يتحقق به في ذلك النهج وعلى تلك الطريقة، وقد تنبه المتكلمون في زماننا هذا على ما ذكرنا فقالوا: إنما يبعث الله عز وجل إلى كل قوم نبي يأتيهم من جنس ما يدعون الفضل فيه والبراعة والتبريز بالعجز الذي لا يطيقونه ولا في إمكانهم مثله، ليكون أبهر للحجة وأوكد للدلالة وأجدر أن لا تقول الناس جئتنا بما لا نعرف منه شيئاً، ولو عرفنا منه ما تعرفه لأتينا لمثله معنى قريباً لما ذكرناه، فهذا المعنى الذي ذهب إليه المتكلمون وإن كان صحيحاً فإنه هو إتمام بما ذكرناه وكأنهم حكموا به ورأوا ظله.

ثم نعود إلى صفة الكاهن فنقول: إن صاحب هذه القوة إذا أحس بها من نفسه تحرك إليها بالإرادة، ليكملها وهي في نفسه ناقصة فيبرزها في أمور حسية، وينشرها من علامات تجري مجرى الفال والزجر وطرق الحصى، وما أشبه ذلك وربما استعان بالكلام الذي فيه تكلف من سجع وموازنة لتنصرف نفسه عن الحواس إليه، فيتداخل نفسه ويقوى فيه ذلك الأثر ويهجس في قلبه عن تلك الحركة في نفسه ما تقذفه على لسانه، فربما صدق ووافق الحق، وربما كذب وذلك أنه تمم نقصه بأمر مباين غير ملائم، فعرض له الصدق والكذب جميعاً، وإذا عرض هذا صار غير موثوق به، وربما يكذب الكاهن من تلقاء نفسه وبالتعمد خوفاً من أن يبور سوقه وتكسد بضاعته فيستعجل حينئذ الرزق، ويخبر بما لا أثر له في نفسه ولا يجد له حركة ليموه أمره، فيضطر إلى الظنون والتخمينات، وينبغي أن يتصور أن الكهانة لها عرض كثيرة فإن درجات أصحابها متفاوتة بحسب قربهم من غاية الإنسان وبعدهم عنه، وعلى قدر قبولهم الأثر الأعلى، وعلى كل حال فإنهم متميزون عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بما

ذكرنا من مقامات النبوة وبالكذب الذي لا بد يعتريهم وبما يدعونه من المحالات المحمولة على قدر ما أعطوه. فإن اتفق لواحد منهم ما يلوح له أقر النبيَّ ـ ﷺ ـ فإنه يعرض فضله وصدقه، ويكون أول مؤمن به ويتبع أمره ويشتد له كما روى عن سواد بن قارب وطليحة وغيرهما من الكهنة الذين آمنوا فيما بعد وحسن إسلامهم وثبتوا عليه إلى وقت وفاتهم والله أعلم.

الفصل الثامن
في الفرق بين المعجزة والكرامة والسحر والشعبذة

وقد ذكرنا معنى المعجزة وحقيقتها، فقد صح أن المعجزة محض فضل الله تعالى لا مدخل لقدرة العبد فيها، فإن العاقل يستيقن أن عظاماً بالية إذا اجتمعت وتراكبت، وقامت شخصاً يتكلم لا مدخل لقدرة البشر فيه، وكذلك انشقاق القمر في السماء بإشارة الإصبع حيث يراه الناس في نواحي الأرض، وبلغنا أنه قيل لجالينوس عند ظهور المسيح، ـ عليه السلام ـ: إنه يبصر الأعمى. فقال: أنا أبصره. قيل: إنه يبرىء الأكمه والأبرص. فقال: هذا عجيب. قيل: وإنه أحيا الميت من قبره. قال: ليس هذا في قوة البشر، احملوني إليه. فهذا تأييد الحق، فحملوه إليه فمات في طريق بُجنْدَيْسَابور.

واعلم أن كرامات الأولياء ثابتة وحق عند أهل الحق من أهل السنة والجماعة وهي على نوعين:

كرامة بين العبد والرب من المواهب التي لا يسعه فيها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي الكرامة الحقيقية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهذه مما لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى والعبد بين المحبين سر ليس يغشيه، وهذه مما تتعلق بالوصول والوصال.

وكرامة يطلع عليها الخلق وهي من جنس خرق العادات المشتبهة بالمعجزة وقد ذكر الأئمة بين المعجزة والكرامة فروقاً كثيرة.

فمنها: قالوا: إن المعجزة تقع عند قصد النبي وتحديه، والكرامة قد تقع من غير قصد الولي.

وقيل: قد يجوز أن تقع الكرامة أيضاً، بقصد الولي وإنما الفرق بينهما أن المعجزة تقع مع التحدي والكرامة لا يتحدى بها الولي.

وقيل: بل يجوز أن تقع الكرامة أيضاً للولي بالتحدي.

قلت: وهذا النوع من الكرامة بالتحدي شاهدت كثيراً منها من الشهيد صاحب الكرامات والآيات علي اليوناني القزويني، ـ رحمة الله عليه ـ، وهو أحد مشايخي كان كبير الشأن عديم النظير في عهده، وقد سألته عن هذه الحالة وقلت له: إنّا سمعنا أن الولي يجتهد في إخفاء حاله وكرامته، والنبي ـ ﷺ ـ يجتهد في إنشاء حاله وإظهار معجزاته. فقال: إني مأمور بإظهار الكرامة نصيحة للخلق، فإنهم بعدوا عن عهد النبوة، ورؤية الآيات، فأظهر الله تعالى على يدي آياته لتكون مؤكدة لمعجزات النبي ـ ﷺ ـ، بل هي أيضاً من جملة معجزاته، أظهرها لتجديد إيمان الخلق وتصديقهم لنبوته.

وقيل: إنما الفرق بينهما هو أن ما كان معجزة للنبي لا يكون كرامة للولي.

وقيل: بل يجوز أن يكون للولي أيضاً من الكرامة ما كان معجزة للنبي.

قلت: وهذا النوع أيضاً شاهدته من الشيخ علي، ـ رحمة الله عليه ـ، وذلك أن من معجزة النبي ـ ﷺ ـ بأنه وضع يده في ماء قليل فكان الماء ينبع من بين أصابعه حتى شرب منه خلق كثير[1]، فكذلك رأيت من الشيخ أكثر من مرة، أنه أخذ قدحاً وجعل فيه قليلاً من الماء فوضع بين يدي جماعة، وقال: ارقبوه فإذا الماء كان ينبع من القدح حتى صار ملآناً من الماء، وله رائحة أطيب من رائحة الورد ماء ورد، وذلك حين التمسوا منه شيئاً لدواء المريض وشفائه، فكان كل من يشرب من ذلك الماء يشفى بإذن الله تعالى من مرضه، وشربت منه مع جماعة جمة. والحمد لله.

وقيل: إنما الفرق هو أن المعجزة لا تقع إلا بعد دعوى ولا يكون مع سكوته معجزة.

والكرامة: يجوز أن تقع مع سكوته، ومع نطقه وقال المصنف ـ رضي الله عنه ـ: ويجوز أيضاً للنبي أن تقع معجزة مع سكوته ومع نطقه؛ لأن الجدي المسموم المشوي حين تكلم مع النبي ـ ﷺ ـ أن لا تأكل مني فإني مسموم[2] كان عند سكوت النبي ـ ﷺ ـ، لا عند دعواه بذلك، وإنما الفرق بينهما: أن المعجزة تكون عقيب دعوى النبي ـ ﷺ ـ بالنبوة، ولا تكون الكرامة عقيب دعوى الولي بالنبوة؛ لأنه لو

---

(١) أنظر تفسير ابن كثير، تفسير سورة الفتح (ج٤ ص ١٨٦). وانظر صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء. . .، حديث رقم (٢٠٠)، وصحيح مسلم كتاب الفضائل، باب معجزات النبي ﷺ، حديث رقم (٤/ ٢٢٧٩).

(٢) انظر القصة كاملة في كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، فصل في الآيات في ضروب الحيوانات، (١/ ١٩١) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ادعى أنه نبي كان كاذباً في دعواه والكاذب لا يكون ولياً لله، فلا يظهر على يده ما يظهر على أيدي الأنبياء، وهذا فرق ظاهر، وكذا سمعت من لفظ الشيخ علي اليوناني أن المعجزة تكون عقيب دعوى النبوة. وقال المشايخ: إن المعجزات علامات صدق حيث وجدت فلا تظهر على أيدي الأولياء عند دعواهم النبوة؛ لأنها لو وجدت عند ذلك لانقلب الصدق كذباً وهو محال. وقال بعض المشايخ: زيادة المعجزات تزيد قلوب الأنبياء تثبتاً، وزيادة الكرامات تزيد قلوب الأولياء وجلاً وخيفة حذار من أن يكون استدراجاً. وقال بعضهم: الأنبياء يحتجون بالمعجزات على المشركين، والأولياء يحتجون بالكرامات على نفوسهم لتصلح وعلى قلوبهم لتطمئن. وأكثر المعتزلة: أنكروا كرامات الأولياء لعدمها فيما بينهم، وذلك لأجل بدعهم وإنما أنكرت المعتزلة الكرامة بناء على أن الفعل إنما يكون معجزة بخرق العادة فحسب وليس كذلك، بل ينضم إلى خرق العادة التحدي بالنبوة والاقتران بدعوى النبي، ألا ترى آيات الساعة خارقة للعادة وليست معجزات.

وأما الدليل على إثبات الكرامات للأولياء: فهو أن تلك أفعال خارقة للعادات مقدورة لله تعالى، فإذا لم يؤد إلى سد باب النبوة جاز ظهورها على أيدي الأولياء. وسمعت الشيخ علي اليوناني برحبة الشام وكنت في خدمته لما رجعنا من زيارة شيخ من مشايخهم وقد كان صاحب كرامات مشهوراً بالولاية فقال لي: إن هذا الشيخ كان صاحب الكرامة ولم يكن صاحب الولاية، ثم قال لم تسلم الزيارة إلا لمن يرى أحوال المرور في لحده وما هو فيه، وما قال الشيخ صحيحاً لأنا قد شاهدنا كثيراً ممن ظهر على يده بعض الكرامات في ابتداء أمره أو وسط حاله، وهو لم يبلغ بعد مقام الولاية. وقد قيل: إن الكرامات الظاهرة تغذية تربى بها أطفال الطريقة، وأما من حيث السمع فقصة مريم - عليها السلام - في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥] وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧] وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠] حكاية عن آصف بن برخيا، وقصة أصحاب الكهف، وما جرى عليهم من الحالات، هؤلاء ليسوا بأنبياء، وقد جرى عليهم أمور خارقة للعادات.

فأما السحر؛ فهو في اللغة: إراءة الباطل في صورة الحق؛ ومنه وقت السحر للصبح الكاذب والسحر الرئة لأنها كاللحم وليست بلحم.

والشعبذة: منسوب إلى رجل اسمه شعباذة وهو معرب وأصله خفة اليد في تقليب الأشياء.

والسحر عندنا حق على معنى أنه ثابت واقع، وصح الحديث عن النبي - ﷺ -: «السحر حق والعين حق»[١] وكان لبيد بن أعصم اليهودي وبناته الملعونات قد سحروا رسول الله - ﷺ - بمشط ومشاطة وحف نخل طرحوه في ذاعوقة ذي أروان، وهي معروفة حتى نزل الملكان وأخبراه؛ فاستخرجه علي - رضي الله عنه -، وفيه نزلت المعوذتان وأنكرت المعتزلة والدهرية والروافض السحر والدليل على صحته إجماع الأمم سلفاً وخلفاً وإجماع أهل الكتاب كلهم من الهند والروم والفرس، وآيات القرآن ناطقة به. قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفَلَق: ٤] وهن السحرة، ينفثن عند قراءة الرقى، وكان رسول الله - ﷺ - كلما حلت عقدة مما سحروه وجد في نفسه خفة، فلما استتم قام سالماً، كأنما أنشط من عقال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٠٢]. ثم اعلم أن أجناس السحر مختلفة: طلسم ونيرنج ورقية وحل قطيرات وشعبذة.

فالطلسم: قيل معناه في مقلوبه وهو المسلط. قالوا: هو جمع آثار سماوية مع آثار عقاقير الأرض فيظهر منها أمر عجيب.

والنيرنج: أصله نيرنك فعرب وهو التمويه والتخييل، قالوا: إن ذلك تمزيج قوى جواهر الأرض بعضها بالبعض ليحدث منها أمر عجيب.

والرقية: هي الآفسون ومعناه آب سون فعرب، أي رقوا على الماء فيشربه المصاب أو يصب عليه، وإنما سميت رقية لأنها كلمات رقيت من صدر الراقي ومنه الترقوة وتلك الكلمات بعضها فهلوية وبعضها نبطيه وبعضها كالهذيانات. زعموا أنما سمعت من الجن أو سمعت في المنام.

والحل قطيرات: خطوط عقدت عليها حروف وأشكال، أي حلق ودائرات زعموا أن لها تأثيرات بالخاصية وبعضها مقروء.

والشعبذة: قد ذكرنا أنها خفة اليد، وخفة الأعمال، كالمشي على الأرسان واللعب بالمهارق والحقاق. واعلم أن الحاصل عقيب هذه الأشياء كلها فعل الله تعالى على وفق إجرائه العادة بها، وعلة ذلك ووجه حكمته فيه لا يعلمه أحد إلا الله تعالى وتقدس، وليس بيد العامل بها إلا إعداد الآلات والجمع بينهما فحسب. قال الله

---

(١) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «العين حق» البخاري، كتاب الطب، باب العين، رقم (٥٧٤٠)، ومسلم كتاب السلامة، باب الطب والمرض والرُّقى، رقم (٤١/ ٢١٨٧). ورواه غيرهما. وأما لفظ «السحر حق فهو من كلام العلماء وليس حديثاً». قال ابن كثير في التفسير: «قال أبو عبد الله القرطبي: وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافاً للمعتزلة» (تفسير سورة البقرة ج١ ص ١٤٨).

تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٠٢] جل جلاله. جاء رجل إلى الصادق فادعى خلق الحيوان فأخذ قطعة لحم ودفنه في الزبل فصارت دوداً فأراه إياها. فقال له الصادق: إن كنت تخلقها فأخبرني بعددها وعدد ذكرانها وإناثها وعدد أرجلها وخواص ظاهرها وباطنها، فعجز الرجل، وغرضنا في أيراد هذه الأشياء إبانة الفرق بين المعجزات وبين هذه التمويهات الباطلة إذا ظهرت على أيدي الكذابين فقد قيل: وبضدها تبين الأشياء، ثم يقول: إنما يظهر من هذه الطرق كلها فلا يخلو من حبل كسبية تضاف إليها من مباشرة فعل، وضم شيء إلى شيء وعمل صورة وهيئة واختيار وقت ورصد كوكب وقوة وهم، وتدخين بخورات، وتعزيم كلمات، وإعداد آلات، وهذه الجملة كلها من أولها إلى آخرها فعل ذلك للمدعي وحيلته وسعيه. وقد صح أن المعجزة محض فعل الله تعالى لا مدخل لقدرة العبد فيه.

واعلم أن المعجزة تبقى بعد النبي زماناً، والسحر سريع الزوال، وهو أحد الفروق بينهما، وأيضاً المعجزة إنما يظهرها النبي على رؤوس الأشهاد وعظماء البلاد وأكياس الناس، والشعبذة إنما تروح على الصبيان وضعفاء العقول وأهل السواد وجهلة الأكراد.

الفصل التاسع

في إثبات نبوة المصطفى - ﷺ -

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨١]. اعلم أن نبوته - ﷺ - ثابتة بشهادة الله تعالى وشهادة جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وبشهادة نفسه - ﷺ - بقوله: «كنت نبياً وآدم منجدل بين الماء والطين»[1] وبقوله: «أنا أول الأنبياء خلقاً وآخرهم بعثاً»[2] فشهد الله بنبوته وأشهد الأنبياء عليها، وشهد كل نبي على نبوته وأشهد أمته عليها وأوصى كل نبي أمته بالإيمان به وبنصرة دينه، واعلموهم بمجيئه بما بين لهم في صحفهم من أسمائه ونعوته وسيرته وصفة أمته. فكان في التوراة، في الفصل العشرين من السطر الخامس: إن الرب جاء من طور

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال قاران، ومعه عن يمينه ربوات القاسين فمنهم العز وحدهم إلى الشعوب ودعى لجميع قدبسيه بالبركة.

تفسيره: مجيء الله من الطور: إنزاله التوراة على موسى بالطور، وإشراقه من ساعير: إنزاله الإنجيل على عيسى وساعير أرض الخليل من قرية يقال لها ناصرة، والنصارى منسوبون إليها، واستعلانه من جبال قاران إنزاله على محمد ـ ﷺ ـ وقارات أي أرض مكة، وربوات هي منارات الرهبان. والقاسون: جمع قاس، والقاس والقس والقسيس هو الراهب.

والقس في اللغة: هو عظام الصدر، وسموا بذلك لأنهم كانوا يتكلمون من صدورهم من غير تعلم، والشعوب الطرق في الجبال.

وفي الإنجيل: قال المسيح: إني ذاهب عنكم وسيأتيكم البارقليط روح الحق، لا يتكلم من قبل نفسه يشهد لي كما شهدت له يعلمكم كل شيء.

تفسيره: البارقليط بلغتهم: المحمد. يعني محمداً ـ ﷺ ـ.

قال النبي ـ ﷺ ـ: «أنا أحمد وأنا محمود»[1] البارقليط تحت الباء ثلاث نقاط، وفي بعض النسخ الفارقليط بالفاء وقوله: يعلمكم كل شيء هو صاحب شريعة.

وفي الزبور: في الثالث والخمسين والمائة من مزامير داود لترتاح البوادي وقراها وتصير أرض قيدار مروجاً ويسبح سكان الكهوف، وليهتفوا من قلل الجبال بحمد الرب، فإن الرب يأتي كالجبال المتلطي المتكبر، وهو يزجر ويقتل بعدله، قالوا في تفسير أرض قيدار: هي أرض العرب لأنهم أولاد قيدار والمروج ما حول مكة من الأشجار والنخيل والعيون، وإتيان الرب: أنزل وحيه بجبل حراء على محمد ـ ﷺ ـ. وفي كتاب أشعيا ـ عليه السلام ـ قال لي الرب: أقم نظار ليخبر بما رأى فكان الذي رأى صاحب المنظرة أن أقبل راكبان؛ أحدهما على حمار والآخر على جمل يقول راكب الجمل هوت بابل وتكسرت أصنامها، فهذا الذي سمعت من الرب إله بني إسرائيل قد نبأتكم به.

قالوا في تفسيره: يعني براكب الحمار عيسى ـ عليه السلام ـ. وبراكب الجمل

---

(١) ورد بلفظ: «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي وأنا العاقب». والعاقب الذي ليس بعده نبي. رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ، حديث رقم (٣٥٣٢) ورواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ.

محمداً - ﷺ - وكان على يده فتحت بابل وكسرت أصنامها. وفي كتاب حيقوف: أن النبي - ﷺ - نظر وقد انكشفت السماء فإذا هي من بها محمد - ﷺ - وامتلأت الأرض من جده أي من عظمته.

وفي كتاب دانيال - عليه السلام - رأيت على سحابة السماء كهيئة إنسان جاء فانتهى إلى العتيق وقدموه بين يديه فخر له الملك والسلطان والكرامة وأن يتعبد له جميع الشعوب والأمم واللغات. سلطانه دائم إلى الأبد، وملكه لا يتغير، قالوا في تفسيره: هذا الإنسان نبي آخر الزمان ويعني بالعتيق القديم جل جلاله.

وفي كتاب زكريا بن برخيا - عليه السلام - رجع الملك الذي ينطق على لساني وأيقظني وقال لي: ما الذي رأيت؟ فقلت: رأيت منارة من ذهب وكفة على رأسها وعلى الكفة سبعة سرج، لكل سراج سبعة أفواه وفوق الكفة شجرتا زيتون؛ إحداهما: عن يمينه والأخرى: عن يساره، وهذا قول الرب في زربا بابل وهو يدعو باسمي وأنا أستجيب له وأصرف عن الأرض إتيان الزور والأرواح ولنحييه، ذكر في تفسيره: أن شجرتي الزيتون هما النبوة والملك والزربابل بلغتهم هو محمد - ﷺ - والمنارة من ذهب هي النبوة المرتفعة. يراه كل أحد، من النواحي، والسرج السبعة قالوا: هي أسباع المصحف، وقوله: لكل سراج سبعة أفواه، وهي آيات العزائم، والقوارع من القرآن.

وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -. قال في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١] قال: كان أرميا بن برخيا أمر بختنصر أن يغزو العرب فدخل بختنصر بلاد العرب، فقتل وسبى حتى انتهى إلى تهامة فأتى إليه بمعد بن عدنان فأمر بقتله، فقال له أرميا: لا تقتله فإن في صلب هذا نبياً يبعث في آخر الزمان، يختم الله به الأنبياء، فخلى سبيله وحمله معه. وحكى ابن قتيبة: أن أسعد أبو كرب الحميري آمن بالنبي - ﷺ - قبل مبعثه بسبعمائة سنة، لما رأى نعته في كتب الأولين، وكان يقول في شعره:

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باريء النسم
فلو مد عمري إلى عصره ... لكنت وزيراً له وابن عم

وقال سيف بن ذي يزن لعبد المطلب بن هاشم: إني مفض إليك بسر لم أبح به لغيرك، وليكن عندك مطويا، إني أجد في كتاب عندنا خبراً عظيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الممات، وهو للناس عامة ولرهطك خاصة، إذا ولد بتهامة غلام اسمه محمد، وبين كتفيه شامة يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه، فخر عبد المطلب

لوجهه ساجداً، وقال: هذا والله ابن ابني بعينه، ولما ولد - ﷺ - كانت تباشير النبوة في جبينه متظاهرة، ولآلىء الحكم من فيه متناثرة، كما قال بعضهم:

إن الهلال إذا رأيت نموه   أيقنت أن سيكون بدراً كاملاً

وكان يوماً - ﷺ - بين الصفا والمروة قائماً وهو ابن سبع سنين إذ نزل جماعة من تجار الشام كانوا على دين المسيح - عليه السلام -، فنظر إليه أحدهم فعرفه بعلامات وجدها في كتابهم من نعوته وسيره، فقال له: من أنت قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال له: من رب هذه وأشار إلى السماء، فقال: الله ربها. فقال له: ومن رب هذه؟ وأشار إلى الجبال، فقال: الله ربها لا شريك له، فقال له النصراني: فهل لها رب غير؟ فقال له: لا حييت، لتشككني في الله ما له شريك ولا ضد. ولما ترعرع كانت قريش تسميه محمد الأمين. لما شاهدوا فيه من الأمانة والصدق، وقال - ﷺ -: «أنا دعوة إبراهيم، وكرامة موسى، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة»[1] وذلك أن أمه رأت في المنام. أن نوراً خرج منها فأضاءت قصور بصرى، ولما آتاه الوحي وادعى الرسالة وأقام عليها الدلالة تظاهرت على الخلق معجزاته الباهرة تظاهر القطر من السماء خارجة لكثرتها عن الحدود والإحصاء، قد صنف فيها الكتب الكبار فلا يسعها هذا المختصر. كما قيل:

فيا عجباً مني أحاول وصفه وقد فنيت فيه القراطيس والكتب فالصواب: أن نقتصر على القدر الذي ذكرناه من بشارات كتب الأنبياء قبله في إتيانه، وإشاراتهم إلى عظم شأنه، في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل، ونذكر من معجزاته ما هو من أعظم آياته، وهو الكتاب الذي جاء من عند الله فإنه البحر المحيط لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي درره وغرائبه، فأقول: إن وجوه الإعجاز في القرآن العظيم لكثيرة؛ منها: الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكان كذلك. وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣] وكقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ الآية. وكان كذلك. وكقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر: ٤٥] ﴾ [القمر: ٤٥] وقد هزموا. وكقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢] وكقوله:

(١) أخرجه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١/ ٣٩) طبعة بيروت. والقرطبي في تفسيره (٢/ ١٣١) طبعة دار الكتب المصرية، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، حديث رقم (٣١٨٣٢) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت وأخرجه غيرهم.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] هذه أخبار عن الغيب، فكان كما أخبره كتابه المنزل عليه ومنها: اشتماله على غرائب الحكم وبدائع الكلم التي أعجزت الحكماء الأوائل عن الإتيان بمثلها، فإن القرآن ينطوي على الحكم كلها، علمها وعملها. قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] الآية. وقال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: الآية ٣٨]. وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] وإنما تقاصرت عن معرفتها أفهام الخلق لشيئين:

أحدهما: راجع إلى اللفظ من الإيجاز والحذف، والمجازات والاستعارات والتشبيهات والإشارات اللطيفة إلى الأسرار والحقائق الشريفة، والأساليب الغامضة البديعة.

والثاني: راجع إلى المعنى وذلك لإتيانه بأصول تنطوي على فروع وشعب وبعضها بينها المصطفى - ﷺ - وبعضها مفوض إلى استنباط الراسخين في العلم، فما من برهان ودلالة، وتقسيم وتحديد عن مجملات العقليات والسمعيات إلا والقرآن قد نطق بها على عادة العرب دون طريق المتكلمين والحكماء والمنطقيين، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقال النبي - ﷺ -: «إن لكل آية ظاهراً وباطناً ولكل حرف حداً ومطلعاً»(١).

فعلى ذلك أن كل من كان حظه من العلوم وصفاء القلب أوفر. كان نصيبه من علم القرآن أكثر.

ومنها: ترك المعارضة له والعجز عنها إلى يومنا هذا مع كثرة الخصوم، وكثرة دعاويهم ومساس حاجتهم إليها، وقد سلت عليهم السيوف وتغشاهم الحتوف، وسبيت ذراريهم، وانتهبت نفائس أموالهم إلى أن قال لهم: فليأتوا بمثل هذا القرآن، ثم عجزوا عن الإتيان بمثله، فلما عجزوا عن ذلك، قال قل: فأتوا بحديث مثله، فلما اشتهر عجزهم عن الجميع، قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤] الآية. وكانوا هم الفصحاء اللد، والبلغاء اللسن، أهل الخطبة والنثر والنظم، بها يحتجّون وعلى العجم بذلك يتباهون، ومع ذلك قد عدلوا عن المعارضة ورضوا بالذل والصغار، ووطنوا أنفسهم على القتل والقتال، والتعرض للنوائب وقبول الجزية والذل والاسترقاق، ولا يخفى أن العاقل إذا خير بين أمرين فعدل عن أحدهما

---

(١) ورد بلفظ: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً». أخرجه الزبيدي في اتحاف السادة المتقين، (٤/٥٢٧) نسخة مصورة بيروت.

إلى الآخر، إنما عدل عن الأشد الأصعب إلى الأهون الأسهل.

وكفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وسبب عجزهم عن ذلك: هو أن نظم القرآن على غاية البلاغة وكمال الفصاحة ونهاية الجزالة، وهذه الأشياء الثلاثة إذا استجمعت في نظم كان لا محالة معجزة للخلق. لا سيما إن وجد فيه طلاقة الوحي، فالنظم مطلق التركيب، وقد يكون ركيكاً، ويكون رفيعاً، ولهذا يقال:

نريد الآلىء في النظام لازدواجها

ثم للنظم درجات؛ **أولها**: كلام البذلة في المحاورات وفوقه المكاتبات والمراسلات، وفوقه الخطب والمواعظ، والأمثال والمزدوج، وفوق ذلك نظم الشعر، وليس للعرب فوقها درجة للنظم البتة، فإذا اجتمعت الفصاحة والجزالة والنظم أطلق عليها اللفظ البلاغة؛ لأن للكلام بها درجة الكمال، وتحقيق هذا الكلام أن تعلم أن **الفصاحة**: دلالة اللفظ على المعنى مع الإفصاح والإيضاح، **والجزالة**: دلالة اللفظ على المعنى مع قلة الحروف والاختصار وتناسب مخارجها، فإذا اجتمع المعنيان يقال له لفظ فصيح جزل، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَة: ١٧٩].

والنظم: ترتب الأقوال بعضها على بعض، ويكون الحس فيه على قدر تناسب الكلمات في أوزانها وأوزان حركاتها وسكناتها ودلالتها على المعنى.

والبلاغة: عبارة عن اجتماع هذه المعاني الثلاثة؛ أعني الفصاحة والجزالة والنظم، فبذلك بلوغ الكمال وبه فاق القرآن على كلام العرب كما فاقت العرب على سائر الألسن، وعجز العرب عن الإتيان بمثله كما عجز العجم عن نظم الشعر، فالقرآن معجز من حيث البلاغة التي هي مجموع هذه المعاني الثلاثة، والعرب قد أحست من نفسها أن القرآن خارج من حيث البلاغة عن جنس كلامهم جملة، كما أن سحرة فرعون أحسوا من أنفسهم أن إحياء الموتى ليس من جنس الطب، وجاء في الأخبار أن وليد بن المغيرة المخزومي جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فسمع منه ﴿حمٓ﴾ [فُصِّلَت: ١] السجدة، فرجع إلى قريش وكان هو من أفصحهم وأبلغهم، فقال: أيها القوم إني عارضت كلام محمد بالرجز والمديد والسريع، وسائر النظم فما أره بشيء منها، وإن في كلامه حلاوة وعليه طلاوة وإن أعلاه لمغدق وإن أسفله لمعدق، وإنه ليعلو ولا يعلى.

وما أراه بكلام البشر، فقال له أبو لهب: لقد صبئت فأفسدت قريشاً بهذا القول فارجع عنه، فقال: إنه سحر يؤثر.

وذكر علي بن طباطبا العلوي في عروضه أن تأليفات العرب ثمانية؛ السجع، والخطب، والرسائل، والمزدوج، والأمثال، والشعر، والمستمط، والنثر. فالنثر تجرى في كلامهم البذلة من المخطبيات، والسجع في الأوصاف والحكايات وهو نثر مقيد بقوافيه، والخطب هو النثر خالط السجع على طول الكلمات وتباين الأسجاع والرسائل والخطب، غير أن أسجاعها مختلفة.

والأمثال: قصار الكلمات المودعة حكماً. والمزدوج: هو المثنوي على قوافي مختلفة. والشعر: ما ينطوي على العروض. والمستمط: شعر ألفت خمس مصاريع منه على سجع والمصراع السادس مقفى بقافية يدور عليها الشعر.

فجميع تأليفات العرب هذه الثمانية فقط، والقرآن جنس تاسع من التأليفات خارج عن هذه الكلمات، فهي فيه بنوع من هذه التأليفات كلها، وهي ما ذكرته. فمن هذا تبين أنه مباين لكلام البشر، ومن تكلف المعارضين له وأجهد نفسه أن يخترع كلاماً يخالف هذه التأليفات الثمانية أعجزه الله عن تجاوز ذروة هذه الثمانية، علواً وارتفاعاً، فينحط إلى حضيض العي والركاكة التي هي أخس منازل الكلام، فيأتي بما يضحك عليه العقلاء مثل مسيلمة الكذاب وغيره من المعارض، فافتضحوا بما تقولوه وانسلخ عن طباعهم بلاغة كانوا عهدوها قبل تعرضهم للمعارضة، وهو الذي سماه بعضهم الطرفة، فقال مسيلمة: يا ضفدع بنت ضفدع نقي كم تنقين لا الماء تكدرين ولا تمتعين، فسمع الصديق ـ رضي الله عنه ـ قوله فقال: هذا كلام لم يخرج من إل، أي من ربوبته. والإل: بالكسر هو الله تعالى.

وقال القتيبي: ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين شراسيف وحشا.

وقال نضر بن الحارث، وكان من فصائحهم: والزارعات زرعاً والحاصدات حصداً والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً والخابزات خبزاً واللاقمات لقماً.

وقال: قد أفلح من هم في صلاته وأطعم المسكين من مخلاته وأخرج الواجب من ذكاته.

وقال آخر: والنجم إذا سما والبحر إذا طما ما زاغ منذركم وما طغى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] فصارت تلك المعارضات فضائح لهم إلى يوم الدين. ومن جملة ذلك الفصول والغايات لبعض المتأخرين، فأصبحت بعد بلاغة صاحبها في النظم والنثر ضحكة للعالمين، هيهات، هيهات، ما أبعد الثريا من الثرى تبصر خليلي بعين البصيرة فصاحة

القرآن، كيف نسخت ديوان الإعجاز أينما توجه من القصص والأخبار والحكم والأمثال، في بيان الحلال والحرام وأدلة التوحيد، وتزوير الوعد والوعيد، والترهيب والتهديد والترغيب، وتبيين الفرائض والأحكام في أحسن السياقة والنظام، وانظر كيف يخرج ويتخلص من فن إلى فن، وكيف ينتقل من معنى إلى معنى من غير خلل بلغ خلال البلاغة، ولا نقص يأخذ من المعاني، ولا مقطع ينبو الطبع عنه ولا مطلع يكد السمع منه، وتأتيك اعتباراً من القصص سورة يوسف بكمالها، توقف بفكرك عند قوله: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] ترى ما البلاغة، يترقرق تحاسين نظمه، وبين أدلة التوحيد تأمل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] كيف يلعب بالعقول من وجازة لفظه ومتانة معناه، ومن باب الوعد والترغيب فتصفح قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] الآية. وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]. ومن باب الوعيد: قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] وأما من قسم الفرائض والأحكام فتأتي في عشر ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] كيف بين حظوظ الورثة من غير إخلال بالفصاحة؟ ومن باب الطب: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]. ومن باب أحكام الحلال والحرام فتفحص قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]. ومن قبيل الحكم والأمثال فتأمل قوله: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧] ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨] ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]. وامتص بفكرك مصاص البلاغة وطراوة الفصاحة من أفانين النظم. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ [التوبة: ٥] ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]. وقد سمعها أعرابي فسجد لفصاحتها وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥]. ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: ١١] ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: ٣٠]. هذه وأمثالها إذا طرقت الأسماع تلذذها وإذا لاقت الطباع تمازجها، وإذا وردت لقلوب تروحها وتصفيها، وإذا هبت على الأرواح تصقلها بل تنورها وتخلقها بأخلاق مكملها، ولو عرجت إلى فواصل

آياته بالحروف المتقاربة المخارج حتى لا تشبه أسجاع الكهان ولا توافق قوافي الشعر، قضيت منها العجب، بل أو اضطرب فكرك حول الحروف المفصلة في أوائل السور لرأيتها، كيف ترمز بإيجازها وإعجازها إلى بحار المعاني والحقائق وأفنان الحكم والدقائق، فأي كتاب احتوى على هذه اللطائف واختص بمجامع هذه المعارف وانتظم في سلكه الدرر واليواقيت انتظام العقد المفصل، كما قال بعضهم:

من اللؤلؤ النض المؤلف نظمه فما خانه سلك ولا شانه ثقب

أما إن التوراة مقسومة خمسة أسفار، كل سفر منها مفرد بمعنى، السفر الأول لذكر بدء الخلق، والسفر الثاني: لخروج بني إسرائيل من مصر، والسفر الثالث: لأمر القرابين، والسفر الرابع: لإحصاء موسى بني إسرائيل، والسفر الخامس: لتكرر النواميس وكان اختلاف معانيها موجباً لتفاصيلها، والنواميس عندهم الملائكة، والناموس الأكبر جبريل - عليه السلام - قد سموا بذلك لخفائهم عن الأبصار، والنمس: دابة تخفي نفسها عن الرائين، فكان أفضل ما في التوراة العشر آيات، وأفضل ما في الإنجيل الصحف الأربعة المنسوبة إلى تلاميذ المسيح، وهي المخصوصة بالقراءة في صلواتهم وأعيادهم، والزبور: أدعية وتحاميد وتسابيح، وأفضله ما اتفق أهل الكتابين على اختياره.

وهذه الكتب كلها أوجبت معانيها إلى أصحابها، فعبر كل نبي عنها بعبارة فلم تكن أساليب نظمها بمعجزة لهم بخلاف القرآن، فإن جبريل - عليه السلام - أنزله على المصطفى - ﷺ - بلفظه ونظمه ومعناه معاً، فكان له معجزة من هذه الوجوه وهي مما يتعلق بظاهر نظم القرآن، وعباراته التي تطلع عليها الفصحاء والبلغاء دون ما يتعلق بباطنه من الإشارات واللطائف والأسرار والحقائق والأنوار التي لا يطلع عليها إلا القلوب المحررة عن رق الكونين، والأرواح المنورة بنور ربها، فإن للقرآن ظاهراً وباطناً، فهي المعجزة الحقيقة المودعة فيه بالحكمة البالغة الأزلية، ليمسك طلاب الحق بها في الارتقاء من حضيض البشرية إلى ذروة الربوبية ليعتصموا بالله، وقد ضاق نطاق الروحانين عن إدراكها فضلاً عن إيداعها في كلامهم المحدث، ما أودع الله تعالى في كلامه القديم، وهو كتاب ينابيع الحكم فوارة في درجه، وشموس الغيوب طالعة من برجه، فمن جملتها قوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء ٨٨]. وكان كما أخبر عن الغيب، والحمد لله حمداً كثيراً.

الفصل العاشر
في فضل نبينا - ﷺ - على سائر الأنبياء - عليهم السلام - وختم النبوة به

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] اعلم أن الله تعالى فضل الأنبياء بعضهم على بعض بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فأعطى لكل نبي فضلاً، ثم جمع الفضل كله، وزاد عليه حتى صار فضلاً عظيماً، فأعطاه نبينا - ﷺ -. كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] ثم بين النبي - ﷺ - فضل الله عليه، وما زاد في فضله على الأنبياء بقوله - ﷺ -: **«فضلت على الأنبياء بست: أوتيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»**(١) والحديث صحيح. وفي رواية أخرى: «وأعطيت الشفاعة».

فأما تحقيق هذه المسائل الست فقوله: **«أوتيت جوامع الكلم»** تشير إلى أن الله تعالى لما أراد أن يظهر كنزاً مخفياً ذاته، وصفاته، اتخذ عبده ونبيه المصطفى على العالمين حبيباً بمقتضى حكمته البالغة، وإرادته القديمة السابقة وقدر له روحاً نورانياً لطيفاً من عالم الأمر، وهو ما خلق بأمر كن من غير مادة مستعداً لقبول فيض الألوهية بلا واسطة، وجسداً جسمانياً ظلمانياً كثيفاً من عالم الخلق، وهو ما خلق من المواد المختلفة مستعداً لقبول فيض الروح المستفيض من الحضرة بالوسائط، ليكون جسده مستفيضاً من روحه ومظهراً لصفات روحه. مستفيضاً من الحضرة الربوبية ومظهراً لصفاته، وإذا تعلق الروح بالجسد تاماً، وعصم الروح من آفات الجسد الظلماني، وخواص صفاته المنشأة منه كما سيجيء شرحها إن شاء الله تعالى، لئلا يحتجب عن قبول الفيض من الحضرة بها، يكون قابلاً لتجلي ذات الألوهية وصفاتها مظهراً للكنز المخفي كالمرآة في إظهار الكنز الخفي من صورة الشخص عن غيره، على ذلك الغير تفهم إن شاء الله تعالى؛ ولما كان للروح اللطيف حاجة في المراقبة بجسد كثيف ليقبل العكس بلطافته الروحانية، ويحفظ بكثافته الجسمانية شرع في تدبيره بتقدير العزيز الحكيم، فكان مثال تدبيره في إنشاء الجسد مثال تدبير البذر في الثمرة التي هي

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، حديث رقم (٥ - ٥٢٣). ورواه أحمد عن أبي هريرة، حديث رقم (٩٣٥٧)، ورواه غيرهما.

جسده، والبذر روح الثمرة، فيحتاج أولاً بتدبير إنشاء الشجرة التي هي منشأ الثمرة، ومكانها، كلُبِّ اللوز مثلاً، فإنه لم يكن كاملاً في اللوزية، ولا مكملاً لجنسه بلا قشر فهو يحتاج لتحصيل القشر إلى آلات وأسباب، وهي الشجرة المودعة في نفس اللب بالقوة، وليس له من يستخرجها من القوة إلى الفعل، أي من الغيب إلى الشهادة إلا الذي هو واهب وجوده المستعد لقبول فيضه، فلا سبيل له إلى النفس النامية، فيستفيض اللب من النفس النامية لاستخراج الشجرة الكاملة المودعة فيه بالقوة إلى الفعل، فيستخرجها منه بالتدريج شيئاً بعد شيء، فأول ما يستخرج منه أصل الشجرة، ثم جذعها، ثم فروعها وأغصانها، ثم أوراقها ثم أزهارها، ثم قشر اللب ثم اللب، ليتم اللوز الكامل المكمل، فالروح النبوي المشرف بتشريف أول ما خلق الله روحي بمثابة لب اللوز الموهوب من واهب وجوده وهو الخالق البارىء المصور الذي أودع شجرة الموجودات في لب روحه بالقوة، وهو المربي ليستخرج منه إلى الفعل، فأول ما أخرج منه أصل الشجرة وهو عالم الأرواح كما قال ـ عليه السلام ـ: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»(١) وهي الملكوت العلوي والسفلي، ثم الجذع، وهو عالم الملك في الأجسام الكثيفة واللطيفة من المركبات والبسائط، ثم الفروع والأغصان وهي الأفلاك والأنجم، ثم الأوراق، وهي الحيوانات المتنوعة ثم الأزهار وهي الملائكة المقربون. ثم صورة اللوز، أي قشره وهو جسد النبي ـ ﷺ ـ، ثم حصول اللب في قشر اللوز وهو تعلق روحه اللطيف بقالبه وجسده الشريف، فتربى بتربية مربيه، وواهب وجوده كما قال ـ ﷺ ـ: **«أدبني ربي فأحسن تأديبي»**(٢) إلى أن بلغ واستوى؛ بإفاضة فيض الوحي بتوسط جبريل ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ثم أدبه ربه وعلمه بغير واسطة، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝﴾ إلى أن خلصه عن رق وجوده، ووجود شجرة الموجودات بجذبة أدن مني فقربه إلى هويته بعد أن أبعده عن أنانية نفسه، فأجلسه على بساط القرب ثم بجذبة أو أدنى أفناه، ثم حياه بالسلام عليك فأحياه وبرحمة الله وبركاته أبقاه، ثم في إظهار الكنز المخفي تجلى له بذاته. وجميع

---

(١) أخرجه ابن حجر في لسان الميزان [ج ٣ ص ٤٠٧]، وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٣١٥) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (١٦٤) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الفضائل، باب فضائل نبينا محمد ﷺ وأسمائه وصفاته البشرية، حديث رقم (٣١٨٩٢) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

صفاته، وبألم تر إلى ربك ناجاه ثم في سر ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ جوامع الكلم أتاه هو، كما أن للنفس النامية في تربية لب اللوز إلى أن يصير شجرة كاملة مثمرة في كل حال ومقام، كلاماً في تكوينها مثل أن يقول أولاً مع أصلها كن أصلاً على هذه الصورة، والصفة والطبيعة، والخاصية، وكذلك مع الجذع والفروع، والأغصان، والأوراق، والأزهار بحسب أحوالها إلى أوان تكوين الكامل في ذاته المكمل لغيره، فيكون له معه جوامع الكلم التي كانت مع جميع أجزاء الشجرة، بل على الحقيقة كانت جوامع الكلم التي قالها للشجرة من أولها إلى آخرها معه. لأن المقصود من الشجرة ثمرتها، كما قال: لولاك لما خلقت الكون والله أعلم.

وأما تحقيق قوله: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» فهو إشارة إلى أنه جوهر تخلص عن وصمة تصرفات الكونين لما عبر بالسير عن الخافقين، وجاوز بالطير عن قرب قاب قوسين فما عوقه الزمان ولا المكان، حتى سار من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومن ثم إلى قاب قوسين أوطار منه إلى قرب أو أدنى، بل أسرى به وأطير، فإنه أخذ منه وكان هو بلا هو فكان سيره ورجوعه بأقل من ساعة، ولما كان غيره متعلقاً بالزمان والمكان كان رعبهم ونصرتهم متعلقاً بمواجهة العدو ومباشرة الأسباب الظاهرة، وهو - ﷺ - كان بقوة الولاية يقذف الرعب في قلوب الكفار، ويهزمهم بقوة الهمة بلا مباشرة الأسباب الظاهرة، كما قذف الله في قلوبهم الرعب بلا أسباب ظاهرة، بل هو بقدرة قاهرة، إذ هو - ﷺ - كان متخلقاً بأخلاق الله تعالى، كما أشار بأصبعه إلى القمر في السماء فانشق فلقتين، والمسافة إلى السماء مسيرة خمسمائة عام لا يحجبه الزمان، ولا المكان. والله أعلم.

وأما قوله: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي» فهو أن الأمم المتقدمة منهم من لم يكن أبيح لهم جهاد الكفار فلم يكن لهم الغنائم، ومنهم من أبيح لهم الجهاد، ولكن لم يبح لهم الغنائم فكانت غنائمهم توضع فتأتي نار فتحرقها، فأباحها الله تعالى لهذه الأمة، وذلك لأن قوة ولاية نبوة النبي - ﷺ - قد بلغت نهاية كمالها، فكانت تطهر ما لم تطهره قوة ولاية نبوة نبي آخر، وتحل ما لم تحل، كالماء إذا بلغ حد كماله وهو قلتان تطهر ما لم يطهر ماء دونه، ولهذا قال - ﷺ -: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهورا» وذلك أن أهل الكتاب ما أبيحت لهم الصلاة إلا ببيعهم وكنائسهم، وأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، ولم يكن أبيح لأمة التيمم بالتراب بدلاً من الوضوء بالماء والغسل، فأبيح لهذه الأمة التيمم عند إعواز الماء، فبقوة نور ولاية نبوته - ﷺ - تقدست الأرض فصارت مسجداً وانقلب التراب في الحكم ماء.

وقوله: «**وأرسلت إلى الخلق كافة**» هذا أيضاً مما يتعلق بقوة ولاية النبوة والرسالة، وإن مثلهم كمثل الدجاجة توضع تحتها البيضة بقدر قوتها في التصرف فيها، وعلى حسب اشتمال جناحيها عليها، والا تفسد البيضة إذا كانت خارجة من تحت جناحيها، فأرسل كل نبي إلى قوم خاص، وبعث ـ ﷺ ـ إلى الأحمر والأسود من أهل الشرق والغرب؛ لأن الجناحية طولاً وعرضاً تبلغ المشرق والمغرب، فبعث إلى أهل المشرق والمغرب والذي يدل على هذا قوله ـ ﷺ ـ: «**زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[(١)] ولولا أنه ـ ﷺ ـ خوطب وأمر بقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحِجر: ٨٨] وإلا أي مؤمن كان قادراً على أن يطير إلا تحت جناحيه وهما محيطان بالدنيا والآخرة، وهو يطير بهما إلى الرفيق الأعلى، ولما كان ـ ﷺ ـ ثمرة شجرة المكونات وأرسله الله بالهدى ودين الحق وهي خروجه عن أغصان قاب قوسين بالثمرة ليظهره على الدين كله، أي على أديان الأنبياء ظهور غلبة واستيلاء ونسخ ختم به النبيون؛ لأنهم بمثابة الأزهار والأنوار على شجرة المكونات وهو الثمرة، فبعد خروج الثمرة عن الشجرة لا يخرج شيء آخر منها، فيكون خروج الثمرة ختماً على الشجرة فلهذا قال ـ ﷺ ـ: «**وختم بي النبيون**» وقوله: «**أعطيت الشفاعة**» إشارة إلى أنه كان بذر شجرة الموجودات، والبذر هو المستفيض من فيض النفس النامية لاستخراج أركان الشجرة، من بذرية نفسه، فإذا أمعنت النظر وجدت البذر شافعاً مشفعاً عن النفس النامية بطريق الاستفاضة منها لاستخراج أركان الشجرة شريفها وخسيسها، كما قال ـ ﷺ ـ: «**الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم**»[(٢)] ولهذا قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[(٣)] وقال: «**آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر**»[(٤)] وأن لواءه خصوصية ثمريته ولا ريب. وأن الشجرة بما فيها تحت لواء الثمرة، وليس للثمرة بهذا فخر، ولكن للشجرة فخراً وافتخاراً بأن تكون تحت لواء الثمرة؛ لأنها مفتقرة إليها، وكل مفتقر إلى شيء مفتخر به، فلما لم يكن النبي ـ ﷺ ـ مفتقراً إلا إلى الله تعالى وشجرة الموجودات كانت

---

(١) أخرجه ابن كثير في البداية والنهاية (٦/ ٢٩٩)، طبعة دار الفكر، والقاضي عياض في الشفا (١/ ٥١٩) طبعة الفارابي.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٤) نسخة مصورة بيروت. وأورده المتقي الهندي، في كنز العمال، كتاب الفضائل، حديث رقم (٣٢٠٣٨).

(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١١) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت. والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٠١) طبعة دار الفكر بيروت.

مفتقرة إليه؛ لأنه كان بذرها في البداية وثمرتها في النهاية، فكان لكل نبي بقدر افتقاره إليه افتخار به، وهو مفتقر إلى الله تعالى بكليته ومفتخر به وكان يقول: «الفقر فخري»[1] لأنه بالفقر عنى وجوده توسل إلى الغني به كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٨] أي: وجدك عائلاً عن الوجود فأغناك بالوجود. والله أعلم.

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ٢١٨) نسخة تصوير بيروت وأورده العجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (١٨٣٣) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

الباب الرابع
في مقام الولاية

وهو يشتمل على ستة فصول: الفصل الأول: في مراتب مقامات الولي، والفصول الخمسة: في مقامات هي دعائم مقامات الولاية وهي التقوى، والزهد في الدنيا والصبر على البلوى والرضا بالقضاء ومحبة المولى وسنذكر شرح كل مقام من هذه المقامات في فصله إن شاء الله تعالى.

الفصل الأول
في مراتب مقامات الولي

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ حكاية عن جبريل قال: «يقول الله ـ عز وجل ـ من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وإني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث لجروه وما تقرب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، وما زال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً، ولساناً ويداً ومؤيداً إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد منه»[1] الحديث بتمامه.

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨/ ١٠٢، ٤٧٧) ـ (٩/ ٤٤٠). والألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٦٤٠) وأخرجه غيرهما.

اعلم أن مراتب مقامات الولي ثلاثة: بداية، ووسط، ونهاية فأهل البداية هم المؤمنون الصالحون وهم ضد الكفار الفجار فلما سمى أهل الكفر بالعدو سمى أهل الإيمان والصلاح بالولي كما قال: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] لأن المؤمن يتولى الله بالعبادة والطاعة، فيتولاه بالهداية، وتوفيق الطاعة، وهم الذين يتقربون إلى الله تارة بأداء ما افترض الله عليهم وأخرى لا يزالون يتقربون إليه بالنوافل حتى يحبهم، فإذا أحبهم الله، وبلغوا مقام المحبة فهم أهل الوسط في الولاية ولكنهم غير واقفين على ولايتهم، ولهذا اختلفوا في أن الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا؟ فكثير من المشايخ لا يجوزون ذلك، وقال: إن الولي يلاحظ نفسه بعين الصغار وإن ظهر عليه شيء من الكرامات خاف أن يكون مكراً، وهو مستشعر الخوف، دائماً يخاف سقوطه عما هو فيه، وأن تكون عاقبته بخلاف حالته، وهؤلاء يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل وقد جوز جماعة منهم أن يعلم الولي أنه ولي، وليس من شرط تحقيق الولاية في الحال الوفاء في المآل، ثم إن كان ذلك من شرطه أيضاً فيجوز أن يكون هذا الولي مخصوصاً بكرامة هي تعريف الحق إياه أنه مأمون العاقبة، إذ القول بكرامة الأولياء واجب، وهو وإن فارقه خوف العاقبة فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال في الحال أتم وأشد، فإن اليسير من التعظيم والهيبة أهدى للقلوب من كثير من الخوف، على أنه لا يأمن مكر الله تعالى بحال من الأحوال.

ولما قال النبي - ﷺ -: «عشرة في الجنة من أصحابي»[١] فالعشرة لا محالة صدقوا الرسول - ﷺ - وعرفوا سلامة عاقبتهم، ثم لم يقدح ذلك في حالهم، ولأن شرط صحة المعرفة بالنبوة، الوقوف على حد المعجزة.

ويدخل في جملته العلم بحقيقة الكرامات، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه لا يمكنه أن لا يميز بينها وبين غيرها، فإذا رأى شيئاً من ذلك علم أنها في الحال على الحق، ثم يجوز أن يعلم أنه في المآل يبقى على هذه الحالة فيكون هذا التعريف إياه كرامة له، ثم اعلم أنه ليس من شرط الولاية الكرامات الظاهرة فقد يمكن أن يكون للمؤمن الصادق كرامة ظاهرة، وأنه لم يبلغ حد الولاية بعد، فإن ظهور الكرامات أكثرها في مقام الروحانية عند غلبات صفات الروح، وصفاء القلب وتزكية النفس، ورياضة البدن بقلة الطعام، وقلة النوم وكثرة الذكر والمراقبة والعزلة، إذ لم تنفتح عليه أبواب شواهد الحق ليخرجه من ظلمات الخلقة الروحانية إلى نور القدم

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الرباني، بترشح آثار صدق معاملاته من باطنه على ظاهره، كماء في آنية لم يجد منفذاً يخرج منه فيترشح منها، فهذا النوع من الكرامة مما يظهر على غير الولي؛ لأن من شرط الولي أن يخرجه الله من ظلمات الخلقة إلى نور القدم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧] وهذه هي الكرامة الحقيقية التي لا يشاركه فيها أحد من المخلوقات سوى الأنبياء، فإن نهاية مقام الأولياء بداية مقام الأنبياء، والكرامة التي هي مشتركة بينه وبين المخلوقات هي الكرامة الظاهرة، مثل المشي على الماء فإنه مشترك بين الحيتان والضفادع، والمشي على الهواء مشترك بين الطيور، والمشي في النار مشترك بين السمندر، والمشي من المشرق إلى المغرب مشترك بين إبليس، والعروج إلى السماء مشترك بين الملائكة، والتكلم على الخواطر مشترك بين الرهابين والكهنة، فاعتبر الفرق بين هذه الكرامات، وكرامات لم يشترك فيها ملك مقرب، فبداية هذا المقام أعني الخروج من ظلمات الخلقية إلى نور القدم، مقام أهل الوسط، من أهل الولاية وهو بعد في تلون السير والتجلي متردد بين القبض والبسط إلى أن يستولي سلطان الذكر على ولاية الوجود، ويتعرى من كسوة الحرف والصوت ويتجوهر القلب بنور الذكر، ويصير قابلاً لتجلي صفات الجمال والجلال، فيتجلى الرب له بجميع صفات الكمال، وأشرقت أرض الوجود بنور ربها فانسلخت عن جلد الأنانية بسطوة الأنوار الربانية، وانتزعت مادة الخوف والرجاء، وانقطع عنه القبض والبسط تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يُونس: ٦٢] فهذا مقام الولي من أهل النهاية في الولاية، الذين أخرجهم الله من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بإفنائهم عن وجودهم إلى نور تجلي صفات القدم لهم ليبقيهم به وهذه كرامة حقيقية قد كرم الله بها بني آدم وخصهم بها في تحقيق قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: ٧٠] فمن كان مكرماً بأدنى شيء من هذه الكرامات خير له من جميع الكرامات الظاهرة التي أظهرها الله تعالى على أهل الكرامات وأصحابها، فإنه ممن آمن بالله إيماناً عيانياً لا بيانياً، وكفر بالطاغوت الخلقية فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وهذا المقام يلي النبوة وهذا الولي الذي قد تولى الله أمره وهو الذي يصلح أن يتولى أمر عباده، ويدعوهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، كما قال ـ ﷺ ـ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1] وقال تعالى:

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٦٤٢) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السَّجدَة: ٢٤] فإن من أهل الولاية من يصلح لتولية أمر العباد، ومنهم من يتولى أمر نفسه فحسب كما قال تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المَائدة: ١٠٥] وحكم الولاية كحكم السباحة فمن أهل السباحة من ينجي نفسه من البحر وغيره بقوة السباحة ومنهم من ينجي نفسه ولا يقدر على إنجاء غيره بالسباحة، ومن لا يقدر على إنجاء نفسه لجهله بعلم السباحة، فليأخذ بيد غيره لينجيه من الجهل، فجهله مركب يهلك نفسه ونفس غيره، كأكثر مدعي أهل زماننا هذا فضلوا وأضلوا كثيراً، عصمنا الله من غرور أنفسنا وشرورها برحمته وهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، ورزقنا كمال التقوى الذي نال به الكرامة من كان من أهل الكرامة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٣] فإنه هو أهل التقوى وأهل المغفرة وسنذكر بعد هذا فصلاً في شرح التقوى إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني
في مقام التقوى

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عِمرَان: ١٠٢] وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا نبي الله أوصني، فقال: «عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم، وعليك بذكر الله تعالى فإنه نور لك»(١) اعلم أن لمقام التقوى ثلاث مراتب:

مرتبة العوام في التقوى: وهي التحرز عن المخالفات بالتعرض للموافقات، والتجنب عن الشبهات بتوقي المتورعات والتطهر عن السيئات بماء الحسنات ومرتبة الخواص في التقوى: المجانبة عن الشهوات بملازمة الرياضات، والتحفظ عن الفترات بمراقبة الخطرات، والاحتراز عن الوقفات بترقب المشاهدات.

ومرتبة أخص الخواص في التقوى: الإعراض عن وفق هواه ببذل الروح لما يهواه والخروج عن حظوظ دنياه وعقباه برعاية حقوق مولاه، والاتقاء بالله عما سواه

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ٦٦) طبعة السلفية والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٩٩) طبعة دار الفكر بيروت، والهيثمي في مجمع الزوائد، (٤/ ٢١٥) طبعة القدسي. وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب المواعظ والرقاق، قسم الأقوال، حديث رقم (٤٣٤٣٠)، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

فحينئذ يكون هو الذي اتقى الله حق تقواه.

فمن شرط الولي أن تكون التقوى شعاره، والتفويض دثاره، والإخلاص عياره فإن قال قائل: إن من شرط الولي أن يكون متقياً محفوظاً عن الذنوب. فإن جرى عليه شيء من المخالفات هل يقدح في تقواه، أو يخل بالولاية؟ قلنا: إن كان الولي في مقام التلوين، فتارة يترضع من ثدي المواهب، وتارة من ثدي المكاسب، فلا شك أن الرضاع بغير الطباع، فإن لم يكن محفوظاً عن الإصرار ومتداركاً بالاعتذار والاستغفار يكون على خطر الإضرار، بل يكون بصدد أن يكور الليل على النهار، ونعوذ بالله من الحور بعد الكور، وإن كان في مقام التمكين وقد يتولى الله أمره، فلله الحكمة البالغة فيما يجري على أوليائه وأحبابه من الزلات وبعض الآفات، ابتلاءً واختياراً فالمعتقد من كمال رأفته أن يكون من قبيل البلاء الحسن، كمال قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ﴾ [الأنفَال: ١٨] ﴾ [الأنفال: ١٧] كما كان في حق آدم - عليه السلام -. كانت زلته موجبة للاجتباء والاهتداء. روي عن النبي - ﷺ - أنه قال: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»[١] يشير به إلى أن المحب لا يحب إلا ما يحب محبوبه، فالذنب إذا لم يكن محبوب محبوبه فيكون المحب نادماً على صدور شيء منه غير محبوب محبوبه والندم توبة «والتائب من الذنب كمن لا ذنب له»[٢] فإذاً لا يضره ذنب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [المَائدة: ١٨] يشير إلى أن الله لا يعذب أحباءه بذنوبهم، فإنه يوفقهم للتوبة، أو لما يكفرها من الطاعات والحسنات وفيه إشارة أخرى، وهي أن الذنوب لا تسقطهم عن مقام المحبة، وقد قيل للجنيد: العارف يزني يا أبا القاسم؟ فأطرق ثلاثاً ثم رفع رأسه وقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وإن الماء مهما كان عيناً أو نهراً يمكن تغيره، فإذا كان بحراً والبحر طهورٌ ماؤه وحلّ ميتته.

ثم اعلم أن من أوصاف الولي: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله في جميع أحواله، والزهد أحد دعائم ولايته كالتقوى وسنذكر فصلاً في شرح مقام الزهد إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢/ ٢٨٤) - (٨/ ٥٠٦) - (٩/ ٦٠٩) والسيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦١).

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب شهادة القاذف، حديث رقم (٢٠٥٦٢)، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب التوبة، قسم الأقوال، حديث رقم (١٠١٧٠) - (١٠١٧١) - (١٠١٧٢). وأخرجه غيرهما.

الفصل الثالث

في مقام الزهد

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ حب الدنيا رأس كل خطيئة»[١] قال: اعلم أن الزهد في الدنيا رأس كل طاعة كما أن حبها رأس كل خطيئة، قال ـ ﷺ ـ: «يا طالب الدنيا لتبر فتركها أبر، وأبر»[٢] وقال سهل: أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم. وقيل: من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم.

وكان الفضيل بن عياض يقول: جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد.

وقال سهل بن عبد الله: للعقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً فاقتربوا منه فإنه يُلَقَّى الحكمة»[٣].

وقيل: إذا زهد العبد في الدنيا وكل الله به ملكاً يغرس الحكمة في قلبه، وذلك أن الحكمة مودعة في القلب من جملة ما خمر الله تعالى في طينة آدم بيده ونفخ روحه فيه من أنواع العلوم في سر وعلم آدم الأسماء كلها على مثال كنز في الأرض، فلا يظهر الكنز إلا بكشف التراب عنه، وتراب كنوز العلوم كلها حب الدنيا، ولا يخرج حب الدنيا من القلوب إلا باستعمال الذكر الدائم، وبتجريد الظاهر وتفريد الباطن عن التعلقات الدنياوية، وإخلاص العمل لله كما قال ـ ﷺ ـ: «من أخلص لله أربعين صباحاً، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٤].

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٤١) طبعة دار الفكر ـ بيروت. وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الأخلاق، قسم الأقوال، حديث رقم (٦١١١) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت وأخرجه غيرهما.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٩/ ٩٨) وابن عساكر في تهذيب دمشق (٤/ ٤٥١) طبعة بيروت نسخة تصوير بيروت، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الأخلاق، قسم الأقوال، حديث رقم (٦٠٦٦) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت وأخرجه غيرهم.

(٤) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٣٥٩)، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ثم اعلم أن للزهد ثلاث مراتب: زهد المبتدىء: وهو ترك الفضول من الحلال وزهد المتوسط: هو ترك ما لا يعنيه. وهذا المعنى الذي يتولد منه زهد المنتهي وهو ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهذا هو الزهد الحقيقي حتى تزهد في نفسك، فإنها الشاغلة عن الله المشغولة بهواها وإنك مهما زهدت فيها حق الزهادة، تخلصت عن حجب الكونين لأن الحجب بتعلق نفسك بهواها في الكونين. ولا تبلغ نهاية الزهد في نفسك إلا بالصبر على قطع تعلقاتها عما سوى الله. وكذلك بالصبر تظفر بكل مقام وحال. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السّجدَة: ٢٤] وسنذكر فصلاً في الصبر إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الفصل الرابع
في مقام الصبر

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر»(١) اعلم أن الآية والحديث يشيران إلى أن الصبر من صفات الله ـ عز وجل ـ وليس من صفات الإنسان وطبعه؛ لأن الله تعالى لما أمر الإنسان بالصبر والمصابرة نسبه إلى الإيمان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ [آل عِمرَان: ٢٠٠] أي: بقوة الإيمان اصبروا؛ لأن الصبر نصف الإيمان، والذي يؤكد هذا المعنى أنه تعالى لما أمر النبي ـ ﷺ ـ مع جلالة قدره بالصبر نفى الصبر عنه، وأحاله إلى نفسه، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] ﴾ [النحل: ١٢٧]. لما سئل النبي ـ ﷺ ـ: أي الإيمان أفضل قال: «الصبر والسماحة»(٢) جعل الصبر من الإيمان، والإيمان الحقيقي نور الله وصفته، وقد سمى الله تعالى نفسه بالصبور، وقال النبي ـ ﷺ ـ: «ليس أحد أصبر على الأذى من الله»(٣) فجعل الصبر من صفته تعالى، والذي يدل أيضاً على أن الصبر ليس من

---

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (١/٦٦)، طبعة دار الفكر ـ بيروت، وأورده المتقي الهندي في كنز العمال كتاب الإيمان والإسلام، قسم الأقوال، طبعة دار الكتب العلمية وأخرجه غيرهما.

(٢) رواه أحمد في المسند عن عمرو بن عبسة حديث رقم (١٩٤٥٤) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٣) أخرجه القرطبي في تفسيره، (١/٣٧٣) طبعة دار الكتب المصرية. وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الأخلاق، قسم الأقوال حديث رقم (٥٨١١)، طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت. وأخرجه غيرهما.

صفة الإنسان قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] فإن قيل: إن الله وصف الإنسان في مواضع من القرآن بالصبر كقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] وكقوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً﴾ [الإنسان: ١٢] وغير ذلك من الآيات قلنا: ما وصف الإنسان المطلق بالصبر، وإنما وصف الإنسان المقيد بالإيمان. كقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٥] يعني من المؤمنين لا منهم وهم كافرون، لأن المؤمنين حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، وكذلك قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الإنسان: ١٢] أي: صبروا على الإيمان والطاعة وصبروا عن الكفر والمعصية بقوة الإيمان، فإن الله بالنصر والتأييد مع الصابرين من المؤمنين، وأن نصيب الإنسان من الصبر والتصبر بالتكلف ليصبره الله تعالى صبراً حقيقياً كقوله ـ ﷺ ـ: «من يصبر يصبره الله»(١) فحينئذ يكون متخلقاً بخلق الله بحسب قوته في الصبر، فإن للصبر ثلاث مراتب؛ صبر المبتدي: وهو متصبر تحت حمل الأوامر والنواهي.

وصبر المتوسط: وهو صابر تحت الأحكام الأزلية في الشدة والرخاء من البلاء والابتلاء. وصبر المنتهى: وهو صبار مع الله بالله.

فالمتصبر: صبره في الله، ولا يخلو من الجزع، والصابر: صبره بالله فلا يجزع، ولكن لا يخلو من بعض الشكوى، والصبار: صبره مع الله، بلا جزع ولا شكوى، بل صبره مقرون بالرضا ولو ببذل الروح في مواطن اللقاء، قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: عند لقاء العدو ببذل الروح راضين به، وأن العبد إذا وفق للتخلق في الصبر بخلق الله، وجاوز صبره حد صبر الإنسانية تؤول مرارة صبره إلى ضدها من الحلاوة، ثم تبدل المرارة بالحلاوة ويكون على قدر تخلقه بأخلاق الحق.

قيل: أوحى الله تعالى إلى داود ـ عليه السلام ـ تخلق بأخلاقي، ومن أخلاقي أني أنا الصبور.

وقيل: الصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة.

وقيل: اصبروا بنفوسكم على طاعة الله، وصابروا بقلوبكم على البلاء في الله ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله تعالى.

وقيل: اصبروا في الله، وصابروا بالله، ورابطوا مع الله. قلت: اصبروا على

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب استعفاف عن المسألة حديث رقم (١٤٦٩). ورواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة. باب فضل التعفف والصبر، ورواه غيرهما.

مجاهدة النفوس بنهيها عن هواها، وأمرها بطاعة سيدها ومولاها، وصابروا على مراقبة القلوب مع الله بالتسليم والرضا في الله لأحكامه الأزلية عند نزول البلاء والابتلاء، ورابطوا بمرابطة الأرواح إلى الوصول بالله بالانقطاع عما سواه، واتقوا الله بمحافظة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار لعلكم تفلحون عن حجب الوجود بالفناء في الله، وتفوزون بالبقاء بالله.

فاعلم: أن الفلاح الحقيقي موقوف على هذه الخصال الأربع والله ولي التوفيق وقيل: وقف رجل على الشبلي فقال: أي الصبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله، فقال: لا، فقال: الصبر لله فقال: لا، فقال: الصبر مع الله فقال: لا، فغضب الشبلي فقال: ويحك فإيش، فقال: الصبر عن الله فصرخ الشبلي صرخة كادت تتلف روحه.

وعندي أن لمعنى الصبر عن الله ثلاثة أوجه:

أحدها: صبر أهل الأهواء، والبدع، والمستغرقين في بحر الغفلات والشهوات الراغبين في النزعات الحيوانية النفسانية الصابرين عن الله وطلبه بالجهالة والضلالة.

وثانيهما: صبر صاحب تلوين في مقام المشاهدة تارة يكون في ضوء نهار التجلي وتارة يكون في ظلمة ليل ستر الستر ففي حالة الستر لا بد له من الصبر عن الله فهو أشد صبراً على الصابرين.

وثالثهما: صبر صاحب تمكين، هو فان في الله باق به، مستغرق في بحر الوحدة، غائب عن وجوده بالكلية بحيث لا إحساس له عن نفسه، ولا عن غيره متحير، تائه بين الأنانية والهوية، فإن جذبته الطبيعة إلى الأنانية جذبته بطشة الربوبية إلى الهوية، وإن جذبته سطوة العناية إلى الهوية جذبته الطبيعة إلى الأنانية، فهو منجذب عن كلا الوصفين مذبذب لا من الأنانية، ولا من الهوية، فإن طلبته في الأنانية وجدته في الهوية، وإن طلبته في الهوية وجدته في الأنانية، وقد دندن حول هذا من قال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنا أبصرته   وإذا أبصرته أبصرتنا

ثم إن من فتح البصيرة ليشاهد نفسه تبعده الغيرة عن الهوية، ولو فتح البصيرة لرؤية الهوية يستدعي رؤية الهوية وجود الرائي وهو اثنينية فلنفي الاثنينية يلزمه الصبر عن الله، ورؤيته وهو أشد صبراً على الصابرين، وهذا مقام الحيرة التي كانت

كماليته مخصوصة بالنبي ـ ﷺ ـ حين يقول: «ربي زدني تحيراً»[(١)] ومن اختصاصه ـ ﷺ ـ بهذا المقام خصه الله تعالى بقوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] يعني لما أفنيتك عن أنانيتك، وأبقيتك بهويتي، فلم يبق لك ولغيرك وجود في نظرك إلا وجودي، فعلمت أنه لا إله إلا أنا، ولا وجود إلا وجودي.

كما قال الجنيد: ما في الوجود سوى الله استغفر لذنبك. أي: لذنب علمك لأن العلم يستدعي العالم والمعلوم، والعلم ثلاثة، فذنب علمك أنه أثبت لك وجوداً، ووجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

ثم اعلم أن لكل عمل من مكتسب الإنسان وصفته جزاء متناهياً كمكسب الإنسان وصفته، ولكل عمل من مواهب الله والتخلق بخلقه جزاء غير متناه، فالصبر لما كان مواهب الله، والتخلق بخلقه كان له جزاء غير متناه كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠] لهذا كان جزاء الصبر أحسن الجزاء لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦] وكمال الصبر في الرضا بالصبر على ما يكره، طلباً لرضى مولاه كما أنشد ابن عطاء لنفسه:

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة   وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري

وسأخبر عن مقام الرضا إن شاء الله تعالى.

الفصل الخامس

في مقام الرضا

قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك فيقول: أفلا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قال: فيقولون: ربنا فأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

اعلم أن الله تعالى جعل الرضا قسمين؛ رضا الله عن العبد، ورضا العبد

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

عن الله، وقدم رضا نفسه تعالى على رضا العبد فقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] وذلك لأنه تعالى كل ما كان من أعمال البدن قدم فيه العبد كقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] وكل ما كان من أعمال القلب قدم فيه نفسه تعالى كقوله: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] ثم إن الرضا لما كان من أعمال القلب قدم فيه نفسه تعالى، ولهذا اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا، هل هو من الأحوال، أو من المقامات؟ فأهل خراسان قالوا: هو من جملة المقامات؟ وهو نهاية التوكل ومعناه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه.

وأما العراقيون فإنهم قالوا: الرضا من جملة الأحوال، وليس ذلك كسباً بل هو نازلة بالقلب كسائر الأحوال. قلت: فإذا نظرنا إلى رضا الله عن العبد فهو من الأحوال، وإذا نظرنا إلى رضا العبد عن الله فهو من المقامات، وإن كان من نتائج رضا الله في الأصل ولكن للعبد فيه اكتساب بطريق المجاهدة وكسر النفس وتبديل أخلاقها حتى تبدل السخط بالرضا والشك باليقين.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً»[١] وقال ـ ﷺ ـ: «إن الله تعالى بحكمته جعل الروح والفرج في الرضا واليقين، وجعل الغل والحسد في الشك والسخط»[٢] فقد صرح أن الرضا هو مكتسب للعبد.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم المتواصل إلى القلوب، فإذا باشر القلب حقق العلم أداءه إلى الرضا وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة.

فقد جاء في حديث رباني: «من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليطلب رباً سواي»[٣] فلو لم يكن الرضا من المكاسب لم يعاقب العبد بتركه ولما أمر النبي ـ ﷺ ـ بإتيانه بقوله: «ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»[٤] وقد أورد الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته فقال: اعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.
(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٥١) نسخة تصوير بيروت.
(٤) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ. . .، حديث رقم (٢٣٠٥). طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت، ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٨١١٥) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

كالمعاصي وفنون محن المسلمين قلت: بلى يجوز للعبد أن يرضى بالمعاصي والمحن قولاً أو فعلاً، ولكن يجب عليه الرضا بقضاء الله فيما قضى من الخير والشر، كما يجب عليه الإيمان بما قدر الله من الخير والشر، كما قال ـ ﷺ ـ: «وأن تؤمن بالقدر خيره وشره» ولا يجوز له مباشرة الشر وأن الله تعالى لم يقض بشيء من الخير والشر عبثاً، بل قضى بما قضى لحكمة بالغة، وله الرضا فيما قضى وقد رضيا بما له فيه الرضا وقد قال المشايخ: الرضا باب الله الأعظم. قيل: يعني من أكرم بالرضا فقد لقي بالترحيب الأوفى وأكرم بالتقريب الأعلى.

وقال الأستاذ أبو القاسم: إن العبد لا يكاد يرضى عن الحق إلا بعد أن يرضى عنه الحق؛ لأن الله تعالى قال: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ [المجادلة: ٢٢] قلت: ـ رضي الله عنهم ـ في الأزل بلا هم بأن يرضوا عنه إلى الأبد برضاه فرضوا، وقيل: قال موسى ـ عليه السلام ـ: (إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني. فقال: إنك لا تطيق ذلك، فخر موسى ساجداً متضرعاً، فأوحى الله تعالى إليه يا ابن عمران إن رضائي في رضائك لقضائي».

وقال النصراباذي: من أراد أن يبغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه. وقال السري: خمس من أخلاق المقربين: الرضا عن الله فيما تحب النفس وتكره والحب له بالتحبب من الله والحياء من الله والأنس به والوحشة مما سواه.

وقال ابن شمعون: الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه والرضا به مريداً ومختاراً والرضا عنه قائماً ومعطياً والرضا له إلهاً.

وعن ذي النون المصري قال: ثلاثة من أعلام الرضا؛ ترك الاختيار قبل القضاء، وفقدان المرارة بعد القضاء، وهيجان الحب في حشو البلاء.

قلت: ما بلغ أحد حقيقة الرضا إلا بالصبر على البلاء، والشكر عند النعماء والتوكل على رب السماء، واستحلاء مر القضاء وسلطان المحبة في السراء والضراء، فإن كل أفعال المحبوب محبوبة، وسنذكر طرفاً من مقام المحبة إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس

في مقام المحبة

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ في حديث رباني: «ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق

وبي يبطش»[١] الحديث.

اعلم أن المحبة محبتان؛ محبة العبد لله ومحبة الله للعبد، فمحبة العبد لله مودعة في الإيمان، ومحبة الله للعبد مودعة في متابعة المحبوب ﷺ. قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] ﴾ [آل عمران: ٣١] والسر فيه أن المؤمن من يكون أشد حباً لله عما سواه وازدياد المحبة بحسب ازدياد الإيمان، فالمحب على قدر محبته يتبع النبي - ﷺ -، وعلى قدر اتباع المحب يحبه الله تعالى، فللإتباع ثلاث درجات. ولمحبة المحب ثلاث درجات، ولمحبة الله للمحب المتابع على حسب اتباعه ثلاث درجات؛ فأما درجات الاتباع: فالأولى: درجة عوام المؤمنين، وهي متابعة أعماله - ﷺ -، والثانية: درجة الخواص وهي متابعة أخلاقه - ﷺ - والثالثة: درجة أخص الخواص وهي متابعة أحواله - ﷺ -.

وأما درجات محبة المحب: فالأولى: محبة العوام وهي مطالعة المنة من رؤية إحسان المحسن وبره وأياديه ونعمه المتقدمة التي ابتدأنا بها من غير عمل استحققناها به، وستره معايبنا بكرمه، فإنه جبلت القلوب على محبة من أحسن إليها، وهذا حب يتغير بتغير الإحسان، فإن زاد الإحسان زاد الحب، وإن نقص الإحسان نقص الحب، وهو من باب الأفعال لمتابعي الأعمال وهم يطمعون أجراً على ما يتحملون من تباريح الحب. قال أبو الطيب:

وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هوى يرجى عليه ثواب

والثانية: محبة الخواص، وهي محبة تنشأ من مطالعة شواهد الكمال عند تجلي صفات الجمال، وهذه محبة المقربين، يحبونه تعظيماً وإجلالاً له لاطلاعهم على كمال جماله، وعظمة صفة كماله، وهذا حب التعظيم والإجلال لوجهه تعالى وتقدس، فذلك هو الباقي إلى أبد الآباد لبقاء الصفات إلى السرمد ويزيد بازدياد المعرفة.

قالت رابعة:

أحبك حبين حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا

وهذه المحبة تبعث على إيثار الحق تعالى على غيره لما يتجلى له من معاني صفاته في مدارج آياته وهي لمتبعي أخلاقه - ﷺ - فيظهر هذا المحب في هذه الدرجة إلى طرح ذكر غير الله عن قلبه متقلباً بين النظر إلى جماله مرة وإلى جلاله أخرى لهجاً

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

لسانه بذكره موقوفة أعضاؤه على تعبده إجلالاً وتعظيماً كما قال:

ســأعـبـد الله لا أرجـو مـثـوبـتـه لـكـن تـعـبـد إجـلال وإعـظـام

والثالثة: محبة أخص الخواص، وهي الغاية القصوى للعبد ولا غاية لها وهي محبة خاطفة تقطع العبارة وتدفق الإشارة ولا تنتهي بالنعوت وهذه بخلاف المحبتين الأوليين إذ ليست هي منشأة من رؤية النعم والإحسان التي هي من باب الأفعال ولا من رؤية الصفات من الجمال والجلال، بل جذبة من جذبات الحق المنشاة من المحبة القديمة في سر «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[1] وأهل هذه المحبة هم المستعدون لكمال المعرفة بسبق العناية. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] وقد أنعم الله عليهم بمحبته لهم في الأزل بلا علة بل الحسنى منهم في حقهم وقال مخبراً عن محبته الأزلية لهم ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] إشارة منه إلى أنهم ما أحبوه حتى أحبهم هو أولاً فمحبتهم له أيضاً نعمة منه بالتوفيق لهم بمحبته وذلك أن محبته لهم كانت في الأزل من غير علة فلما استخرجهم من ظهر آدم تجلت محبته على قلوبهم فجذبتها إليه وأفنتهم عن أنفسهم فدخلوا الدنيا على تلك الصفة. قال بعضهم:

عـذبـنـا بـالـمـحـبـة يـوم قـالـت لـه الـدنـيـا أتـيـنـا طـائـعـيـنـا

وحقيقة المحبة أن يفنى المحب بسطواتها وتبقى المحبة منه بلا هو، كما أن النار تفني الحطب بسطوتها وتبقى النار منه بلا هو فإن المحبة نار لا تبقى ولا تذر.

وأما درجات محبة الله للعبد: فاعلم أن كل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى من العلم والقدرة والإرادة وغيرها وإن اتفقت في أسماء صفات خلقه فلا تشبه حقيقتها حقيقة أوصاف الخلق البتة، حتى الوجود الذي يعم الخالق والمخلوق جميعاً، وذلك أن وجود الخلق مسبوق بالعدم ووجود الخالق واجب لنفسه ووجود كل ما سواه مستفاد منه. ومن دقق النظر علم أن ليس في الكون إلا الله وأفعاله منه فكأنه ليس في الوجود شيء ثابت إلا هو وحده.

قرأ القارىء بين يدي الشيخ ابي سعيد بن أبي الخير قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] فقال: بحق يحبهم لأنه لا يحب إلا نفسه على معنى أنه ليس في الكون إلا هو وما سواه فهو من صنعته، والصانع إذا مدح صنعه فقد مدح

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

نفسه، فإذاً لا تتجاوز المحبة نفسه؛ لأن نفسه قائمة بنفسها، وما سواه قائم به. فهو لا يحب إلا نفسه. فإذا عرفت هذا فاعلم أن محبة الله للخلق عائدة إليه بالحقيقة إلا أنه لما كان ممرها على الخلق فبحسب تعلقها بالعام والخاص والأخص، أثبت لكل صنف منهم سعادة يحظى بها عند مرورها عليه إلى أن ينتهي إلى محلها الذي صدرت منه فتكون المحبة والمحب والمحبوب واحد، فصدرت المحبة عن محل «كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف» فما تعلقت إلا بأهل المعرفة، وهم المخصوصون بالإنعام، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النِّساء: ٦٩] الآية، فتعلقت بالعام من أهل المعرفة بالرحمة ومشربهم الأعمال فقيل لهم ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عِمرَان: ٣١] بالأعمال الصالحة ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] يخصكم بالرحمة ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] التي صدرت منكم على خلاف المتابعة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٨] لمن أطاعه ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الأنعَام: ٥٤] لمن لا يعصيه. وتعلقت بالخاص من أهل المعرفة بالفضل ومشربهم الأخلاق، فقيل لهم بمكارم الأخلاق ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣١﴾ [آل عِمرَان: ٣١] ﴾ [آل عمران: ٣١] بالفضل يخصكم بتجلى صفات الجمال ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] بستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٨] منور بصفاته صفات أهل رحمته، وتعلقت بالأخص من أهل المعرفة بجذبات الإلهية ومشربهم الأحوال فقيل لهم: ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عِمرَان: ٣١] ببذل الوجود ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣] بجذبات المحبة الأزلية يخصكم بتجلي صفات الجلال فيجذبكم عنكم به إليه. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] ويستر بجوده ذنوب وجودكم فيمحوكم عنكم، ويثبتكم به كما قال تعالى[1]: (فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش) فيكون العبد في هذا المقام مرآة صفات لطفه وقهره، فكما أن الرائي في المرآة يشاهد صفاته بصفاته وذاته بذاته فيكون الرائي والرؤية والمرئى واحداً، فكذلك يكون في هذا المقام المحب والمحبة والمحبوب واحداً، والعارف والمعرفة والمعروف واحداً، فهو المحب العارف للمحبوب المعروف، أي: الذي أحب أن يعرف فأحب نفسه بمحبته وعرف نفسه بمعرفته ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢١٨] جعل مرآة وجود المحبين والعارفين برحمته ممن تيقنوا

(١) أي في الحديث القدسي، وقد سبق تخريجه.

خيال جمال صفاته وتقربوا إلى جلال ذاته فهم في كل واد يهيمون وكل بارقة يشيمون، يدور رحى الحزن على دموعهم وتفور نار الشوق بين ضلوعهم، قد فنوا عن أنفسهم ببقاء المحبوب وفقدوا طلبهم بوجدان المطلوب، فهم بين روض المحو وغدير الإثبات أموات غير أحياء. أحياء غير أموات. فطوراً يرونه فيطربون عند الكشف والتجلي، وتارة يخشونه فيهربون عند الحجب والستر وكيف الطرب ولا مقرب وإلى أين الهرب، ولا مهرب، فإن قيل ما المحبة؟ قلنا: بدايتها موافقة المحبوب وترك مخالفته.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا محال في القياس بديع
لو كنت تصدق حبه لأطعته إن المحب لمن أحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة منه وأنت لشكر ذاك مضيع

ووسطها أن لا يؤثر على الله غير الله ونهايتها، نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة، نار وقودها الناس والحجارة، نار لا تبقي ولا تذر، نار تحرق في الدنيا قلوب العاشقين وفي الآخرة جلود الفاسقين، نار توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم.

فإن قيل: من المحب وما علامته وحاله؟ قلنا: من وصفهم الله في بعض الروايات إن الله يقول: كذب من ادعى محبتي وإذا جنه الليل نام عني. أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ها أنذا مطلع على أحبابي إذا جنهم الليل جعلت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت نفسي بين أعينهم فخاطبوني عن مشاهدة وسألوني على حضوري فلم يجمل بي إلا أن أروح أبدانهم يوم القيامة والناس في هم وكرب وهم على كراس من نور تحت عرشي».

وقال الحسن صاحب الفضيل بن عياض: دخلت على الفضيل وهو يبكي قلت: ما يبكيك؟ قال: ويحك يا حسن إنه إذا جن الليل وهدأت العيون واختلط الظلام. افترش أهل المحبة لله أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم وتسمع لدموعهم وقعاً على أقدامهم وقد أشرف الجليل سبحانه وتعالى عليهم فنادى: بعيني من تلذذ من كلامي واستراح إلي فإني مطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم قم فنادي فيهم يا جبريل ما هذا البكاء الذي أسمعه منكم؟ هل أخبركم أحد أن حبيباً يعذب أحبابه؟ وهل يجمل بي أن أعذب أقواماً وعند الباب أحدهم يطلب مرضاتي ؟ فبي حلفت أنهم إذا وردوا عليّ يوم القيامة جعلت هديتي لهم أن أكشف لهم عن

وجهي حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم.

فإن قيل: من المحبوب وما علامته قلنا: المحبوب من وقع في شبكة الهاء والميم من قوله يحبهم قبل وجودهم وهو مأخوذ عنهم بجود مشهوده، مجذوب بجذبات العناية الأزلية لكفاية الأبدية، هم قوم في العدم أبلاهم بالمحبة مولاهم، فخرجوا إلى الوجود بلا هم ثم ابتلاهم بالوجود، ثم ناداهم لما عمت بلواهم وناجاهم وعن حضيض الوجود رقاهم، ثم فاجأهم وبهويته عن أنانيتهم أفناهم، ثم بنور جماله أحياهم، ثم بسطوات تجلي جلاله أفناهم، ثم أرداهم ثم ببقائه أبقاهم وبألطافه رباهم وبجود وجوده أغناهم، وأما علامتهم فإنهم مخصوصون بعلوم المكاشفات، متلذذون بنعيم المشاهدات، قلوبهم مرآة شواهد الجمال، وأسرارهم مرماة عوايد الجلال، وأرواحهم في غيب الغيب سيارة وبجناحي الأنس والهيبة طيارة، تولى الله سياسة نفوسهم فانقطعت عن الشهوات وانتبهت عن نومة الغفلات وتسارعت في الخيرات والمبرات هم رعاة الليل والنهار، وأصحاب الذكر والاعتبار وأرباب المحن والاختبار من أسعدهم الله بطاعته وحفظهم برعايته، يستقلون الكثير من أعمالهم ويستكثرون القليل من نعم الله عليهم، إن أنعم الله عليهم شكروا وإن منعوا صبروا، فالحسرات في قلوبهم تتردد وخوف الفراق في صدورهم يتوقد، أذاقهم الله طعم محبته ونعمهم بدوام العذوبة في مناجاته. أسرار الغيوب عندهم مكشوفة، وهممهم عما سوى الله مصروفة، حوائجهم من الله مأمولة وأمورهم إلى الله موكولة كما قال الشاعر:

وكلت إلى المحبوب أمري كله ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

فإن قيل: هل إلى المحبة للاكتساب سبيل وللسبيل إليها دليل؟ قلنا: الآيات والأخبار تدل على السبيل والدليل ظاهر كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالسبيل إلى الاكتساب هو المتابعة، والدليل إلى المحبة وسبيلها محمد رسول الله - ﷺ - حكاية عن ربه تعالى: (لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه) الحديث[١]. ونحن مأمورن بالتقرب وهو الكسب، ولا بد لنا من امتثال الأمر في الظاهر الذي يحكم الشرع به والله يتولى السرائر التي هي مبذرة بذر المحبة الأزلية ولا مدخل للاكتساب فيه ولكن من سنة كرم الله تعالى أن يجعل لتربية بذر المحبة مدخلاً

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

للعباد لسر الخلافة إلى أن تثمر بثمرة: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يضع له القبول في الأرض»[١]. فإذا استوت هذه الثمرة وبلغت مبلغها ذُوقت المعية مع الله في الدارين كما قال ـ ﷺ ـ: «المرء مع من أحب»[٢].

فإن قيل: هل يوصف الرب تعالى بالعشق أم لا؟ وهل يوصف العبد بعشق الحق تعالى أم لا؟ قلنا: إذا فسر العشق بأنه مجاوزة الحد، في المحبة فالحق لا يوصف بأنه مجاوز الحد. فلا يوصف بالعشق ولو جمع محاب الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ذلك استحقاق قدر محبة الحق، فلا يقال: إن عبداً جاوز الحد في محبة الله ولا يوصف الحق بأنه يعشق لهذا المعنى.

وهذا قول المشايخ، ولكن إذا فسرنا العشق بأنه مجاوزة حد العبد في المحبة لله فهو حق، وكذلك لو فسرناه بأنه مجاوزة حد العبد في محبة الله له فهو حق أيضاً فيوصف الرب تعالى بالعشق بهذا المعنى، ويوصف العبد به كما ذكرنا، وقد ورد في الأثر أن النبي ـ ﷺ ـ لما حبب إليه الخلاء وكان يتحنث إلى حراء أسبوعاً وأسبوعين، قالوا إن محمداً قد عشق ربه، وكذلك روى في بعض الكتب المنزلة «لا يزال العبد يذكرني حتى عشقني وعشقته» وقول الشبلي في المحبة قريب مما قررنا، يقول: «المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك، يعني يغار على مجاوزة حدك في المحبة حتى يحب مثلك محبوباً مثله، فإن من حقك أن تحب من يكون مثلك، كذلك من حق جلال الله وعظمته أن تحب مثله، فلما لم يكن له مثل وأحب عبداً فقد جاوز حد العبد في محبته له والله أعلم».

---

(١) رواه الترمذي بلفظ: «عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إذا أحب الله عبداً نادى جبريل إني قد أحببت فلاناً فأحبه قال فينادي في السماء ثم تنزل له المحبة في أهل الأرض فذلك قول الله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل إني أبغضت فلاناً فينادي في السماء ثم تنزل له البغضاء في الأرض»، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة مريم، حديث رقم (٣١٦١)، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط بلفظ قريب منه، حديث رقم (٣٦١٤) [ج٤ ص ٦٤].

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (١٦٥-٢٦٤٠) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل...، حديث رقم (٦١٦٩) ورواه غيرهما.

الباب الخامس
في مقام الإنسان

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول
في أن الإنسان هو العالم الكبير بالروح

وذلك لأن منشأ العالم بما فيه الروح الإنساني كما بينا من روح النبي ﷺ، وأنه أول شيء تعلقت القدرة به بأمر(كن)، ثم سرى الأمر بإيجاد المكونات بعضها من بعض كما مر شرحه، فإذا أمعنا النظر وجدنا اتصال أجرام الموجودات بعضها ببعض والكل واحد إذا أخذنا من مركز الأرض إلى أن ينتهي إلى السطح الأقصى من العرش، وأنه حيوان واحد ذو أجزاء مختلفة وهو حي بالروح الإنساني إذ منه بدىء وإليه يعود، فثبت أنه هو العالم الكبير، وأما تقسيم أجزاء هذا الكل فإنه ينقسم إلى قسمين؛ إلى عالم الكون والفساد وهو عالمنا السفلي، وإلى العالم الذي لا كون فيه ولا فساد وهو السماء والأفلاك بما فيها من الكواكب والعرش والكرسي.

فأما اتصال أجرام الأفلاك التسعة بعضها ببعض وأفلاك الكواكب المتحيزة فيها وتركيبها وهيئتها وأنه لا فرجة هناك فهو مشروح في كتب الهيئة مبرهن ببراهين لا يعترضها شك ولا يمكن فيها قدح. وأما اتصال الأجرام التي في عالمنا هذا. فهو مشاهد إلا ما اختلف فيه قوم من وجود الخلاء، أي البعد غير حامل، وهذا أيضاً مشروح ظاهر في كتاب «السماع الطبيعي».

فأما اتصال الموجودات التي قلنا إن الحكمة سارية فيها حتى أوجدتها بالأمر وأظهرتها وأظهرت التدبير المتقن من قبل الواحد الحق في جميعها حتى اتصل آخر كل نوع بأول نوع آخر، فصار كالسلك الواحد الذي ينتظم خرزاً كثيرة على تأليف صحيح، حتى جاء من الجميع عقد واحد فهو الذي يزيد تبيينه، والدلالة عليه

بمعونة الله عز وجل.

إن أول أثر ظهر في عالمنا هذا من نحو المركز بعد امتزاج العناصر الأربعة أثر حركة النفس في النبات وذلك أنه تميز عن الجماد بالحركة والاغتذاء، وللنبات في قبول الأثر عرض كثير ومراتب مختلفة لا تحصى، إلا أنا نقسمه إلى ثلاث مراتب؛ وهي الأولى، والوسطى، والأخرى ليكون الكلام عليه أظهر وإن كان لكل مرتبة من هذه المراتب عرض كثير، وبين المرتبة الأولى والوسطى مراتب كثيرة، وبين المرتبة الوسطى والأخرى مراتب كثيرة، إلا أنه بهذا التدبير يمكننا أن نشرح ما قصدنا إليه من إظهار هذا المعنى اللطيف فنقول: إن مرتبة النبات في قبول هذا الأثر الشريف هو ما نجم من الأرض ولم يحتج إلى بذر ولم يحفظ نوعه ببذر كأنواع الحشائش، وذلك أنه في أفق الجماد والفرق بينهما هو بهذا القدر اليسير من الحركة الضعيفة في قبول أصل النفس، ولا يزال هذا الأثر يقوى في نبات آخر يليه في الشرف إلى أن يصير له من القوة في الحركة إلى أن يتفرع ويبسط ويتشعب ويحفظ نوعه بالبذر ويظهر فيه أثر الحركة أكثر مما ظهر في الأول، ولا يزال هذا المعنى يزداد في شيء بعد شيء ظهوراً إلى أن يصير إلى الشجر الذي له ساق وورق وثمر يحفظ نوعه وغواش يصونه بها بحسب حاجته إليها، وهذا هو الوسط من المنازل إلا أن هذه متصلة بما قبله وهو في أفقه وهو ما كان من الشجر على الجبال وفي البراري المنقطعة وفي الغياض وجزائر البحار لا يحتاج إلى غرس بل ينبت لذاته، وإن كان يحفظ بالبذر وهو ثقيل الحركة بطيء النشوء، ثم يتدرج من هذه المنزلة ويقوى هذا الأثر فيه ويظهر شرفه على ما دونه حتى ينتهي إلى الأشجار الكريمة التي يحتاج إلى عناية من استطابة التربة واستعذاب الماء والهواء لاعتدال مزاجها وإلى صيانة ثمرتها إلى أن يحفظ بها نوعها كالزيتون والرمان والسفرجل والتفاح والتين والعنب وأشباهها، ويتدرج أيضاً في قبول هذا الأثر وظهور الشرف إلى أن ينتهي إلى رتبة الكرم والنخل، فإذا انتهى إلى ذلك صار في الأفق الأعلى من النبات وصار بحيث إن زاد قبوله لهذا الأثر لم يبق له صورة النبات وقيل حينئذ صورة الحيوان، وذلك أن النخل قد بلغ من شرفه على النبات إلى أن حصلت فيه نسبة قوية من الحيوان ومشابه كثيرة منه؛ أولها: أن الذكر منه متميز من الأنثى وأنه يحتاج إلى التلقيح ليتم حمله وهو كالسفاد في الحيوان وله مع ذلك مبدأ آخر غير عروقه وأصله أعني الجماد الذي هو كالدماغ من الحيوان فإن عرضت له آفة تلف وليس كذلك سائر الأشجار، لأن لتلك مبدأ واحداً وهو الأصل الثابت في الأرض فما دام ذلك الأصل ثابتاً على حاله لم يتعرض له آفة فهو باقي

الحياة، ونور النخل المسمى طلعاً وبه تلقح النخلة شبيه الرائحة ببذر الحيوان، وقد أحصيت للنخل خصالاً أخر كثيرة ليشابه بها الحيوان ليس هذا موضع إحصائها، وإلى هذا المعنى يتوجه قول النبي - ﷺ -: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من بقية طينة آدم»[١].

فقد تبين بلوغ النخلة الغاية الموضوع للنبات مبلغها حتى صار في أفق الحيوان، وهذه الرتبة الأخيرة من النبات وإن كانت غاية شرفه فإنها أول أفق الحيوان، وهي ما دونه مراتبه وأخسها، وذلك أن أول ما يرتقي النبات من منزلته الأخيرة ويتميز به من مراتبه الأول: أن ينقلع من الأرض ولا يحتاج إلى إثبات العروق فيها بما يحصل له من التصرف بالحركة الاختيارية، وهذه الرتبة الأولى من الحيوانية ضعيفة لضعف أثر الحس فيها وإنما يظهر فيها بجهة واحدة أعني حساً واحداً وهو الحس العام الذي يقال له حس اللمس، وذلك كالصدف الذي يوجد في شاطىء الأنهار وأسياف البحار، وإنما تعرف حيوانيته ويعلم أنه ذو حس واحد من أجل أنه إن استلب من موضعه بسرعة وعلى عجلة وخفة فارق موضعه واستجاب للأخذ، وإن أخذ بإبطاء وعلى الترتيب لزم موضعه وتمسك وذلك لأنه يحس بأن لامساً يريد أخذه فيصعب حينئذ جذبه وتناوله من مكانه لتشبثه به، وهو يضعف عن التنقل وإن كان قد يقلع من الأرض وصارت له حياة ما لأنه في الأفق القريب من النبات وفيه مناسبة منه، ثم يرتقي عن هذه الرتبة إلى أن ينتقل ويتحرك ويقوى فيه قوة الحس ويظهر أثر النفس فينتقل ويلتمس منافعه ويصير له حسان كالدودة وكثير من الفراش والدبيب، ثم يرتقي عن هذه الرتبة أيضاً ويقوى أثر النفس فيه إلى أن يصير منه الحيوان الذي له أربع حواس كالخلد وما أشبهه، ثم يرتقي من ذلك إلى أن يصير له من حس البصر شيء يسير ضعيف كالنمل والنخل والحيوان الذي على عيونه شبه الخزف وليست لها أجفان ولا ما ينستر في أحداقها، ثم يقوى ذلك إلى أن يصير منه الحيوان الكامل ذو الحواس الخمس وهي مع ذلك متفاوتة المراتب، فمنها: الجافية الحواس البليدة، ومنها: الذكية المطيعة التي تستجيب للتأديب ويقبل الأمر والنهي ويستعد لقبول أثر النطق والتميز كالفرس من البهائم والبازي من الطيور، ثم يعزب من آخر مرتبة البهائم

---

(١) أورده العقيلي في الضعفاء،(٤/ ٢٥٦)، طبعة دار الكتب العلمية، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (٦/ ٢٤٢٤) طبعة دار الفكر ببروت، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ١٨٤) الطبعة الأولى، وأبو يعلى في مسنده، حديث رقم (٤٥٥) ج ١ ص ٣٥٣، والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٥١١) وذكره غيرهم.

ويصير في أفقه الأعلى وفي أول مرتبة الإنسان، وهذه المرتبة وإن كانت شريفة من مراتب الحيوانات وهي أعلاها وأفضلها، فهي رتبة خسيسة من مرتبة الإنسان وهي مراتب القردة وأشباهها من الحيوانات التي قاربت الإنسانية وليس بينها إلا اليسير الذي إن تجاوزته صارت إنساناً، فإذا بلغه انتصبت قامته وظهر فيه من قوة التميز الشيء اليسير الذي يناسب حالته وقربه من أفق البهائم ولكنه على حال يهتدى فضل اهتداء إلى المعارف، ويقوى فيه أثر النفس ويقبل التأديب بالفهم والتميز. وهذا الأثر إن كان شريفاً بالإضافة إلى ما دونه من رتب البهائم فهو خسيس دني جداً بالإضافة إلى الإنسان الكامل النطق، وهذه المرتبة الأدنى من مرتبة الإنسانية هي في أفق البهيمية، وهي في أقصى المعمورة من الأرض في أطرافها من الشمال والجنوب كالترك والفرنج، فإن هؤلاء ليس بينهم وبين الرتبة الأخيرة من البهائم التي ذكرناها كثيراً، وليس يهتدون بالتميز إلى كثير شيء من المنافع وليس يؤثر بينهم حكمة ولا يقبلونها أيضاً من الأمم التي تجاوزهم، فلذلك ساءت أحوالهم فقل تنعيمهم وحصلوا غير مغبوطين ولا مستصلحين لغير العبودية والاستخدام فيما يستخدم فيه البهيمية، ثم لا يزال أثر النطق يظهر ويزيد إلى وسط المعمورة في الإقليم الثالث والرابع والفهم والتيقظ في الأمور من الكيس في الصناعات استخراج غوامض العلوم والاتساع في المعارف، ثم يقع التفاوت في هذه الرتبة حتى يبلغ منها إلى حيث يومى إلى الواحد الواحد في سرعة الهاجس وقوة الحدس واستقامة النظر وصحة الفكر وجودة الحكم على الأمور الكائنة والإخبار بالأحوال المستقبلة حتى يقال: فلان ألمعي فلان محدس وكأنما ينظر من وراء ستر رقيق كما قال الشاعر:

الألمعي الذي يظن بك الظن كان كمن قد رأى وقد سمعا

فإذا بلغ الإنسان هذه الرتبة فقد قارب البلوغ إلى أول أفق الملائكة ولم يبق بينه وبين مرتبتهم الأعلى إلا درجات يسيرة، فإذا رتبنا قوى العالم الصغير أي شخص الإنسان وشرحنا اتصال قواه بعضها ببعض مع ما شرحنا من كيفية ارتقاء قوة الحواس منه إلى ما هو أعلى منها، ومنها إلى ما بعدها حتى يجاوز الملك ويناسبه ويستمد منه، هناك يتبين مقام الإنسان ونهاية شرفه وكيفية مرتبته في اتصال الروح القدس به، وقابليته لتجلي صفات الجمال والجلال واستعداده في قبول الفيض الإلٰهي بلا واسطة واستحقاقه مسجودية الملائكة إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني
في أن شخص الإنسان عالم صغير

اعلم أن شخص الإنسان بالنسبة إلى العالم بما فيه عالم صغير، لأنه نسخة العالم الكبير بأن يوجد فيه جميع ما في العالم من العناصر الأربعة، ومثال من المعمور والخراب وأشباه من البر والبحر والجبال ونظائر من الجماد والنبات والحيوان، وكأنه مختصر من الجميع ومؤلف من الكل بعضه ظاهر وبعضه خفي غامض، ونحن بتوفيق الله ومعونته نورد من ذلك جملاً بقدر ما يطلع منه المتأمل على صحة ذلك ولا يخرجنا من حد الإيجاز، فإن الكلام في شرح ما ادعينا طويل عريض، فنقول: إن الإنسان لما كان مركباً لم يجز أن توجد العناصر فيه بسيطة؛ لأنها لو وجدت فيه بسيطة لحللته سريعاً يعني الجزء من النار البسيط بعينه إذا جاوز المركب منه ومن غيره حلله ورده بسيطاً، وكذلك حال الباقيات وإن كانت النار أظهر فعلاً. فلما لم يكن ذلك وجب أن توجد فيه مركبة، وإذا نظرنا في ذلك وجدنا في الإنسان ما يجري مجرى النار في الحر واليبس، ومجرى الأرض في البرد واليبس، ومجرى الهواء في الحر والرطوبة، ومجرى الماء في البرد والرطوبة، أما ما يجرى مجرى النار منه، فالمرارة المعلقة بالكبد لأنها حارة يابسة وهو مستقر هذا الخلط ومفيضه من جميع البدن، وأما ما يجري مجرى الأرض فالطحال لأنه بارد يابس، وهو أيضاً مستقر هذا النوع من الأخلاط ومفيضه من البدن وأما ما يجري مجرى الهواء فالدم الذي في العروق لأنه حار رطب، وأما ما يجري مجرى الماء فهو البلغم ولم يفرد له وعاء يخصه كما عمل له في الثلاثة الأركان الأخر من أجل أنه مستعد لأن ينهضم، وإذا انهضم صار غذاء تاماً ولم يكن فضلة كتلك الأخر، وبنوع آخر من الاعتبار قلنا القلب معدن الحرارة واليبس وهو بطبع النار، والكبد وهو معدن الحرارة والرطوبة وهو بطبع الهواء، والدماغ معدن البرودة والرطوبة وهذا بطبع الماء، والعظام معدن البرد واليبس، وتلك فروعها، فأما مثالات أجزاء ما في العالم الكبير فإن الرطوبة التي تخرج من العين والفم تجري مجرى العيون في الأرض، وبخار البدن يجري مجرى السحاب، والعرق يجري مجرى المطر، فأما عروق البدن فإن كبارها تجري مجرى الأودية وصغارها يجري مجرى الأنهار والجداول، وأما الشعر فهو مجرى النبات والحيوان الذي يتولد من ظاهر البدن يجري مجرى حيوان البر والحيوان الذي يتولد في باطنه يجري مجرى حيوان البحر، ونصف البدن المقدم الذي فيه الوجه يجري مجرى العامر من الأرض الذي فيه البلدان، ونصفه المؤخر الذي فيه القفا يجري

مجرى الخراب الذي فيه البوادي، فأما العين فتجري مجرى كوكب بناظرها وشعاعها، وطبقات العين تجري مجرى أفلاك الكواكب، ويحدث في البدن جميع ما يحدث في العالم من الرياح والزلازل والطوفان والرجفة، أعني العطاس والزكام والحميات وغيرها من أنواع مرض البدن فلما كان في العالم الكبير أربع رياح؛ الريح الربيعي، والريح الصيفي، والريح الخريفي والريح الشتوي، فالريح الربيعي يلقح الأشجار ويثمرها. والصيفي يطبخ الأثمار ويربيها. والخريفي يصفر الأوراق ويخففها. والشتوي يسقطها. فكذلك في العالم الصغير أربع رياح؛ الجاذبة، والهاضمة، والماسكة، والدافعة، فالجاذبة تجذب الطعام إلى الحلق وتؤديه إلى الهاضمة لتطبخه وتهضمه وتؤديه إلى الماسكة لتأخذ منافعه وتؤديه إلى كل موضع في البدن ما هو محله، وتؤدي نقله إلى الدافعة لتخرجه فكما أن في العالم الكبير لو لم يكن ريح من الريح الأربع لخرب، كذلك لو لم يكن ريح من هذه الرياح في العالم الصغير لخرب، وكما أن في العالم الكبير أربع مياه مالح ومر ومنتن وعذب، كذلك في العالم الصغير أربع مياه:

المالح: وقد وضعه في العين بالحكمة؛ لأن في العين الشحم وعلاج الشحم بالملح.

المر: ووضع المر في الأذن ليصونها من الحشرات.

المنتن: ووضع في الأنف ليحفظ ما يتولد من الدماغ، لئلا يخرج منه وليتميز به الروائح.

العذب: ووضع العذب في الفم ليطيبه ويقلب به اللسان في التكلم ويتذوق الطعام للبلع.

وكما أن في العالم الكبير السمٰوات السبع وفي كل سماء كوكب سيار كذلك في العالم الصغير الرأس بمثابة السمٰوات، وهو مبني على الطبقات السبع في كل طبقة منها قوة بمثابة كوكب سيار، كالمتخيلة، والمتوهمة، والمتفكرة، والحافظة، والذاكرة، والمدبرة والحس المشترك. وكما أن في السمٰوات سكاناً من الملائكة كذلك في الرأس سكان من الحواس؛ البصر، والسمع، والشم والذوق، واللمس. ثم إن في البدن ما يتحرك من ذاته بالطبع ولا يسكن ألبتة، كالقلب ومنه ما هو ساكن بذاته بالطبع يتحرك ومنه ما حرك بالقهر وبالعرض كما في العالم الكبير، وإن القلب بمثابة العرش، والسر بمثابة الكرسي واستواء الروح على عرش القلب بمثابة استواء الصفة الرحمانية على العرش، فأما ما يختص من البدن بالبروج الإثني عشر والكواكب

السبعة لما فيه من طبائعها وأمثلتها فقد ذكره المنجمون واستقصوه، وأما شكل البدن كله وما كان يجب من استدارته لشبهه بالعالم الكبير ويشاركه في شرف هذا الشكل وفضله على جميع الأشكال، وإن كان حاصلاً بأن طوله وعرضه من حيث يبسط يديه متساويان، فالمقصود من جميع بدن الإنسان هو الرأس الذي خلق مستديراً وهو تام كامل فيه الحواس الخمس، وفيه يظهر آثار الإنسانية لأن التمييز والفهم والذكر والفكر، وبالجملة جميع قوى النفس إلا أنه لو أفرد خلقه ولم يوصل بسائر أجزاء البدن لما تمت حياته مدة طويلة ولعرضت له الآفات الكثيرة في الزمان اليسير، وذلك لحاجته إلى الانتقال والسعي وتناول الحاجات ودفع الأذيات، وليس يتم له ذلك إلا بالحركة، وحركة المستدير نحو حاجاته تكون بالتدحرج، وفيه من التعرض للآفات ما لا خفاء فيه، وهو مع ذلك يحتاج إلى حرارة تحفظ عليه اعتدالاً خاصاً ومزاجاً مفروضاً وتلك الحرارة لطيفة جداً، وكان ينبغي أن يكون الوسط كالمركز لينتشر إلى أطراف الكرة بالسواء ويحفظ عليه مزاجه، وجوهر الدماغ بارد رطب لا يصلح إلا بذلك. فلو جعلت تلك الحرارة اللطيفة في وسطه لأطفأها سريعاً وتلف الإنسان، وأيضاً إن الحرارة إذا جاوزت الرطوبة أحدثت البخارات الكثيرة، والبخارات إذا لم تجد منافذ إلى الهواء عادت على الحرارة فأطفأتها للوقت فوجب من هذه الأشياء ومن غيرها مما يطول ذكرها أن تبعد تلك الحرارة، فلما أبعدت احتجبت أن وصل بينهما وبين جوهر الدماغ بمجاري ومنافذ يجري مجرى الكومى وهي الشريانات التي بين القلب وبينه، ولما فعل ذلك احتيج إلى زيادة في الحرارة وقوتها إذا كانت تصل إلى هناك في مسافة طويلة وقد نقص بعض سورتها، فجعل في القلب حرارة أزيد ليصل إلى الدماغ منها قدر الحاجة منها والكفاية لحفظ مزاجه، ولما زيدت هذه الحرارة احتدت فحصل فيها مما يجاوزها من جوهر القلب بخار دخاني، واحتاج إلى نافخ ينفي عنها أبداً بالنفخ البخار الدخاني ويجتلب إليها الهواء الموافق لها الذي يبقى فيه. فلذلك خلقت الرئة وآلة النفس لتروح الحرارة وتخدمها في أسباب البقاء، ولما احتاج إلى الغذاء الموافق لرد العوض عما تحلل منه بالحرارة خلقت له آلات الغذاء وتوابعه وما يخدمه في جميع ذلك، من الرجلين للسعي إلى المؤثر والهرب من المكروه واليدين لتناول المنافع ودفع المضار، وجميع ما بينا في كتاب «منافع الأعضاء» من جليها ودقيقها، ظاهرها وباطنها التي دلت على حكمة بالغة وقدرة تامة وتدبير غامض وصنع لطيف. وهذا القدر من الكلام كاف في أن الإنسان كعالم صغير إذ قد ظهر ذلك، وقد أظهر أن قواه متصلة كاتصال العالم الكبير وأنها مرتقية من أدنى مراتبها إلى

أقصاها كما بينا في فصل كيفية ارتقاء الحواس.

ثم اعلم أن تسوية قالب الإنسان إذا تمت وتعلق الروح بالقالب بالتمام واستعد لقبول الفيض الإلٰهي كما سنبينه في فصل التسوية إن شاء الله تعالى، ليظهر مقام الإنسان وأنه هو العالم الكبير والله ولي الهداية والتوفيق.

الفصل الثالث

في تسوية القالب وتعلق الروح به

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «وإن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحاً»(١).

اعلم أن الحكمة في خلقه العالم بما فيه كانت لخلقة الإنسان؛ لأنه هو المخلوق المستعد لقبول الفيض الإلٰهي الذي به يكون عارفاً لله، فإنه مرآة صفات جمال الله وجلاله ومظهر صفات لطفه وقهره، وهو الناظر في مرآة نفسه ومشاهد جمال الله وجلاله فيها بنور الفيض الإلٰهي، فيكون عارفاً نفسه بالمرآتية وربه بذي الجمالية والجلالية، وأنه هو الناظر والمنظور إليه، كما قال ـ ﷺ ـ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» فالإنسان هو المحبوب المخلوق للمعرفة في قوله تعالى: (فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف).

ثم اعلم أن بدء تسوية قالب الإنسان من حين أن الله تعالى نظر إلى الجوهرة التي خلقها أولاً فجمدت وصارت حمراء، ثم نظر ثانياً فذابت وارتعدت من خوفها فصارت ماء، ثم نظر إليها نظر الرحمة فجمد نصفها فخلق منه العرش فارتعد العرش فكتب الله عليه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فسكن العرش وترك الماء على حالته يرتعد إلى يوم القيامة، أن تلك الجوهرة المخلوقة أولاً هي روح النبي ـ ﷺ ـ الذي خلق منه جميع الموجودات كما مر ذكره عن حديث جابر، وإنما سكن العرش لما كتب الله عليه: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ لأنه خلق من نوره وبقدرة الله، فبنور اسم الله عليه واسم محمد ـ ﷺ ـ سكن، ولأن العرش وما دونه خلق لتتهيأ مرآة صفات الألوهية وتسويتها وهي قالب محمد ـ ﷺ ـ وقلبه المعبأة بالقوة في العرش،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره عند قوله تعالى: «وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي». (ج٣ ص ٢٢٥)، ولفظة: «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين ليلة. أو قال أربعين يوماً». وأخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (ج١ ص ٣)، وقال: «رواه الفزاري موقوفاً». وأخرجه غيرهما.

ولهذا قال: وفي العرش تمثال جميع ما خلق الله تعالى. أي فيه بالقوة، ثم يخرج منه إلى الفعل بالتدريج فسكن العرش بتلك الكتابة لنيل آثار كمال أعده الله تعالى له. فمن بده النظرات إلى الجوهرة وتغير أحوالها في أطوار مختلفة كان الله تعالى وتبارك في تهيء أسباب القالب الإنساني وتسويته كل يوم هو في شأن، كما مر بعض شرحها في الفصول المتقدمة، فلما أتى أوان تخمير طينة القالب الإنساني بعث إلى الأرض عزرائيل ـ عليه السلام ـ بعدما رجع جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ، كما جاء في الحديث: فأخذ عزرائيل قبضة تراب سلها من جميع وجه الأرض وطرحها وسط الأرض وهو بين مكة والطائف؛ لأنه جذبها من أطراف الأرض ونواحيها إلى وسطها وسرتها، وكان عزرائيل يومئذ يتولى القبضة ولم يعبأ بشكات الأرض ممَّا نقص منها، كما في الحديث كذلك يتولى قبض الأرواح من أجسادها إلى القيامة حتى يرد جميع ودائع الأرض إليها، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥] الآية. فما من أحد إلا ويدفن في التربة التي خلق منها على ما جاء في الحديث ولما نظر الله سبحانه إلى الأرض بعد خلقها نظر الرحمة كان الذي قبضه عزرائيل من الذرات بمواقع نظرة الله تعالى وهي أديم الأرض كلها، ولجلدة الأرض ظاهر وباطن يسمى ظاهرها بشرة وباطنها أدمة يسمى المخلوق منها آدم باعتبار خلقه من أدمة الأرض وهي طرف جلدتها بما يلي الباطن، وسمي بشراً باعتبار خلقه من بشرتها الظاهرة فقال تعالى: ﴿إِنِّي خَلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١].

وفيه نكتة: وهي أن ذرات بشرة الأرض ظاهرة وذرات أدمتها باطنة فكانت البشرية من الإنسان عبارة عن الصورة الظاهرة وآدميته عبارة عن أخلاقها الحميدة في الباطن.

وقال محمد بن عبد الله الترمذي: في كتاب «غور الأمور»: إن إبليس كان يمشي على وجه الأرض فبعض مواضع الأرض مس قدمه وصار موطيء رجله، وبعضها صار بين قدميه، وبعضها لم يصل إليه قدمه ولا ظله، فالنفس الباطنة خلقت من تراب قدميه، والنفس الظاهرة، يعني القالب، خلقت مما بين قدميه حيث سار فيه ظله، وخلق القلب من تراب لم يصل إليه قدم إبليس، لعنه الله، ولا ظله وهو التراب المنظور إليه نظر الرحمة، قال: وهذا مثل آدم ـ عليه السلام ـ لما أهبط إلى الأرض جال جميع الدنيا فما وطيء عليه قدمه نالته رحمة وبركة فصار بلدة ومدينة، وما كان بين قدميه من الأرض صار قرى وسبلاً، وما لم تصل إليه من الأرض صار مفاوز.

وروى عن بعض الكبراء: أن محل المعرفة من الإنسان هو من الذرة التي نظر إليها الرحمٰن يوم جمد الماء أرضاً وباقي جسده توابعها، وذلك مما لم يصبها قدم إبليس وظله وهو لب القلب في الحبة السوداء، وعلى تلك يدور العود والإنشاء. قلت: وهي الذرة التي استخرجت من ظهر آدم وخوطبت بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وأخذ منها الميثاق على جواب ﴿بَلَىٰ﴾ [البَقَرَة: ٨١].

واعلم أن جميع الذرات المأخوذة من بشرة الأرض أودعت ظهر آدم ـ عليه السلام ـ وكذلك كانت جثته أعظم الخلق وقامته أطول حتى روى أن رأسه يحتك بالسحاب فصلع لذلك، ثم تصاغر أولاده شيئاً فشيئاً، ولما أودعت ذرات الذرية في طينة آدم وهي في التخمير ومعنى التخمير تعجينها بما أودع وأشرب في جبلتها من الأخلاق والمعاني والخواص التي هي مودعة في الملائكة المقربين، والشياطين المتمردين والحيوانات المتنوعة والنباتات المختلفة، والسمٰوات والأرضين وما فيهن من الأفلاك والأنجم والبروج والمعادن والفلزات، والجنان بما فيها من أنواع النعيم، والنيران بما فيها من العذاب الأليم، ولهذا كرم ظاهر آدم ـ عليه السلام ـ عند تخمير طينته بمباشرة يديه وهما صفتا اللطف والقهر ليودع في طينته ما هو من نتائج لطفه وقهره ليجعله مظهراً لصفات لطفه وقهره الذي هو مختص به. من بين سائر الموجودات في بدء الخلافة، وسيجيء شرحها في موضعها إن شاء الله تعالى، خصه بأربعين صباحاً لأنها نهاية كمال الأعداد وذلك أن كمال مراتب الأعداد أربعة الواحد والعشرة والمائة والألف، والعشرة عدد كامل من الآحاد لقوله ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٩٦] فإذا كرر أربع مرات بلغت النهاية في الكمال وقوله: (أربعين صباحاً) فيه سر عجيب وهو أن الله تعالى رش في مدة التخمير كل صبيحة رشة من نوره على طينة آدم ـ عليه السلام ـ، والصبيحة وقت ظهور الأنوار وهبوب نفحات الأسحار، وكانت ذرات أولاده مختلطة مختمرة بطينته، والطينة مظلمة فمن أصابه من ذلك النور في صباحه اهتدى وهم السعداء، والذين لم يصبهم من رشاش ذلك النور بقوا في ظلام طينتهم ولم يسفر لهم صبح قط وهم الأشقياء.

وفي المثل السائر: ليس للعمى صباح. ومما يدل على هذه الجملة قول النبي ـ ﷺ ـ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن لم يصبه ضل وغوى»[1]. وفي بعض الروايات أن أربعين صباحاً

(١) رواه الترمذي، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، حديث رقم (٢٦٤٢)، ورواه البيهقي، كتاب السير، باب مبتدأ الخلق (١٧٧١٠) طبعة دار الكتب العلمية، ورواه غيرهما.

كانت أربعين ألف سنة يعني كل يوم منها ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧] فكما قررنا دارت مراتب التسوية فمن بده النظرات إلى الجوهرة في أطوارها المختلفة إلى أن بلغت بتدبير الصانع الحكيم إلى أفق الجماد، ثم ارتقى في قبول أثر النفس إلى رتبة أثر النباتية، ثم إلى أفق الحيوانية، ثم إلى أفق الملكية ثم إلى أفق الإنسانية بعد تمام التسوية، وذلك بأن يجعله قابلاً للفيض الإلهي بلا واسطة عند تعلق الروح بالقالب تعلقاً تاماً بالنفخة الخاصة، وإنما قلنا تاماً لأن تعلق روح ذريات آدم يكون بالتدريج على قدر تسوية قالبهم من حين وقوع النطفة في الرحم إلى أن تصير جنيناً إلى أن تبلغ حد البلاغة، وكان تعلق روح آدم ـ عليه السلام ـ بقالبه بعد كمال التسوية بمرة واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فصار قابلاً للفيض الإلهي بأن يتجلى فيه كما قال ـ ﷺ ـ: «إن الله تعالى خلق آدم فتجلى فيه»[1] ولهذا بلغ رتبة المسجودية التي من صفات الربوبية بقوله: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] وقد نال هذه الرتبة بسر الخلافة وهذا كمال مقام الإنسان الذي خلقه للمعرفة وخلق ما سواه بتبعيته كما خلقت الشجرة بتبعية الثمرة، وإن أمعنت النظر وجدت الشجرة بأسرها الثمرة لأنها كانت في الثمرة معبأة بالقوة فخرجت بالتربية إلى الفعل، فكذلك شجرة الموجودات كانت معبأة بالقوة في ثمرتها وهي الروح الإنساني فخرجت بالتربية إلى الفعل، فإن أمعنت النظر لوجدت الإنسان عالماً كبيراً، ووجدت العالم إنساناً كبيراً، كما قلت هذا المعنى في رباعية بالأعجمية:

أي نسخة تامة إلهي ركه تويني   وأي آينه جمال شاهي ركه تويني
بيرون زنونيست مرجه در عالم مست   درخود بطلب هوابح خوابح خواهي ركه تويني

فإن قيل: إذا بلغ كل إنسان حد بلاغته هل يستحق أن يتجلى الله فيه كما تجلى في آدم ـ عليه السلام ـ أم لا؟ قلنا: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أن من سنة الله تعالى أنه جعل حد بلاغ الرجال البالغين المستحقين لتجلي صفات ربوبيته أربعين سنة كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥] وفي هذا السن تتم التسوية للقالب ويتعلق به الروح بالكمال، فإن لم تكن مرآة قلبه مصدأة برين الشرك والمعاصي ومكدرة بظلمة صفات بشريته وخواص أوصاف طبيعته بل تكون مصقولة بمصقل لا إله إلا الله مصفاة عن دنس تعلقات الكونين فيستحق لتجلي ذات الله وصفاته فضلاً منه ورحمة،

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وإن شرف أحد بهذا الشرف قبل بلوغ أربعين سنة فذلك من النوادر ولا حكم للنادر والله أعلم.

والجواب الثاني: أن آدم - عليه السلام - خلق حين خلق خلقاً تاماً وتسويته كانت تامة وتعلق روحه بقالبه بالكمال، ولم تصدأ مرآة قلبه برين المكاسب الحيوانية، وأنه لما صعد روحه إلى دماغه عطس، فأول فعل صدر منه كان نورانياً وهو قوله الحمد لله، فتنورت مرآة قلبه بنور ثناء الحق تعالى وهو مخ الشرع، فبنور الشرع زالت ظلمة الطبع فاستحق لتجلي ربوبية الحق على مقتضى سنن كرمه، كما قال: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»[1] فلما تقرب آدم - عليه السلام - إلى الله تعالى بالحمد والثناء تقرب إليه الله بقوله يرحمك ربك. فترحُمُه عليه تجلى فيه بربوبيته وجميع صفاته وهذا حقيقة قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: ٣١] وبنيل هذه الرتبة جاوز أفق الملائكة؛ لأنهم بمعزل عن هذه الرتبة إذ قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢] ومن هنا وجد رتبة سجودية الملائكة وأيد بروح القدس واختص باستحقاق الخلافة دون الملائكة المقربين. كما نشرح في مقام الخلافة، إن شاء الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد، حديث رقم (٣١١) [ج١ ص ٩٤] بلفظ: «عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال إذا تقرب إلي العبد شبراً تقربت ذراعاً وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيه هرولة».

الباب السادس
في مقام الخلافة المختصة بالإنسان

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في ماهية الخلافة.

الفصل الثاني: في اختصاص الإنسان بالخلافة.

الفصل الثالث: في تفاوت الخلافة ودرجتها.

الفصل الأول
في ماهية الخلافة

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الخلافة بعدي ثلاثة وثلاثون سنة وبعدها ملك وجبروت»[(١)].

اعلم أن حقيقة الخلافة مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها: الفناء.

وثانيها: البقاء.

وثالثها: الثبات على قدم التسليم والرضا.

فأما الفناء: فبأن يكون فانياً عن أقواله وأفعاله وأحواله.

وأما البقاء: فبأن يكون باقياً بأفعال مستخلفه وأقواله وأحواله فلا يفعل إلا ما

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (ج ٧ ص ٨٣) حديث رقم (٦٤٤٣). ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر الدال على أن الخليفة بعد عثمان بن عفان كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حديث رقم (٦٩٠٤) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

يؤمر، ولا يقول إلا ما يؤذن، ولا يتحرك في حال من أحواله إلا فيما يناسب أحوال مستخلفه.

وأما الثبات على قدم التسليم والرضا، فبأن يخالف هواه في طلب رضا مستخلفه ومولاه.

ثم اعلم أن هذه الأصول الثلاثة لا تتيسر لخليفة إلا بتيسير المستخلف، بأن يجعله فانياً عنه، باقياً به وبثباته على قدم التسليم، وترضيه عن نفسه برضاء نفسه عنه لتحقيق قوله: ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه﴾ أي لما رضى المستخلف عن الخليفة بالأصالة رضي الخليفة عن المستخلف بالخلافة، لتحقيق خلافته والله أعلم بالصواب.

الفصل الثاني
في اختصاص الإنسان بالخلافة

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: ٣٠] الآية.

اعلم أن الله تعالى لاختصاص الإنسان بالخلافة قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: ٣٠] وليعلم أن المختص بالخلافة من يكون أرضياً سماوياً مثل الإنسان، لا سماوياً كالملائكة ولا أرضياً كالحيوانات، وإنما قال تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] وما قال: إني خالق لمعنيين؛

أحدهما: لأن الجاعلية أعم من الخلقية، فإن الجاعلية هي الخلقية وشيء آخر وهو أن يخلقه موصوفاً بصفة الخلافة، إذ ليس لكل مخلوق اختصاص بالخلافة، كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] خلقناك مستعداً للخلافة وأعطيناك مرتبتها.

والثاني: أن للجاعلية اختصاصاً بعالم الأمر وهو الملكوت، وهو ضد عالم الخلق لأنه هو عالم الأجسام والمحسوسات، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعرَاف: ٥٤] أي: الملك والملكوت، وأنه تعالى حيث ذكر ما هو مخصوص بعالم الأمر ذكره بالجاعلية لامتياز الأمر عن الخلق، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

فلما كانت السموات والأرض من الأجسام والمحسوسات ذكرها بالخلقية، ولما كانت الظلمات والنور من الملكوتيات ذكرها بالجاعلية، وإنما قلنا: إن الظلمات

والنور من الملكوتيات لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧] وإنها من الملكوتيات لا من المحسوسات؛ لأن النور هو نور الروح أو نور الهداية والإيمان، والظلمات هي ظلمات صفات البشرية أو ظلمات الكفر والضلالة، كما جاء في التفسير أو الظلمات والنور المحسوسة فإنها داخلة في خلق السمٰوات والأرض، فافهم جيداً. فكذلك لما أخبر الله تعالى عن جسمانية آدم ـ عليه السلام ـ ذكرها بالخالقية، كما قال: ﴿إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١] ولما أخبر بما يتعلق بروحانيته ذكره بالجاعلية فقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَة: ٣٠] وفي اختصاص الإنسان باسم الخلافة كرامة له لم توجد في شيء آخر من الموجودات، وإنما سمي خليفة لمعنيين:

أحدهما: أنه يخلف عن جميع المخلوقات ولا يخلفه للمخلوقات بأسرها وذلك لأن الله جمع فيه ما في العوالم كلها من الجسمانيات والروحانيات. كما مر ذكره فهو بالحقيقة خليفة كل شيء وأكرمه باختصاص كرامة نفخ روحه فيه. كما قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحِجر: ٢٩] وما أكرم بهذا أحداً من العالمين، وأشار إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسرَاء: ٧٠] فلهذا الاختصاص ما صلحت الموجودات بأسرها أن تكون خليفة لآدم ـ عليه السلام ـ، ولا للحق تبارك وتعالى.

والثاني: أنه يخلف وينوب عن الله تعالى صورة ومعنى؛ أما صورة: فوجوده في الظاهر يختلف عن وجود الحق في الحقيقة؛ لأن وجود الإنسان يدل على وجود موجده كالبناء يدل على الباني وتختلف وحدانية الإنسان عن وحدانية الحق، وذاته عن ذاته، وصفاته عن صفاته، فتختلف حياته عن حياته، وقدرته، عن قدرته وإرادته عن إرادته، وسمعه عن سمعه، وبصره عن بصره، وكلامه عن كلامه، وعلمه عن علمه، ولا مكانية روحه عن لا مكانيته، ولا جهتيته، وليس لنوع من المخلوقات أن يخلف عنه كما يخلف آدم وإن وجد في بعضها بعض هذه الصفات. لأنه لا تجتمع صفات الحق في أحد كما تجتمع في الإنسان ولا تتجلى صفة من صفاته لشيء كما تتجلى لمرآة قلب الإنسان وصفاته.

وأما معنى: فليس في العالم مصباح يستضيء بنار نور الله تعالى فتظهر أنوار صفاته في الأرض خلافة عنه إلا مصباح الإنسان فإنه مستعد لقبول فيض نور الله لأنه أعطى مصباح السر في زجاجة القلب والزجاجة في مشكاة الجسد وفي زجاجة القلب زيت الروح ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾ [النُّور: ٣٥] من صفاء العقل، ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النُّور: ٣٥] النور في مصباح السر فتيلة الخفي، فإذا أراد الله أن يجعل في

الأرض خليفة يتجلى نور جماله لمصباح السر الإنساني، فيهدى الله لنوره فتيله الخفي من يشاء فيستنير مصباحه بنار نور الله، فهو على نور من ربه فيكون خليفة الله في أرضه فيظهر أنوار صفاته في هذا العالم. بالعدل والإحسان والرأفة والرحمة لمستحقها وبالعزة والقهر والغضب والانتقام لمستحقها كما قال تعالى في حق النبي - ﷺ - وأصحابه ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] ولا تظهر هذه الصفات لا على الحيوانات ولا على الملك ناهيك عن حالة هاروت وماروت، لما أنكرا على ذرية آدم اتباع الهوى والظلم والقتل والفساد وقالا لو كنا بدلاً عنهم خلفاء الأرض ما كنا نفعل مثل ما يفعلون، فالله تعالى أنزلهما إلى الأرض وليس عليهما لباس البشرية وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير حق، والزنا وشرب الخمر. قال قتادة: فما مر عليهما شهر حتى افتتنا فشربا الخمر وسفكا الدم وزنيا وقتلا وسجدا للصنم. فثبت أن الإنسان مخصوص بالخلافة وقبول نور الله تعالى. فلو كان للملائكة هذه الخصوصية لم يفتتنا بهذه الأوصاف الذميمة الحيوانية والسبعية، كما كان الأنبياء - عليهم السلام - معصومين عن مثل هذه الآفات والأخلاق، وإن كانت البشرية لازمة لهم ولكن بنور التجلي تنور مصباح قلوبهم، واستنار بنور قلوبهم جميع مشكاة أجسادهم ظاهراً وباطناً، وأشرقت أرض البشرية بنور ربها فلم يبق لظلمات هذه الصفات مجال الظهور مع استعلاء النور، فلما أفنى نور هوية الحق تعالى ظلمة أنانية وجودهم المجازي وأبقاهم ببقائه، تحقق لهم أنهم خلفاء الله في الأرض وما لهم وجود حقيقي ولا لغيرهم، بل وجودهم وجود كل شيء قائم بخلافة وجود الحق، وما يصدر منهم من الأعمال والأقوال صادر بخلافة الحق تعالى بمشيئته وإرادته وتقديره، وما لهم بالأصالة وجود ولافعل، وأنهم مختصون بهذه الخلافة وليس للملائكة استحقاق هذه الخلافة؛ لأنهم محجوبون عن رؤية الحق بهذا النظر بحجاب رؤية وجود الأغيار وأفعالهم أصالة لا خلافة، وذلك لأن الله تعالى لما امتحنهم بقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فلو لم يكونوا محجوبين لما اعترضوا على الله، ولما أسندوا الأفعال إلى آدم وإلى أنفسهم أصالة واستبداداً، بل أسندوها إلى الله تعالى كما قال موسى - عليه السلام -: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أسند فعل الأغيار إلى الله تعالى؛ لأنه رأى الأغيار بنظر الخلافة والله أعلم.

الفصل الثالث
في تفاوت الخلافة ودرجاتها

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] اعلم أن الله تعالى أثبت الخلافة لعموم بني آدم بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ثم جعلها على التفاوت فيما بينهم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥] في الخلافة وذلك لأن حقيقة الخلافة هي التصرف في الملك والملكوت بنيابة الحق تعالى، ولما كان لله ملك وهو ظاهر الكون من الدنيا وما فيها وهو متصرف فيها وله ملكوت وهو باطن الكون من الآخرة وما فيها، وهو متصرف فيها وجب، أن يكون للخليفة آلات من الملكيات والملكوتيات ليتصرف بها في الملك والملكوت بالخلافة، كما يتصرف مستخلفه فيها بلا آلات بل بقدرة كاملة وإرادة شاملة وقد منحه الله تعالى هذه الآلات تامة كاملة، وأما الآلات الملكيات، فهي الأعضاء والجوارح والحواس الخمس وما يتعلق بالجسد، وأما الآلات الملكوتيات، فهي القلب والعقل والسر والروح والخفي والقوى البشرية وما يتعلق بالروح.

ثم اعلم أن طبقات الخلفاء ثلاث طبقات [صنف] منهم يستعملون الآلات الجسدانية فحسب وهم على صنفين:

الصنف الأول: يستعملون بالخلافة على وفق أوامر مستخلفهم ونواهيه في الخالقية وبالنكاح، وفي الرازقية بالزراعة والانفاق، وفي الصانعية بالصنائع والحرف وغير ذلك، فهؤلاء الذين سعيهم مشكور ولهم في حركاتهم أجور.

الصنف الثاني: يستعملون آلاتهم على وفق الطبع وهوى النفس خلافاً لأوامر مستخلفهم ونواهيه فهؤلاء ما لهم من الخلافة إلا الخسارة، وأولئك كالأنعام بل هم أضل.

والطبقة الثانية: يستعملون الآلات الجسدانية وبعض الآلات الروحانية، وهم أيضاً على صنفين:

الصنف الأول: يستعملون الآلات على وفق أوامر مستخلفهم ونواهيه وهم خواص المؤمنين، فيستعملون العقل ويتفكرون في خلق السمٰوات والأرض، ويرون آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم ويتبين لهم الحق، ويزداد إيمانهم ومعرفتهم ودرجاتهم وقربهم، ومنهم من يستعمل القلب بعد التصفية وتزكية النفس فيتحلى من

شواهد الحق وكشف الحقائق بحسب استعمال القلب وغيره من المدركات الروحانية، فيزيد في كمالاتهم.

والصنف الثاني: يستعملون هذه الآلات بالطبع لا بالشرع على خلاف أوامر مستخلفهم ونواهيه، فيستعملون العقل المشوب بالوهم والخيال فيما ليس له فيه مجال التصرف من الإلهيات فيقعون في شبهات أهل البدعة والضلالة من المتكلمين والمتفلسفين فيحرمون من سعادة الخلافة وكرامتها.

والطبقة الثالثة: يستعملون جميع الآلات الجسدانية والروحانية على وفق أوامر مستخلفهم ونواهيه، وهم الأنبياء والأولياء ولهم المرتبة العليا في الخلافة، ولهذا فضل الله آدم ـ عليه السلام ـ على الملائكة ـ عليهم السلام ـ بالخلافة؛ لأنه ليس لهم هذه الآلات بجميعها لاستعداد الخلافة، وكان فضل آدم على الملائكة بفضائل جمة؛ منها: اختصاصه بتعليم علم الأسماء كلها فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: ٣١] ذكر الأسماء بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس، فيقتضي أن لا يكون شيء إلا وآدم يعلم اسمه وقوله: ﴿كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: ٣١] أي: بكليتها، وهي حقائق المسميات. معناه وعلم آدم الأسماء والمسميات وحقائقها، مثالها أن الله علمك اسم الغنم، فما اقتصر منه على علم مجرد هذا الاسم، بل علمك علم أسمائه كلها بأن علمك ببصرك اسم لونه أبيض أم أسود، وعلمك بسمعك اسم صوته، واسم رائحته بشمك، واسم طعمه بذوقك، واسم لينه وخشونته بلمسك، كذلك جميع أسماء صفاته وأخلاقه وخواصه ومنافعه ومضاره علمك بقواك وعقلك، وعلمك بإيمانك اسم خليفته فلكل جزء من أجزائه اسم وطعم ورائحة وصفة وخاصة وماهية، وحقيقة أخرى لا يعلمها إلا الإنسان لأنه خلق في أحسن تقويم لإدراك صور الأشياء ومعانيها وحقائقها وأن له بحسب كل شيء من الجملة المذكورة آلة مدركة لذلك الشيء كما هي خلافة عن مستخلفه الذي هو مدرك حقائق الأشياء بلا آلة مدركة، وليس للملائكة هذه المدركات كلها إلا ما يتعلق بالقوة المدركة العقلية الملكية، فلهذا لما عرضهم على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٣١] إن كان لكم فضيلة على آدم بالتسبيح والتقديس والحمد والثناء ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [البَقَرَة: ٣٢] إقرار بالعجز واعتذاراً عن الاعتراض واعترافاً باستحقاقه للخلافة ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢] بالأسماء وحقائقها ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البَقَرَة: ٣٢] منها بما أعطيتنا من النظر الملكي الملكوتي، فأظهر فضيلة آدم عليهم بفنون هذه العلوم وبعجزهم عن الإتيان بمثلها، فكما أن القرآن كان دليلاً على نبوة محمد ـ ﷺ ـ وفضيلته على الكافرين

بإعجازهم عن الإتيان بمثله كذلك علم الأسماء كان دليلاً على خلافة آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفضيلته على الملائكة بإعجازهم عن إتيان مثله، ثم كمالية استعداده للخلافة واستحقاقه للسجود إنما كان بتعلمه علم أسماء الله تعالى وصفاته بتعليم الله إياه بأن جعل ذاته وصفاته في التسوية مرآة قابلة لتجلي صفات جلاله وجماله تبارك وتعالى. كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»(١). فبالتجلي علمه التخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته وهذا هو سر الخلافة على الحقيقة، لأن المرآة تكون خليفة للمتجلي فيها. ومن دلائل فضيلة آدم على الملائكة واستحقاقه للخلافة احتياج الملائكة إليه بانباء الأسماء لقوله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ٣٣] فكان آدم ـ عليه السلام ـ أول الأنبياء وأول ما بدأ بالنبوة بدأ بإنباء الملائكة بأمر الحق وبخلافته فكانوا بمثابة الأمة له، فالفضيلة مختصة بالنبي على الأمة لا بالأمة على النبي وإنما كان آدم مختصاً بعلم الأسماء دون الملائكة، وهم محتاجون إليه بأنباء أسمائهم وأسماء غيرهم؛ لأن آدم كان بالحقيقة أصل العالم وخلاصته فكان روحه بذر شجرة العالم وشخصه ثمرة شجرة العالم، ولهذا خلق شخصه بعد تمام العالم بما فيه كخلق الثمرة بعد تمام الشجرة، فكما أن الثمرة تعبر على أجزاء الشجرة كلها حتى يظهر على أعلى الشجرة، كذلك آدم على أجزاء الموجودات علوها وسفلها، وكان في كل جزء من أجزائها له منفعة ومضرة، ومصلحة ومفسدة، فسمى كل شيء منها باسم يلائم تلك المنفعة والمضرة، والمصلحة والمفسدة، بعلم علمه الله تعالى، واختصه به من الملائكة وغيرهم، وهذا من جملة ما كان الله يعلم من آدم والملائكة لا يعلمون، فكان من كمال حال آدم أن أسماء الله تعالى جاءت على وفق منفعته ومضرته، ومصلحته ومفسدته، فضلاً عن أسماء غيره، وذلك أنه لما كان مخلوقاً كان الله خالقاً، ولما كان مرزوقاً كان الله رازقاً، ولما كان عبداً كان الله رباً، ولما كان عابداً كان الله معبوداً، ولما كان معيوباً كان الله ستاراً، ولما كان مذنباً كان الله غفاراً، ولما كان تائباً كان الله تواباً، ولما كان منتفعاً كان الله نافعاً، ولما كان متضرراً كان الله ضاراً، ولما كان فقيراً كان الله غنياً، ولما كان ضعيفاً كان الله قوياً، ولما كان ظالماً كان الله عدلاً، ولما كان مظلوماً كان الله منتقماً، ولما كان محباً كان الله جميلاً، فعلى هذا قس الباقي.

ثم اعلم أن الإنسان لهذا المعنى بكل صفة من صفاته كان قابلاً كالمرآة لتجلي

---

(١) هذا الأثر سبقت الإشارة إليه.

صفة من صفات الله تعالى باللطف والقهر عند تقرب العبد إليه وتجرده عنه، ومثاله، إن تقرب العبد إلى الله تعالى بتزكية نفسه عن الصفة المذنبة تجلى الله له بالصفة الغفارية في الأرض، وإن تقرب إلى الله بتزكية نفسه عن صفة الظلم تجلى الله له بصفة العدل، فيتجلى العبد بالعدل فيكون خليفة الله يحكم بالعدل في الأرض، وهذا سر قوله: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً» فقس على هذا خلافته في جميع الصفات، ولهذا الاستحقاق قال الله - عز وجل - في بعض الروايات (عبدي، أنا ملك حي لا أموت أبداً، فإذا قلت لشيء كن فيكون)[١]. فمن يطع الله باستعمال جميع الآلات الجسدانية والروحانية يكون في الخلافة بهذه المرتبة، وسنبين كيفية استعمالها في باب مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه إن شاء الله تعالى.

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

الباب السابع
في مقامات الإنسان عند رجوعه إلى ربه

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول
في كيفية رد الروح إلى القالب

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ [التين: ٤ ـ ٦] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله الملك بأربع كلمات قال يقول: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقياً أم سعيداً فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقياً أم سعيداً، ثم ينفخ فيه الروح. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار. فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها»(١).

اعلم أن الروح الإنساني لما خلق في أحسن تقويم وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة وإنه متفرد بهذه الرتبة من بين سائر المخلوقات وذلك لأنه أول شيء تعلق به أمر (كن) في الإيجاد بلا واسطة، وما سواه من المخلوقات فقد تعلق الأمر به بالوسائط. ولهذا السر قال تعالى في تعريف الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. . .، حديث رقم (٣٢٠٨) ورواه في صحيحه، كتا القدر باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه. . .، حديث رقم (٢٦٤٣) ورواه غيرهما.

[الإسراء: ٨٥] ولما كان الروح أول مقدر تعلقت به القدرة كان أقرب الموجودات إلى الحضرة وكان في جوار رب العالمين، إلى أن رده الله إلى أسفل سافلين القالب الإنساني. أي: أمره بالتعلق به ولا تظنن أن كيفية تعلق الروح بالقالب ككيفية جسم بجسم أو تعلق عرض بجسم ليكون له الدخول والخروج والصعود والنزول، كما هو معتاد الأجسام اللطيفة والكثيفة، بل تعلقه بالقالب بنفخ الحق فيه بلا كيفية ولا تشبيه كما نطق به القرآن والحديث، فأما حقيقة رد الروح إلى أسفل سافلين القالب، بأن رد وجهه الناظر الذي كان به ناظراً إلى الحضرة إلى جهة تربية النطفة في الرحم ليقلبها بالأربعينات علقة ثم مضغة ثم يكسو العظام لحماً ثم يتم نفخ الروح فيه فصار بهذا الاعتبار مقبلاً على القالب وحظوظه مدبراً عن الحضرة وحقوقها فباعتبار توجه الروح إلى القالب بالأمر وشغله بتربية القالب عبر عن قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين: ٥] وإلا فالروح ما تحرك من مكانه في جوار الحق تعالى. ولهذا قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] فلو نظرنا إلى أصل فطرته وأنه أول مقدور تعلقت به القدرة فهو أقرب الأقربين إلى الحضرة، ولو نظرنا إلى رده بالتوجه إلى أسفل سافلين القالب لشغل رتبته فهو أبعد الأبعدين عن الحضرة، وإنه لما رد القالب عبر نور نظره على عالم الأرواح، ثم على العرش والكرسي والسماوات السبع وما فيهن من الملائكة الروحانيين والكروبيين وحملة العرش والكرسي والبروج والأنجم والكواكب السيارة والثوابت والأجرام والنفوس السماوية، ثم على الأثير والنار والجن والشياطين، ثم على الهواء والماء والأرضين السبع، ثم على المركبات من الأجزاء العنصرية كأصناف الجمادات والنباتات والحيوانات إلى القالب الإنساني وهو أسفل السافلين على الحقيقة، إذ ليس تحته شيء أبعد منه إلى الحضرة لأنك إذا اعتبرت الموجودات وجدت أبعدها عن الحضرة عالم الأجسام، وإذا اعتبرت عالم الأجسام بأسره وجدت أبعده عن العرش الذي هو أقرب شيء من عالم الأجسام إلى الحضرة أصناف المركبات من الجواهر العنصرية التي منها قالب الإنسان. ومن أصناف المركبات كل ما كان أبعد عن الاعتدال الحقيقي وهو استعداد قبول الفيض الإلهي كان أقرب إلى الطبيعة العنصرية، وكل ما كان أقرب إلى الاعتدال الحقيقي كان أبعد عن الجواهر العنصرية، قالب الإنسان أقرب إلى الاعتدال الحقيقي فإذا هو أبعد عن الجواهر العنصرية، فصورة قالب الإنسان أبعد المركبات عن الحضرة فهو أبعد الأبعدين، وروحه أقرب الأقربين إلى الحضرة وما كان شيء في عالم الأجسام علويها وسفليها إلا وقد ركب في قالب الإنسان ما هو زبدته وما كانت خاصيته، في عالم

الأرواح علويها وسفليها إلا وقد حصلها في روح الإنسان بتدبير العزيز الحكيم، ثم جمع بينهما ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور. فبعزته بَعُد المقرب للابتلاء وبمغفرته قَرُب المبعد للاصطفاء والاجتباء.

ثم اعلم أن الروح حين تعلقه من أعلى عليين القرب إلى أسفل سافلين القالب فسر بنفخة الحق تعالى حيث ما بلغ من منازله اجتذب منه خاصية أودعت فيه، وحل فيه من نوره وصفاته ولطافته بحسب ما اجتذب من ظلمة ذلك المنزل وكدورته وكثافته، فاحتجب الروح بما اجتذب من كل منزل من منازل الروحانيات والجسمانيات، إلى أن تعلق بقالب الإنسان فصار محجوباً عن الحضرة محبوساً في أسفل سافلين القالب، إلى أن يخلص الله تعالى روح من يشاء من عباده، بجذبة ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] كما سنبينه إن شاء الله وحده.

الفصل الثاني
في رجوع الروح إلى الحضرة

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. اعلم أن الله تعالى لما أراد أن يجعل في الأرض خليفة لذاته وصفاته، خلق له روحاً في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين القالب وحجبه بحجب النورانيات الروحانيات وحجب الظلمات الجسمانيات وهما عالما الغيب والشهادة، وعدد الحجب ما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة»(١) فالحجب النورانية من عوالم الغيب الروحانية والحجب الظلمانية من عوالم الشهادة الجسمانية وأعطى الخليفة بحسب تلك العوالم مدركات روحانية وجسمانية يدرك بها العوالم المختلفة كلها ليكون بخلافته عالم الغيب والشهادة، وذلك حين يتخلص من حبس القالب ويرجع إلى ربه بجذبات عنايته وأن الله تعالى سماه روحاً عند نفخه في القالب فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وسماه نفساً عند رجوعه إلى الحضرة فقال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧] أو أراد بالنفس هنا ذاته وحقيقة وجوده. كما قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] أي في ذاتك فإن النفس للإنسان

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده عن سهل بن سعد بلفظ: «دون الله سبعون ألف حجاب نور وظلمة وما تسمع نفس شيئاً من حس تلك الحجب إلا زهقت نفسها» حديث رقم (٧٥٢٥) (ج ١٣ ص ٥٢٠) ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٥٨٠٢) (ج ٦ ص ١٤٨) ورواه غيرهما.

اسم جامع لقالبه ونفسه الأمارة وقلبه وروحه ولها خاصية لا توجد في الروح ولا في القلب ولا في النفس الأمارة ولا في قالبه، ويوجد فيها ما يوجد في كل فرد من أفرادها كما أن السكنجبين اسم جامع للمطبوخ من السكر والخل والماء فله خاصية في دفع الصفراء لا توجد في السكر ولا في الخل ولا في الماء، ويوجد فيه ما يوجد في تلك الأفراد، فبهذا الاعتبار يوجد في رجوع النفس إلى الحضرة رجوع القلب والروح جميع وجوده ولا يوجد في رجوع فرد من هذه الأفراد رجوع الجميع، ثم إذا أظهر الحق تعالى آثار ألطافه وعنايته في حال العبد وأسمعه خطاب ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] وإن كان هو غير مشعر بسماعه فيرزقه حسن الإنابة والتوبة التي هي الرجوع إلى الحق بعد التمادي في الباطل، فعليه في الرجوع العبور على تلك الحجب التي هي سبعون ألف حجاب من نور وظلمة ولا يسلم له العبور على كل مقام من هذه المقامات إلا بأن يرد إليه ما أخذ منه حين تعلقه بالقالب ويسترد منه ما حل فيه من النور والصفاء واللطافة وأنه يحتاج هذه الأوصاف ليطير إلى عشه الأصلي الذي طار منه، ثم بتصرفات الجذبات من حقيقة أمر ارجعي يصير إلى الحضرة. فأول مقام يعبر عنه السالك من بدء سلوكه مقام الترابية كما سيجيء شرحه إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

في العبور عن مقامات خواص الجواهر

وهي أربع مقامات؛ الترابية والمائية والهوائية والنارية. اعلم أن الروح في حبس القالب مقيد بهذه القيود الأربعة، فلا يتخلص منها إلا بالإيمان والأعمال الصالحة الشرعية، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝﴾ [التين: ٥، ٦] وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] والعبور عنها بأن يرد إلى كل مقام عبر عليه حين تعلقه بالقالب ما أخذ منه من مذمومات خواصه، ويبقى معه ما أخذ من محمودات خواصه، فما أخذ من خواص الترابية المذمومة هي الخسة والركاكة والدناءة والذلة والإمساك، فردها إليه بتزكية النفس عن هذه الصفات، وتبديلها بأضدادها، وهي علو الهمة ورفعة الدرجة والمروءة والعزة والسخاوة. فأما محمودات خواصها فالتواضع والقناعة والانكسار والحلم والثبات والسكون والوقار.

وأما المائية فمذمومات خواصها طلب الشهوات والتنعمات والمستلذات والأنوثة في الطبع والخنوثة والكسل، فردها بالتزكية عنها والتحلية بأضدادها وهي العفة والأنفة والرجولية والصلابة، فأما محمودات خواصها: فاللين والرقة والشفقة والرحمة ولطافة

الطبع والظرافة.

وأما الهوائية: فمذمومات خواصها؛ التكبر والتجبر والعجب والغرور والحسبان والرياء والغل والحقد والعداوة. فردها بالتزكية عنها والتحلية بأضدادها وهي التواضع والتسليم والرضا والامتثال والانقياد والانتباه والصدق والإخلاص.

فأما محمودات خواصها: فالنخوة والهمة والعظمة والأمانة وسلامة الصدر والوفاء والتودد.

وأما النارية: فمذمومات خواصها؛ الغضب والترفع والحدة والإباء والاستكبار والحرص والشره والطمع والحسد، فردها بالتزكية عنها، والتحلية بأضدادها، وهي: التحمل والصبر والسكون والوقار والإيثار والاستسلام، فأما محمودات خواصها: فالجلادة والكفاية والذهن والذكاء والفهم والإدراك والشجاعة وأمثالها.

وأما الوقائع التي ترى في العبور عن هذه المقامات، فأكثر ما يرى في العبور عن الترابية: الخربات والآثار والطلل والدمن والرسوم والحيطان المكسورة والآبار والأخاديد وأمثالها، وفي العبور عن الهوائية: المشي على الهواء والطيران وهبوب الرياح والعروج إلى السماء ونحو ذلك، وفي العبور عن النارية: رؤية النيران المشتعلة والمواضع المحترقة ووقوع النار في الأجمة والدخول في النار والبروق واللوامع والصواعق وأشباهها وإذا عبر عن الجواهر العنصرية. وهي مفردات العناصر يقع عبوره في المركبات والمعادن والنباتات كما سيجيء شرحه إن شاء الله تعالى.

الفصل الرابع
في العبور عن خواص جواهر المركبات والنباتات في الرجوع

اعلم أن مفردات العناصر إذا صارت مركبة صارت ظلمات خواصها مركبة وكلما ازداد ترقيها إلى المعادن والنباتات ازدادت ظلماتها ظلمات بعضها فوق بعض ولهذا السر لما رأت الملائكة قالب آدم ـ عليه السلام ـ ملقى بين مكة والطائف مركباً من العناصر الأربعة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] ﴾ [البقرة: ٠٣] إنما قالوها لأنهم نظروا إلى جسد آدم مركباً من العناصر الأربعة المتضادة قبل نفخ الروح فيه، فشاهدوا بنظر الملكي في ملكوت جسده صفات بشريته البهيمية السبعية التي تتولد من تركيب أضداد العناصر كما شاهدوها في أجساد الحيوانات والسباع الضاريات، بل عاينوها فإنها خلقت قبل آدم فقاسوا عليها أحواله

بعد أن شاهدوها وحققوها وهذا لا يكون غيباً في حقهم وإنما يكون غيباً لنا إذا نظرنا بالحس. والملكوت يكون لأهل الحس غيباً، وهنا من ينظر بالنظر الملكوتي فيشاهد الملكوت والملكوتيات كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] فحينئذ لا يكون غيباً، فإن الغيب ما غاب عنك، وما شاهدته فهو شهادة، فالملكوت للملائكة شهادة والحضرة الإلهية لهم غيب. وليس لهم الترقي إلى تلك الحضرة وأن الإنسان قالباً من عالم الشهادة المحسوسة وروحاً من عالم الغيب الملكوتي الغير محسوس وسراً مستعداً لقبول فيض النور الإلهي. فالسالك بالعبور عن خواص مفردات العناصر يرتقي إلى المركبات ومن المركبات يرتقي بالعبور عن خواصها إلى المعادن والنباتات ومنها بالعبور عنها ترتقي إلى أفق الحيوانات، ومنه يرتقي إلى الأفق الإنساني ومنه يرتقي من عالم الشهادة إلى عالم الغيب وهو الملكوت. كما سيجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى. وبسر المتابعة وخصوصيتها ترتقي من عالم الملكوت إلى عالم الجبروت والعظموت وهو غيب الغيب فيشاهد بنور الله تعالى المستفاد من سر المتابعة أنوار الجمال والجلال فيكون في خلافة الحق عالم الغيب والشهادة. كما أن الله تعالى هو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦] أي: الغيب المخصوص به وهو غيب الغيب. أحداً، يعني من الملائكة ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٧]، يعني من الإنسان فهذا هو السر المكنون المركوز في استعداد الإنسان الذي كان الله يعلم منه والملائكة لا يعلمون به حين قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] حتى قال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٣٠] والذي قالت الملائكة لما نظروا بنظر الملكي في ملكوت جسد آدم أنطقهم الله تعالى بهذا القول ليتحقق لنا أن هذه الصفات الذميمة في طينتنا مودعة وفي جبلتنا مركوزة، فنجهد في تزكية نفوسنا عن هذه الصفات، ونسعى في العبور عن هذه الظلمات بتوفيق الله تعالى وعونه إن شاء الله وحده، كما نشرح في مقامات النفس ومعرفتها إن شاء الله وحده.

الباب الثامن
في مقامات النفس ومعرفتها

فيه عشرة فصول:

الفصل الأول
في معرفة النفس وماهيتها

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يُوسُف: ٥٣] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك»(١).

اعلم أن النفس عين لطيفة هي معدن الأخلاق الذميمة مودعة بين جنبي الإنسان، أي: جميع جسده وهي أمارة بالسوء وهي مجبولة على ضد الروحانيات المخلوقة من الملكوت الأعلى فإنهم يأمرون بالخير وينهون عن الشر وهي مخلوقة من الملكوت السفلي كالشياطين وهم لا يأمرون إلا بالشر ومن طبعهم التمرد والإباء والاستكبار، وفي بعض الروايات: «إن الله تعالى لما خلق النفس قال لها اقبلي فأدبرت، وقال لها أدبري فأقبلت»(٢) على ضد العقل، فأما منشأ خلقة النفس فإن الله تعالى لما نفخ الروح في جسد آدم ـ عليه السلام ـ خلق من ازدواج الروح والجسد وَلَدَيْن ذكراً وهو القلب يشبه والده الروح العلوي فيأمر بالخير وجعل موضعه المضغة الصنوبرية في الجانب الأيسر من الصدور وأنثى وهي النفس تشبه والدته الجسد السفلي فتأمر بالشر وجعل موضعها جميع الجسد وقد خلقها على صورة جهنم وخلق بحسب كل دركة فيها صفة لها وهي باب من أبواب جهنم يدخل فيها من هذا الباب

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، (٩/ ٣٣) نسخة تصوير بيروت. وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الجهاد، الباب السادس في أحكام القتلى. . . ، حديث رقم (١١٢٥٩). طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت.

(٢) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

إلى دركة من دركاتها السبع وهي سبع صفات؛ الكبر والحرص والحسد والشهوة والغضب والبخل والحقد، فمن زكى نفسه عن هذه الصفات فقد عبر عن هذه الدركات السفلية ووصل إلى درجات الجنات العلوية كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس: ٩] ومن لم يزك نفسه عن هذه الصفات بقي في دركات جهنم خائباً خاسراً. كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ١٠] .

ثم اعلم أن هذه الصفات من مقامات النفس يتولد منها صفات أخرى، ومنشأ جميع الصفات النفسانية صفتان مركوزتان في جبلة كل حيوان ولا بد له منهما في التعيش وهما: الشهوة والغضب، فبالشهوة يجذب المنافع إلى نفسه وبالغضب يدفع المضار عن نفسه فإذا استعمل الشهوة في طلب ما يحتاج إليه تولد منها الحرص وإذا استعمل الغضب في دفع مضرة عن نفسه تولد منه الحقد، وإن رأى شيئاً مما يحتاج إليه مع غيره ولم يدفعه إليه تولد منه الحسد، وإن كان معه شيء طلبه منه محتاج إليه فيمنعه عنه تولد منه البخل. فإن كان معه ما يحتاج إليه جمع كثير فيتواضعون له ويتضرعون إليه في طلب مقاصدهم وهو ينظر إليهم بنظر الحقارة وإلى نفسه بنظر العزة يتولد منه الكبر والعجب. وإن كان لغيره ما يحتاج هو إليه ولم يدفعه إليه وهو قادر على أن يأخذ منه بالقوة، وحمله الحرص على أخذه منه يتولد منه الظلم والتعدي وكذلك جميع الأخلاق الذميمة يتولد بعضها من بعض ما لم تنحسم مادتها وحسم مادتها بتزكية النفس على قانون الشريعة والطريقة عن صفاتها كما نبينه إن شاء الله وحده.

الفصل الثاني

في تزكية النفس عن صفاتها الذميمة

قال الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لما خلق الله تعالى النفس قال: من أنت ومن أنا؟ قالت: أنا أنا وأنت أنت. فأمر أن تعذب في النار ألف سنة ثم أخرجها وقال لها: من أنت ومن أنا. قالت أنا أنا وأنت أنت. فأمر أن تعذب بالنار ألف سنة أخرى. ثم أخرجها. فقال لها: من أنت ومن أنا قالت: أنا أنا وأنت أنت. فأمر أن تعذب بالنار ألف سنة أخرى، ثم أخرجها فقال لها: من أنت ومن أنا؟ قالت: أنا أنا وأنت أنت فأمر أن تحبس في النار ألف سنة أخرى وتضرب كل يوم بألف سوط من الجوع وألف سوط من العطش، ثم أخرجت، فقال لها: من أنت ومن أنا؟ فقلت: أنا العبد الضعيف العاجز المسكين وأنت الإله

الملك الجبار، لا إله إلا أنت، فأطاعت لما جاعت، أو كما جاء»(١).

اعلم أن تزكية النفس واجبة على كل مسلم ومسلمة لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩، ١٠]. والواجب ما يثاب على فعله ويعاقب على تركه ولا تظنن أن تزكية النفس تتيسر بطريق العقل كما ظنت الفلاسفة والبراهمة وغيرهم من الجهال شرعوا في تزكية نفوسهم بالرياضات والمجاهدات على العميان فوقعوا في الشبهات والآفات والضلالات، فإن تزكية النفوس كمعالجة الأبدان وكما لا يجوز للمريض استعمال الأدوية برأيه إلا بنظر طبيب حاذق ذي تجربة في المعالجة، كذلك تزكية النفس لا يتيسر إلا بنظر نبي أو ولي ذي تجربة في هذا الشأن. وهذا أحد أسرار بعثة الأنبياء - عليهم السلام - فإنهم الحذاق في علم تزكية النفوس، ولهذا بعثهم الله تعالى ليزكوا بعلاج الشرائع نفوس الأمم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجُمُعَة: ٢] الآية. فأما تزكية النفس الأمارة ففي إزالة الصفة الإمارية عنها، وكذلك إزالة الصفات السبع التي مر ذكرها عنها وتحليتها بأضدادها من الصفات القلبية. فإن العلاج بالأضداد.

واعلم أن صحة النفس وحياتها في استيلاء هذه الصفات السبع وما يتولد منها ومرض القلب وموته فيها وصحة القلب وحياته في إزالة هذه الصفات السبع واستيلاء صفات هي أضدادها وفيها مرض النفس وموتها، فأما الصفات السبع التي من صفات النفس؛ أولها الكبر فيعالج بالتواضع، كما نبينه إن شاء الله تعالى.

الفصل الثالث

في صفة الكبر وعلاجها بالتواضع

قال الله تعالى: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤] وقال رسول الله - ﷺ -: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان»(٢) فقال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، قال: «إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: من بطر الحق وغمط الناس»(٢).

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر، حديث رقم (١٤٧- ٩١). ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، حديث رقم (١٩٩٩) ورواه غيرهما.

قال ابن الأعرابي: البطر: سوء احتمال الغنى، وبطر الحق هٰهنا: أن يجعل الحق باطلاً، ويقال: هو أن يتكبر عند الحق فلا يقبله كما كان لإبليس. وغمط الناس: أن يحتقرهم فلا يراهم شيئاً. فدلت الآية والحديث أن الكبر كفر ألا ترى أنه قابله في نقيضه بالإيمان في الحديث وقال في القرآن: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٣٤] أي: صار من الكافرين بالإباء والاستكبار. وإني قد رأيت النبي - ﷺ - جالساً وهو يذم الكبر والتكبر فتذكرت حديثه الذي قاله - ﷺ -: «ما أنا من دد ولا الدد مني»[(١)] فقلته، ولكن جرى على لساني «ما أنا من الدد بالألف واللام» فلما سمع النبي - ﷺ - مني الحديث أعاده وقال «ما أنا من الدد ولا الدد مني» قلت: يا رسول الله، هذا حديثك؟ قال: هذا حديثي.

قلت: أروه عنك؟ فقال: نعم اروه عني، فقلت: يا رسول الله أعطني يدك لأقبلها فأعطاني يده فصافحني فقبلت يده - ﷺ -، ثم انتبهت. فأولت بذكري هذا الحديث في معرض أنه - ﷺ - كان يذم الكبر والتكبر، أنه إشارة إلى أن العبد لا ينبغي أن يكون متكبراً كثير النخوة ولا كثير اللعب واللهو، قليل النخوة، فإنهما مذمومان بل يكون متواضعاً منبسطاً مع الإخوان متحرزاً عن الذلة والهوان ممازحاً من غير لعب ولهو كما كان النبي - ﷺ - يمزح ولا يقول إلا الحق. والدد: اللهو واللعب.

وقيل معنى تنكير الدد في الأول: الشياع والاستغراق وأن لا يبقى شيء منه إلا وهو منزه عنه، أي: ما أنا من شيء من اللهو واللعب. وتعريفه في الجملة الثانية لأنه صار معهوداً بالذكر كأنه قال ولا ذلك النوع مني، وأما علاج الكبرياء بالتواضع فالتواضع: الاستسلام للحق وترك الاعتراض على حكم الله ولا سبيل إليه إلا من وجهين:

أحدهما: أن ينظر إلى النفس بعين الحقارة فيرى خسة طبعها وركاكة نظرها ودناءة همتها وأنواع عيوبها وتمردها عن الحق وتعلقها بالباطل وخباثة ذاتها ودمامة صفاتها وتعديها وظلمها على نفسها ومع ذلك يرى عجزها وفقرها وذلها وضعفها ومسكنتها.

الثاني: أن ينظر إلى عظمة الله وعزته وكبريائه وجلاله وجبروته وشدة عذابه وألم

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (ج ١ ص ٢٧٤) حديث رقم (٧٨٥) ولفظه: «لست الدد ولا الدد مني بشيء» يعني ليس الباطل مني بشيء. ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب من كره كلما لعب الناس به من الخزة. . .، (ج ١٠ ص ٢١٧) حديث رقم (٢٠٧٥٤).

عقابه فَيَهَابُه ويتحقق أن بطشه للمجرمين شديد وعقوبته للمتمردين عظيمة. فيصغر نفسه عند نفسه باللوم لمعرفة قدرها ويتواضع لله بالعجز لمعرفة قدره خائفاً من عذابه راجياً لثوابه. كما قال تعالى يدعون ربهم خوفاً وطمعاً فيبدل الله سيئة كبرها بحسنة تواضعها، كما قال - ﷺ - «من تواضع لله رفعه الله»[١].

وكان من تواضع النبي - ﷺ - أنه يعلف البعير، ويقم البيت ويخصف النعل، ويرقع الثوب ويحلب الشاة، ويأكل مع الخادم ويطحن معه إذا أعيا وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله، وكان يصافح الغني والفقير ويسلم مبتدئاً ولا يحقر ما دعي إليه ولو إلى حشف التمر، وكان هين المؤنة، لين الخلق، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم، لم يتجشأ قط من شبع، ولا يمد يده إلى طمع، فمن استعمل هذه الخصال فقد تواضع لله بالكمال، وهو بريء من الكبر بكل حال. والله الموفق.

الفصل الرابع
في صفة الحرص وعلاجها بالقناعة

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ ﴾ [المعارج: ١٩] أي: حريصاً على المال شحيحاً به وقال رسول الله - ﷺ -: «وما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[٢].

اعلم أن الحرص أكبر آفة للسائرين إلى الله تعالى. وأعظم قاطع يقطع الطريق على الطالبين لله. لأن الحرص هو عين الطلب فإذا استعمل في مطلوب غير الله لا يمكن استعماله في الله لا سيما والحرص على مال الدنيا وجاهها، فإنه يستوعب كماله. كما قال النبي - ﷺ -: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا تبغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب»[٣] وقال المشايخ: آخر

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه عيسى، حديث رقم (٤٨٩٤) [ج ٥ ص ١٣٩]. ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه، كلام سلمان، حديث رقم (٣٤٦٦٣) [ج ٧ ص ١٢٠]. ورواه الشهاب في مسنده، باب من تواضع لله رفعه الله ومن تكبّر وضعه الله، حديث رقم (٣٣٥) [ج ١ ص ٢١٩].

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عما يجب على المرء في مجانبة الحرص....، حديث رقم (٣٢٢٨) [ج٨ ص ٢٤]. والترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب ٤٣، حديث رقم (٢٣٧٦). وأخرجه غيرهما.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٧٩٧٠) [ج ٨ ص ٢٤٧].

ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الجاه، وليس للإنسان صفة لا نهاية لها إلا الحرص؛ لأنه عين الطلب وهو من نتائج المحبة وهي صفة من صفات الله تعالى كرم الله بها الإنسان وخصه بها من بين سائر المخلوقات في سر ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] بقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه كرامة مخصوصة بالإنسان فالمحبة تنشىء الطلب وغاية الطلب الحرص، وكل صفة من صفات الإنسان متناهية إلا الحرص على طلب الله تعالى، فإنه يزداد إلى الأبد، فكما أن المطلوب وهو الله غير متناه، كذلك الطلب غير متناه، ولهذا لو انصرف وجه الحرص على الطلب إلى مطلوب غيره لا يزال يزداد الحرص عليه، كما قال ـ ﷺ ـ: «يهرم ابن آدم ويشب معه اثنان؛ الحرص والأمل»(١) وقال ـ ﷺ ـ: «قلب الشيخ شاب على حب اثنين؛ على جمع المال وطول الحياة»(٢) وعلى الحقيقة الحرص نار وحطبها مال الدنيا وجاهها، كلما ازداد حطبها ازدادت النار، ولا يطفئها إلا ماء القناعة. ولهذا قال ـ ﷺ ـ: «القناعة كنز لا يفنى»(٣) لأن نار الحرص لما كانت نافذة فما يطفئها ينبغي أن يكون غير نافذ، وبالحقيقة إن الحرص نار أوقدها الله تعالى فلا تنطفىء إلا بماء القناعة، قنع الله الحريص به؛ لأن القناعة ليست من طبيعة الإنسان وهي من مواهب الحق تعالى، وهي من أسباب الفلاح وبها ينجي الله الحريص في الدنيا من نار الحرص، وفي الآخرة من نار جهنم، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»(٤) «وإن الله جعل العز في القناعة والذل في الطمع» كما قيل: «عز من قنع وذل من طمع» والقانع من قنع بما رزقه الله تعالى يوماً بيوم من غير إسراف بنفس وحرص طلب ويقتصر منه على غذائه وعشائه وينفق ما فضل منه فيكون مستغنياً بغنى الله، كما قال ـ ﷺ ـ: «استغنوا بغنى الله. قالوا: وما هو. قال: غذاء يوم وعشاء ليلة»(٥) وقال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا، حديث رقم (١١٥ـ١٠٤٧) ولفظه: «يلد ابن آدم وتَشِبُّ معه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر» ورواه غيره.

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب كراهة الحرص على الدنيا حديث رقم (١١٤ـ١٠٤٦) بلفظ: «قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال». ورواه غيره.

(٣) لم يرد بهذا اللفظ إنما ورد بلفظ: «عليكم بالقناعة فإن القناعة مال لا ينفد». (الطبراني في المعجم الأوسط، رقم (٦٩٢٢) [ج ٧ ص ٨٤]. ورواه الشهاب في مسنده بلفظ: «القناعة مال لا ينفد» [ج ١ ص ٧٢ رقم ٧٣].

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، حديث رقم (١٢٥ـ ١٠٥٤).

(٥) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، حديث رقم (٧١٥٥) بلفظ ليستغن أحدكم بغنى الله غذاء =

«طوبى لمن كانت له قصعة يأكل منها كل يوم مرة» وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «طوبى لمن كان رزقه كفافاً»(١) وقال ـ ﷺ ـ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(٢) أي: ما يمسك رمقه وما نال من نال مقام الحرية إلا بالقناعة فالقانع هو الفقير الصابر على فقره والشاكر عن ربه في فقره، كما قال ـ ﷺ ـ: «كن قانعاً تكن أشكر الناس»(٣) وقيل في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] الحياة الطيبة في الدنيا: القناعة. وقيل: الفقراء أموات إلا من أحياه الله بعز القناعة.

وقال بشر الحافي: القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن.

وقال وهب: إن العز والغنى خرجا يجولان. فلقيا القناعة فاستقرا.

وقال النبي ـ ﷺ ـ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»(٤).

وفي الزبور: القانع غني وإن كان جائعاً.

قال إبراهيم المارستاني: انتقم من حرصك بالقناعة كما تنتقم من عدوك بالقصاص.

وقال ذو النون المصري: من قنع استراح من أهل زمانه واستطال على أقرانه.

وقيل في قوله: إن الأبرار لفي نعيم، يعني هو القناعة في الدنيا، وإن الفجار لفي جحيم هو الحرص في الدنيا.

وقيل لأبي يزيد: بم وصلت إلى ما وصلت؟ قال: فجمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة ووضعتها في منجنيق الصدق ورميتها في بحر اليأس فاسترحت. فمن لم يعالج مرض الحرص بالقناعة يتولد من حرصه داء الحسد وهو أدوى الأدواء.

= يومه وعشاء ليلته».

(١) هذا الحديث سبق تخريجه وورد بألفاظ أخرى.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة حديث رقم (١٢٦ـ ١٠٥٥) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ...، حديث رقم (٦٤٦٠).

(٣) لم يرد بهذا اللفظ إنما ورد بألفاظ قريبة منه.

(٤) رواه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة، باب ليس الغنى عن كثرة العرض، حديث رقم (١٢٠ـ ١٠٥١) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الغنى عن النفس، حديث رقم (٦٤٤٦) ورواه غيرهما.

الفصل الخامس
في صفة الحسد وعلاجها بالنصيحة والرحمة والشفقة

قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ [الفَلَق: ٥] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ثلاث هن أصل كل خطيئة فاتقوهن واحذروهن؛ إياكم والكبر، فإن إبليس حمله الكبر على ألا يسجد لآدم، إياكم والحرص فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة، وإياكم والحسد فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً»(١).

اعلم أن الحسد داء معضل ودواؤه مشكل لأن صاحبه يعارض الله فيما يحب ويكره. وذلك لأن الله أحب أن أنعم على عبده بنعمة من نعمه، وكره زوالها عنه. وما أحب أن تكون هذه النعمة للحاسد وكره أن تكون له. والحاسد أحب أن تكون النعمة له وتزول عن صاحبها، فقد أحب ما كره الله وكره ما أحب الله. وهذا داء مزيل للإيمان لأن صاحبه لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير وقد قال النبي ـ عليه السلام ـ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»(٢).

وقال بعضهم: إن الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد.

وفي بعض الكتب المنزلة: الحاسد عدو لنعمتي.

وقيل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعرَاف: ٣٣] قيل: ما بطن: الحسد.

وقيل: أثر الحسد يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك، ومنه قوله ـ ﷺ ـ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»(٣). يشير به إلى أن الحسد يشارك الشرك في إحباط الأعمال.

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (ج ٥٢ ص ٢٤). وأورده الألوسي في تفسيره روح البيان، سورة آل عمران عند تفسيره قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان...، حديث رقم (٧١ـ ٤٥) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ حديث رقم (١٣). ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحسد، حديث رقم (٤٩٠٣) ورواه ابن ماجه في سننه ورواه غيرهما. كتاب الزهد، باب الحسد، حديث رقم (٤٢١٠).

وفي بعض الآثار: إن في السماء الخامسة ملكاً يمر به عمل عبد له ضوء كضوء الشمس فيقول: قف فأنا ملك الحسد اضرب به وجه صاحبه فإنه حاسد.

وقيل: إذا أراد الله أن يسلط على عبد عدواً لا يرحمه سلط عليه حاسده وأنشدوا:

وحسبك من حادث بامرىء ... ترى حاسديه له راحمينا

وهذا المعنى يدل على أن دواء الحسد في استعمال الرحمة.

وقيل: رأى موسى - عليه السلام - رجلاً عند العرش فغبطه فقال: ما صفته فقيل: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كنا جلوساً عند رسول الله - ﷺ - فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار، ينظف لحيته من وضوء قد علق نعله في يده الشمال، فسلم، فلما كان من الغد قال النبي - ﷺ -: مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل مرته الأولى، فلما كان اليوم الثالث، قال النبي - ﷺ -: مثل مقالته الأولى أيضاً، فطلع الرجل مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، قال أرأيت أن تؤويني إليك حتى تنقضي الثلاث فعلت. قال: نعم قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال، قال: فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار من الليل وتقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر، غير أنه لا يقول إلا خيراً، قال: فلما مضت الثلاث ليال وكدت أحتقر عمله قلت: يا عبد الله إنه لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ثلاث مرات: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة» فطلعت أنت الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك، فلم أرك تعمل كثير عمل فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله - ﷺ -؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فانصرفت عنه. فلما وليت دعاني. فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشاً ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق»[1] وعن رسول الله - ﷺ -: «ثلاثة لا

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ما يقول إذا انتبه من منامه، حديث رقم (١٠٦٩٩) ورواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك، حديث رقم (١٢٧٠٣) طبعة دار الكتب العلمية، ورواه غيرهما.

يعجزهم ابن آدم؛ الطيرة، وسوء الظن، والحسد»[١] فينجيك من الطيرة أن لا تعمل بها وينجيك من سوء الظن أن لا تتكلم وينجيك من الحسد لا تبغي أخاك سوءاً، أي ترحم عليه وتشفق وتحب له ما تحب لنفسك وتصاحبه بالنصح، فإن علاج الحسد وإزالته عن القلب وتزكية النفس عنه باستعمال الرحمة والشفقة والنصيحة فإنه من دأب المؤمنين، كما قال رسول الله - ﷺ -: «مثل المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[٢]. وفي رواية أخرى قال: «المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى رأسه تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر»[٣]. وقال - ﷺ -: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»[٤]، ثم شبك بين أصابعه، وقال - ﷺ -: «الدين النصيحة والدين النصيحة والدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولنبيه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٥]. قال أبو سليمان الخطابي: النصيحة كلمة جامعة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير وليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناها غيرها. وأما نصيحة المسلمين فجماعها إرشادهم إلى مصالحهم من تعليم ما يجهلونه من أمر الدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم والترحم على صغيرهم.

وقال - ﷺ -: قال الله تعالى: (أحب ما تعبد به عبدي إلي: النصح لي)[٦] فمعالجة الحسد بالرحمة والشفقة والنصيحة للمحسود عليه من أهم المهمات حتى

---

(١) هذا الحديث لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين. . . ، حديث رقم (٦٦- ٢٥٨٦). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم حديث رقم (٦٠١١). ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة. . ، باب تراحم المؤمنين. . ، حديث رقم (٦٧- ٢٥٨٦) ورواه غيره.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر. . ، باب تراحم المؤمنين. . ، حديث رقم (٦٥- ٢٥٨٥). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره حديث رقم (٤٨١) ورواه غيرهما.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم (٩٥- ٥٥). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، حديث رقم (٩٥- ٥٥) ورواه غيرهما.

(٦) رواه أحمد في المسند عن أبي أمامة الباهلي، حديث رقم (٢٢٢٥٣) [ج ٥ ص ٣٠٠] ورواه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة الباهلي، حديث رقم (٧٨٣٣) [ج ٨ ص ٢٠٦].

يكون من المرحومين، فإن النبي - ﷺ - قال: «من لا يرحم لا يرحم»[١] وقال: «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء»[٢].

ولا يكون من الأشقياء بالحسد الذي هو نازع الرحمة عن قلب الحاسد. فإن النبي - ﷺ - يقول: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[٣] فمن شرط المؤمنين أن يكونوا عباداً لله إخواناً، كما قال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً»[٤].

ومن الحسد ما هو محمود، وهو الاغتباط في الخير. كما قال رسول الله - ﷺ -: «لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار»[٥] فيتمنى العبد مقامه ولا يحب أن يزول عنه، ويحب أن يعمل بعمله. والله أعلم.

الفصل السادس

في صفة الشهوة وعلاجها بالعفة والاجتناب عن الشهوات والجوع

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤] الآية.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان...، حديث رقم (٦٥-٢٣١٨). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم (٦٠١٣) ورواه غيرهما.

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين حديث رقم (١٩٢٤) ورواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة حديث رقم (٤٩٤١) ورواه غيرهما.

(٣) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرحمة، حديث رقم (٤٩٤٢) ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين حديث رقم (١٩٢٣) ورواه غيرهما.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظن...، حديث رقم (٢٥٦٣). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن﴾ حديث رقم (٦٠٦٦) ورواه غيرهما.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه...، حديث رقم (٨١٥) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ رجل آتاه الله القرآن...، حديث رقم (٧٥٢٩) ورواه غيرهما.

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «دعا الله جبريل فأرسله إلى الجنة، فقال: انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، قال: فحجبت بالمكاره، فقال له: ارجع فانظر إليها، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، ثم أرسله إلى النار، فقال: اذهب فانظر إليها وما أعددت لأهلها فيها فرجع إليه فقال: وعزتك لا يدخلها أحد يسمع بها، قال: فحجبت بالشهوات. ثم قال له: عد إليها فانظر، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها»[١].

اعلم أن الشهوة مادة كل فتنة ومنبع كل فساد. وهي بذر شجرة الحيوانية وثمرتها وهي حب حبائل الشيطان وهي الدركة السفلى من صفات البشرية فما تحتها دركة تكون دركة منزل الروح الإنساني من بدء عبوره من أعلى عليين القرب على العرش والأفلاك والأنجم والسمٰوات والأرضين، وعلى مفردات العناصر والمركبات والمعادن والنباتات والحيوانات إلى أن تعلق بالنطفة في الرحم فمر بها إلى أن بلغ المولود حد البلوغ فهو في العبور من دركات صفات القالب إلى دركة الشهوة وهي أسفل السافلين، فليس وراء عبّادان قريةٌ فيبقى فيها محبوساً مقيداً بقيود الحواس والقوى والأوصاف إلى أن تداركته العناية الأزلية بجذبه ﴿ٱرْجِعِىٓ﴾ [الفجر: ٢٨] في الباطن ودعوة الأنبياء وتكاليف الشرع في الظاهر فيرجع بالإيمان والعمل الصالح من أسفل سافلين دركة الشهوة متوجهاً إلى الحضرة بقدمي العفة وقلع مواد الشهوة بالجوع وترك الملاذ والشهوات وملازمة الذكر، فالجوع أحد أركان المجاهدة، وأن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل فوجدوا ينابيع الحكمة في الجوع.

وقال بعضهم: جعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الجوع. وجعل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه الشبع.

وفي الجوع اختصاص بالمشاهدة. روى عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: أوحى الله تعالى إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فقال: يا عيسى تجوع تراني. تجرد تصل إليّ[٢] وقال «يحيى بن معاذ»: لو كان الجوع يباع في السوق لما كان ينبغي لطلاب الآخرة

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب صفة الجنة. باب: ما جاء حفت الجنة بالمكاره...، حديث رقم (٢٥٦٠). ورواه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في خلق الجنة والنار، حديث رقم (٤٧٤٤) ورواه غيرهما.

(٢) أورده الألوسي في تفسيره، عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره.

وقال سهل بن عبد الله: لما خلق الله الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل وجعل في الجوع العلم والحكمة.

وقيل: من أدب الجوع أن لا ينقص من عادته كل يوم إلا مثل أذن السنور. وقد بالغ بعضهم في الجوع حتى كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوماً. فإذا دخل شهر رمضان لم يأكل حتى يرى الهلال وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح.

وروى عن أبي تراب النخشبي وغيره أنهم بالغوا في الإمساك عن الأكل من ثلاثين إلى أربعين يوماً. وأقل وأكثر.

قلت: هذا وإن كان مستحسناً عند القوم ولكنه ليس بمقصود أصلي ولعل يتولد من الإفراط فيه آفات مخلة بالمقصود الأصلي وإنما المقصود من التقليل كسر النفس وتقوية القلب وتبييضه. فإن الجوع يذيب شحم القلب ويقلل دمه فيبيض ويرق ويصفو فيستعد بصفائه لقبول نور الذكر وأنوار المعاملات الشرعية والواردات الغيبية ثم تنعكس الأنوار من مرآة القلب إلى أرض النفس. فأشرقت الأرض بنور ربها وتلاشت ظلمات صفات النفس وانشق صدف ظلمة الشهوة عن درة المحبة فإن الشهوة مطية المحبة وهي المطلوب من الإنسان وبها فاق على الملائكة المقربين وسجدوا له. فافهم جداً. فالإمساك المحمود عن الطعام ما يكون محمياً عن طرفي الإفراط والتفريط. كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١] فالمحمي من الإسراف نصف رطل إلى رطل كل يوم أو قريب من هذا، فيزيد وينقص منه كل طائفة على قدر قوتهم وصحة مزاجهم، وعلى هذا المعنى مبني أمر صومهم فمنهم من يسرد الصوم ومنهم من يصوم يوماً ويفطر يوماً وهو أفضل الصيام. قال - ﷺ -: «أفضل الصيام صوم أخي داود - عليه السلام - كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»(١) وهو اختيار النبي - ﷺ - يقول: «أجوع يوماً وأشبع يوماً»(٢) وهو لاستجماع الصبر والشكر. ومنهم من يصوم يوماً ويفطر يومين. ومنهم من يصوم يوم الإثنين ويوم الخميس وهو سنة النبي - ﷺ -. ومنهم من يصوم أيام البيض أو في كل شهر ثلاثة أيام.

---

(١) و(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر...، حديث رقم (١٩٦- ١١٦٢). ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب ما جاء في سرد الصوم، حديث رقم (٧٧٠) ورواه غيرهما.

وحكي عن الجنيد أنه كان يصوم على الدوام. فإذا دخل عليه إخوانه أفطر معهم يقول: ليس فضل المساعد مع الإخوان بأقل من فضل الصوم.

غير أن هذا الإفطار يحتاج إلى علم، فقد يكون الداعي إلى ذلك شره النفس لا نية الموافقة، وتخليص النية لمحض الموافقة مع وجود شره النفس صعب. ويستحب صيام رجب وشعبان إلى النصف وبعد النصف مكروه، وفي الحديث: «لا تستقبلوا رمضان بيوم ولا بيومين»(١). وقال ـ ﷺ ـ: «من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم»(٢) ويستحب صوم العشر من ذي الحجة والعشر من المحرم ويستحب الخميس والجمعة والسبت أن تصام من الأشهر الحرم وقد ورد في الخبر: «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام، الخميس والجمعة والسبت، بعد من النار سبعمائة عام»(٣).

الفصل السابع

في صفة الغضب وعلاجه بالحلم

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] وقال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤] قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(٤) وقال ـ ﷺ ـ: «إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»(٥).

اعلم أن الغضب صفة شيطانية، سبعية، نفسانية، فأما شيطانية: فكما قال ـ ﷺ ـ:

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين، حديث رقم (١٩١٤). ورواه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب الصيام، باب النهي عن استقبال شهر رمضان بصوم يوم أو يومين، حديث رقم (٧٩٤٢) ولفظه: «لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا أن يكون صوماً يصومه رجل فليصم ذلك الصوم» ورواه الطيالسي في مسنده، حديث رقم (٢٦٧١) [ج ١ ص ٣٤٨].

(٢) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ: «إذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا». ورواه الحاكم في المستدرك كتاب الصوم، حديث رقم (١٥٤٢) ج ١ ص ٥٨٥.

(٣) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، حديث رقم (١٥١٥). وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الصيام، الباب الثاني صوم النفل، محرم، حديث رقم (٢٤٢٣٢).

(٤) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم (٦١١٤) ورواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، حديث رقم (١٠٧ـ ٢٦٠٩). ورواه غيرهما.

(٥) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، حديث رقم (٤٧٨٤) ورواه أحمد في المسند عن عطية السعدي، حديث رقم (١٨٠٠٨) ورواه غيرهما.

«إن الغضب من الشيطان»[١] وأما سبعية: فظاهرة في الأسد والفهد والنمر وأنواع السباع. وأما النفسانية: فإنها خلقت من تراب وله غريزة فللنفس بحسب ذلك طبع وخلقت من صلصال ولها بحسب ذلك طبع وهكذا من حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار فبحسب تلك الأصول التي هي مبادىء تكونها استفادت صفات من البهيمية والسبعية والشيطانية، وإلى صفة الشيطنة في الإنسان إشارة لقوله تعالى: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمٰن: ١٤] لدخول النار في الفخار والشيطان خلق من نار، فنحن نحتاج في علاج الغضب إلى معجون مثلث. لتسكين ثائرة مواد الغضب وهو المثلث من الحلم، وكظم الغيظ والصبر على احتمال الأذى، معجون بماء الرفق، فبالحلم: ينطفىء من الغضب ما تولد من صفة الشيطنة، وبكظم الغيظ: يندفع ما تولد من الصفة السبعية، وبالصبر على احتمال الأذى: ينتفي ما تولد من صفة النفسانية، وبماء الرفق: تنقلع مواد الغضب كلها. كما قال - ﷺ -: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خيري الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خيري الدنيا والآخرة»[٢]. وقال - ﷺ -: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»[٣] وقال - ﷺ -: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شأنه»[٤] وقال: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»[٥].

ولما كان الغضب مبطل الحسنات ومنشيء السيئات. فلما جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال: يا نبي الله أوصني ولا تكثر عليّ لعلي أحفظ. فقال رسول الله - ﷺ -: «لا تغضب»[٦] فقد علم رسول الله - ﷺ - أن العبد إذا لم يغضب فلا بد له

---

(١) رواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، حديث رقم (٤٧٨٤) ورواه أحمد في المسند عن عطية السعدي، حديث رقم (١٨٠٠٨) ورواه غيرهما.

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرفق، حديث رقم (٢٠١٣) ورواه أحمد في المسند عن السيدة عائشة، حديث رقم (٢٥٣١٣) ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، حديث رقم (٧٧ـ ٢٥٩٣). ورواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرفق، حديث رقم (٤٨٠٧) ورواه غيرهما.

(٤) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، (٧٨ـ ٢٥٩٤) ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن الرفق مما يزين الأشياء وضده يشينها، حديث رقم (٥٥٠) ورواه غيرهما.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، حديث رقم (١٠ـ ٢١٦٥). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين...، باب إذا عرض الذمي وغيره بسب النبي ﷺ...، حديث رقم (٦٩٢٧) ورواه غيرهما.

(٦) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، حديث رقم (٦١١٦). ■

أن يحلم عن الجاني ويعفو عن المسيء ويحتمل عن الجافي ويتجاوز عن الخاطىء ويصبر على الأذى، وبهذا تحسن أخلاقه.

وقال النبي - ﷺ - لابن عبد القيس: «إن فيك خصلتان يحبهما الله تعالى؛ الحلم والأناة»(١) وقال النبي - ﷺ -: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(٢).

وكما أن الغضب مبطل الحسنات المعمولة، فحسن الخلق مثبت الحسنات الغير معمولة. كما قال النبي - ﷺ -: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة القائم الصائم»(٣).

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤] قال: الصبر عند الغضب، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا عصمهم الله تعالى وأخضع لهم عدوهم ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤﴾ [فصلت: ٤٣].

وإن الغضب لما كان من أعظم الأخلاق الذميمة. لا بد في علاجه من استعمال الأخلاق الحسنة.

وقد أوصى رسول الله - ﷺ - معاذاً بوصية جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له: «يا معاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام. وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح، وإياك أن تسب حكيماً أو تكذب صادقاً أو تطيع آثماً أو تعصي إماماً عادلاً أو تفسد أرضاً، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية». وقال رسول الله - ﷺ -: «ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الأدب والخلق وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة

- ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في كثرة الغضب حديث رقم (٢٠٢٠)، ورواه غيرهما بألفاظ متقاربة.

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان. . .، حديث رقم (٢٦ـ ١٨) ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر ما يستحب للإمام أن يعلم الوفد إذا وفد عليه شعب الإيمان، حديث رقم (٤٥٤١) [ج ١٠ ص ٤٠٥]، ورواه غيرهما.

(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة بلفظ إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق حديث رقم (٨٩٧٤) ورواه الشهاب في مسنده حديث رقم (١١٦٥) ج ٢ ص ١٩٢.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر رجاء نوال المرء بحسن الخلق درجة القائم. . .، حديث رقم (٤٨٠) [ج ٢ ص ٢٢٨]. ورواه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق باب ما جاء في حسن الخلق ورواه غيرهما.

الصوم والصلاة»[١].

الفصل الثامن
في صفة البخل وعلاجه بالسخاء

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] وقال رسول الله - ﷺ -: «السخي قريب من الله قريب من الناس بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله من العابد البخيل»[٢]. وقال رسول الله - ﷺ -: «في الجنة شجرة تسمى السخاء منها يخرج السخاء وفي النار شجرة تسمى الشح منها يخرج الشح ولن يلج الجنة شحيح»[٣].

اعلم أن البخل من دركات جهنم ولا يخرج البخيل منها إلا بقدم السخاء والبخيل من لم يؤد حق الله من ماله بلسان العلم، والبخل بلسان الطريقة من لم يؤد الدنيا بأسرها في طلب الآخرة، والبخيل بلسان الحقيقة من لم يبذل الدارين وروحه في طلب الله تعالى، والسخاء عند القوم هو المرتبة الأولى ثم الجود ثم الإيثار. فمن أعطى البعض فهو صاحب سخاء ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود ومن بذل الكل فهو صاحب إيثار وقد يوصف الحق تعالى بالجود ولا يوصف بالسخاء والإيثار.

وقيل: لما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة أمر بضرب أعناقهم، فأما الجنيد فإنه قد تستر بالفقه وكان يفتي على مذهب أبي ثور، وأما الشحام والرقام والنوري وجماعة فقبض عليهم فبسط النطع لضرب أعناقهم. فتقدم النوري، فقال السياف: تدري إلى ماذا تبادر. فقال: نعم. فقال: وما يعجلك. فقال: أوثر على أصحابي بحياة ساعة. فتحير السياف، وأنهى الخبر إلى الخليفة فردهم إلى القاضي ليتعرف حالهم فألقى القاضي على «أبي الحسين النوري» مسائل فقهية فأجابه عن

---

(١) رواه أحمد في المسند عن أبي الدرداء بلفظ: «أثقل شيء في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن». حديث رقم (٢٧٦٢٣). وأورده المتقي الهندي في كنز العمال، حديث رقم (٥١٧٢) و(٥١٨٢).

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في السخاء حديث رقم (١٩٦١). أخرجه العقيلي في الضعفاء عن أبي هريرة من حديث سعيد بن محمد الوراق رق (٥٩١) ج ٢ ص ١١٧. وأخرجه المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الزكاة، الباب الثاني في السخاء والصدقة، حديث رقم (١٥٩٢٤) وأخرجه غيرهما.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ وإنما ورد بلفظ: «في الجنة بيت يقال له بيت السخاء». (المعجم الأوسط للطبراني حديث رقم (٥٧٤٢) [ج ٦ ص ٤٣].

الكل. ثم أخذ يقول: وبعد فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله وإذا نطقوا نطقوا من الله وسرد ألفاظاً أبكى القاضي فأقبل القاضي إلى الخليفة وقال: إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم فخلى سبيلهم. وقيل: بعث رجل إلى جبلة بجارية وكان بين أصحابه فقال: قبيح أن أتخذها لنفسي وأنتم حضور وأكره أن أخص بها واحداً وكلكم له حق وحرمة. وهذه لا تحتمل القسمة وكانوا ثمانين. فأمر لكل واحد بجارية أو وصيف.

وقيل: عطش عبد الله بن أبي بكرة يوماً في طريقه فاستسقى من منزل امرأة فأخرجت كوزاً وقامت بخلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب وليأخذ بعض غلمانكم فإني امرأة من العرب مات خادمي منذ أيام، فشرب عبد الله الماء وقال لغلامه: احمل إليها عشرة آلاف درهم، فقالت: سبحان الله تسخر بي. فقال: احمل إليها عشرين ألفاً فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألف درهم. فردت الباب وقالت: أف لك، فحمل إليها ثلاثين ألف درهم، فما أمست حتى كثر خطابها.

وقيل: دخل أبو عبيد الله الروزباري إلى دار بعض أصحابه فوجده غائباً وباب بيت له مقفل، فقال: صوفي وله باب بيت مقفل اكسروا القفل فكسروا وأمر بجميع ما وجد في البيت وأنفذه إلى السوق وباعوه وأصلحوا وقتاً من الثمن وقعدوا في الدار فدخل صاحب الدار ولم يمكنه أن يقول شيئاً، فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء فدخلت ورمت بالكساء وقالت: يا أصحابنا هذه أيضاً من جملة المتاع فبيعوها، فقال الزوج: لم تكلفت هذا باختيارك، فقالت: اسكت مثل الشيخ يباسطنا ويحكم علينا ويبقى لنا شيء ندخره عنه.

وقيل: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فترك على نخيل قوم وفيها غلام أسود يعمل فيها إذ أتى الغلام بقوته ودخل كلب الحائط ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني فأكله والثالث فأكله وعبد الله ينظر فقال: يا غلام كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت، قال: فلم آثرت هذا الكلب. قال: ما هي بأرض كلاب، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت رده، قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي يومي هذا، قال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء إن هذا أسخى مني، فاشترى الحائط والغلام وما فيها من الأثاث فأعتق الغلام ووهبها منه.

وكان من دأب من يعالج البخل بالسخاء أن لو أغلق عليه يوماً باب المعالجة لكان يبكي كالثكلى.

قيل: بكى أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ يوماً، فقيل له: ما يبكيك؟

فقال: لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني.

ثم اعلم أن دواء البخل من أهم المهمات وهو من المهلكات لا سيما قال النبي - ﷺ -: «أي داء أدوى من البخل»[1] وقال - ﷺ -: «لا يكون المؤمن بخيلاً»[2].

الفصل التاسع

في صفة الحقد وعلاجه بالعفو وسلامة القلب

قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝﴾ [الأعراف: ١٩٩] وعن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية قال النبي - ﷺ -: «يا جبريل ما تأويل هذه الآية قال: حتى أسأل، فصعد ثم نزل، فقال يا محمد: إن الله تعالى يأمرك أن تصفح عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك، فقال النبي - ﷺ -: «ألا أدلكم على أشرف أخلاق أهل الدنيا والآخرة». قلنا: وما ذاك يا رسول الله، قال: «تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك»[3].

اعلم أن الحقد من أخس أخلاق النفس وأن علاجه من أشرف أخلاق القلب وهو العفو بل هو خلق من أخلاق الحق تعالى، كما قال - ﷺ -: «إن الله عفو يحب العفو»[4].

والحقد من أخلاق إبليس فإنه لما أمر بالسجود لآدم - عليه السلام - فلم يسجد له فلعن وطرد فاحتقد من آدم وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] فالحاقد متخلق بأخلاق إبليس والعفو متخلق بأخلاق الحق تعالى، فشتان بين الخلقين. والحاقد المتشاحن متروك من رحمة الله تعالى، كما قال رسول الله - ﷺ -: «تفتح

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب البخل، حديث رقم (٢٩٦) [ج ١ ص ١١١]. والطبراني في المعجم الأوسط عن معاذ بن جبل باب من اسمه مقدام حديث رقم (٨٩١٣) [ج ٨ ص ٣٧٣]. ورواه الحاكم في المستدرك، ذكر مناقب بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه حديث رقم (٤٩٦٥) [ج ٣ ص ٢٤٢].

(٢) لم أجده بهذا اللفظ إنما رواه مالك في الموطأ بلفظ: عَنْ صَفْوَانَ بْنِ سُلَيْم، أنه قال: قيل لرسول الله: أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: «لا». (الموطأ، باب ما جاء في الصدق والكذب).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب البر والصلة، حديث رقم (٧٢٨٥)، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب شهادة أهل العصبية، حديث رقم (٢٠٨٨٠) ورواه غيرهما.

(٤) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الحدود، حديث رقم (٨١٥٥). ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب ما جاء في الستر على أهل الحدود، حديث رقم (١٧٣٩٠). ورواه عبد الرزاق في مصنفه، باب ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، حديث رقم (١٣٥١٩).

أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر الله لكل عبد مؤمن لا يشرك بالله شيئاً إلا رجل كان بينه، بين أخيه شحناء، فقال: اتركوا وانظروا هذين حتى يفيئا. أو انظروا هذين حتى يصطلحا».

وقال أنس، قال رسول الله - ﷺ -: «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال: يا بني وذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنة»(١).

ثم اعلم أن الحقد قيد على أقدام السائرين إلى الله، فلا يمكنهم السير إلا برفع القيد، ولا يمكن رفع القيد إلا بتصفية القلب، والركن الأعظم في معنى تزكية النفس وتصفية القلب وتحلية الروح ملازمة الذكر ودوامه. كما يجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى وحده، ثم لا ينظر إلى هذه الصفات الذميمة بعين الحقارة، فإن كل صفة من هذه الصفات الذميمة الحيوانية صدف درة من الصفات الحميدة الروحانية، وهو أن الكبر صدف درة علو الهمة، والحرص صدف درة الطلب، والحسد صدف درة الغبطة، والشهوة صدف درة المحبة، والغضب صدف درة الصلابة، والبخل صدف درة الإمساك عن تعاطي المهلكات، والحقد صدف درة الانتقام، ثم هذه الصفات الروحانيات أصداف درر الصفات الربانيات، فعلو الهمة صدف درة الكبرياء والعظمة، والطلب صدف درة الإرادة والمشيئة، والغبطة صدف درة الغيرة، والمحبة صدف درة الرحمة، والكرم والصلابة صدف درة القهر والمهابة، والإمساك صدف درة القبض، والانتقام صدف درة العدل والنصفة.

وكذلك جميع الصفات النفسانية الروحانيات، كلها أصداف درر الصفات الربانيات، وليس لله صفة إلا ومرآة استعداد الإنسانية قابلة لعكسها بالخلافة وهو أحد أسرار قوله - ﷺ -: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»(٢) أي على صورة صفاته ولما لم تكن هذه الصفات مجموعة في الملائكة لم يستحقوا الخلافة وهو أحد معاني قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البَقَرَة: ٣١] وهي أسماء صفات الله تعالى، علمه بالتجلي فيه.

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٨). ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، حديث رقم (٥٩٩١) ج ٦ ص ١٢٣.

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن ضرب الوجه، حديث رقم (١١٥-٢٦١٢). ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الزجر عن ضرب المسلم المسلم على وجهه، حديث رقم (٥٦٠٤). ورواه غيرهما.

وقال أبو القاسم الجرجاني: إن الأسماء التسعة والتسعين تصير أوصافاً للعبد السالك وهو بعد في السلوك غير واصل. لعل «الجرجاني» أراد أن السائر في الصفات لم يكن واصلاً حتى يكون سائراً في الذات. وهو السير في الله بجذبات الألوهية عند فناء البشرية، واضمحلال الروحانية.

ثم اعلم أن الأصل في تزكية النفس ترقيها من مقاماتها ولها أربع مقامات: مقام الأمارية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: ٥٣] ومقام اللوامية، قوله تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝﴾ [القِيَامَة: ٢] ومقام الملهمية: قوله تعالى: ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾. ومقام المطمئنة، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ وأن ترقى النفس من مقاماتها على حسب مراتب التوبة، كما سنبينه إن شاء الله وحده.

الفصل العاشر

في مراتب التوبة على حسب مقامات النفس

وهي أربع مراتب:

المرتبة الأولى: وهي النفس الأمارة. قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[1] وهذه مرتبة عوام المؤمنين وهي بترك المنهيات والقيام بالمأمورات وقضاء الفوائت ورد الحقوق والاستحلال عن المظالم والندم على ما جرى والعزم على أن لا يعود إلى ما منه انتهى وهذه توبة عن الأفعال والأقوال.

المرتبة الثانية: الإنابة. وهي النفس اللوامة. قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزُّمَر: ٥٤] وهذه مرتبة خواص المؤمنين من الأولياء. والإنابة إلى الله بترك الدنيا والزهد في ملاذها وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس بمخالفة هواها والمداومة على جهادها فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]، يشير به إلى أن التوبة وتطهير النفس عن دنس الأوصاف الذميمة من نتائج محبة الله الأزلية بقوله ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ [المَائدة: ٥٤] وهذا كما قال رجل لرابعة: إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي، فلو تبت يتوب عليّ؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لتبت، وذلك لأن العصيان من صفة الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١].

---

(١) رواه ابن ماجه، في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، حديث رقم (٤٢٥٠) ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب شهادة القاذف، حديث رقم (٢٠٣٤٨) ورواه غيرهما.

والتوبة من صفة الحق تعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، وسئل أبو حفص عن التوبة، فقال: ليس للعبد في التوبة شيء لأن التوبة إليه لا منه، كما أن الله تعالى نسب العصيان إلى آدم فقال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ [طه: ١٢١] نسب التوبة إلى نفسه تعالى فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢] وقيل: أوحى الله تعالى إلى آدم: يا آدم، ورثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة من دعاني منهم بدعوتك لبيته كما لبيتك. يا آدم أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب. فالنفس إذا تجلت بالإنابة دخلت في مقام القلب واتصفت بصفته، لأن الإنابة من صفة القلب. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

المرتبة الثالثة: الأوبة. وهي النفس الملهمة. قال الله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] وهذه مرتبة خواص الأولياء، والأوبة إلى الله من آثار الشوق إلى لقائه فمن تاب خوفاً من عقابه فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعاً في ثوابه فهو صاحب إنابة ومن تاب شوقاً إلى لقائه فهو صاحب أوبة، فالنفس إذا تحلت بالأوبة دخلت في مقام الروح، وهو مقام العبودية الملكية كقوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ [الفجر: ٢٩] ومن أمارات الأواب المشتاق أن يستبدل المخالطة بالعزلة ومنادمة الإخوان بالخلوة، واستوحش عن الخلق واستأنس بالحق وجاهد نفسه في الله حق جهاده، ساعياً في قطع تعلقاتها عن الكونين كما قال أبو يزيد: كنت ثنتي عشرة سنة حداد نفسي وخمس سنين كنت مرآة قلبي وسنة أنظر فيما بينهما، فإذا في وسطي زنار، فعملت في قطعه ثنتي عشر سنة، ثم نظرت فإذا في باطني زنار فعملت في قطعه خمس سنين، أنظر كيف أقطع، فكشف لي فنظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى فكبرت عليهم أربع تكبيرات.

والمرتبة الرابعة: الرجوع. وهي للنفس المطمئنة. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ وهذه مرتبة أخص الأولياء والأنبياء وقوله ارجعي إلى ربك صورة جذبة العناية الربوبية إلى نفوس الأنبياء والأولياء تجذبها أنانيتها إلى هوية ربوبية راضية، أي طائعة تلك النفوس شوقاً إلى لقاء ربها مرضية، أي على طريقة مرضية في السير لربها، كما قال تعالى للسماء والأرض ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] بخلاف نزع نفوس الكفار بجذبة القهر وهي كارهة غير راضية على طريقة مكروهة من الكفر والفسق والجحود غير مرضية لربها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله

لقاءه»[١] فمن تاب مجذوباً فهو صاحب رجوع بالجذبة، فالنفس إذا تحلت بحلية الجذبة في صورة الرجوع، أدخلت في مقامات الروحانيات، بقوله: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾ [الفَجر: ٢٩] ثم أخرجت عنها بالعبور عليها مجذوبة عن أنانيتها، ثم أدخلت في جنة هويته المخصوصة المضافة إليه بقوله: ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفَجر: ٣٠] دخولاً خالداً أبداً لا خروج منها أبداً.

ثم اعلم أن التوبة تدور مع السائر إلى الله حيث يدور السائر من أول منزل من منازل الرجوع إلى ربه في جميع المنازل والمقامات على حسب كل مقام بمعنى مناسب لذلك المقام. كما شرحنا إلى أبد الآباد. لا بد له منها كل ساعة ولحظة، كما قال - ﷺ -: «توبوا إلى الله فإني أتوب إليه في كل يوم مائة مرة»[٢] وقال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[٣]، وقال تعالى لنبيه - ﷺ -: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النّصر: ٣].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء...، باب من أحب لقاء الله...، حديث رقم (١٤- ٢٦٨٣). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله...، حديث رقم (٦٥٠٧). ورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر...، باب استحباب الاستغفار...، حديث رقم (٤٢- ٢٧٠٢) ورواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب كم يتوب في اليوم، حديث رقم (١٠٢٦٥).

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر...، باب استحباب الاستغفار...، حديث رقم (٤١- ٢٧٠٢) بلفظ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة». ورواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، حديث رقم (١٥١٥) ورواه غيرهما.

الباب التاسع
في معرفة القلب ومقاماته في التصفية

وفيه فصلان.

الفصل الأول
في معرفة القلب

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[1]. وقال ـ ﷺ ـ: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء»[2] وفي رواية أخرى: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمٰن فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»[3].

اعلم أن للقلب صورة وهي التي أثبت النبي ـ ﷺ ـ لجميع أولاد آدم بقوله: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد» الحديث. وله روحاً وهو الذي أثبت الله تعالى لبعضهم دون بعض بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧] وقد سمى الله تعالى من لم يكن له روح القلب ميتاً بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فأما

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، حديث رقم (١٠٧-١٥٩٩). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم (٥٢) ورواه غيرهما.

(٢) رواه الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن حديث رقم (٢١٤٠).

(٣) رواه الترمذي، كتاب الدعوات، باب (٩٠) حديث رقم (٣٥٢٢) ورواه أبو يعلى في مسنده، حديث رقم (٦٩١٩) [ج ١٢ ص ٣٥٠] ورواه غيرهما.

منشأ صورة القلب التي هي المضغة فهي الذرة التي استخرجها الله من ظهر آدم يوم الميثاق. وأما منشأ روحه الذي هو حي به، فهو الذي استفادت الذرة عند استماع خطاب ألست بربكم من الفيض الإلهي، فكما أن تلك الذرة المستخرجة صارت بذر شجرة القالب وثمرة القلب، كذلك صار ذلك الفيض المستفاد من الفيض الإلهي بذر شجرة روح القلب وثمرة روح روحه وهو الذي أخبر الله عنه بقوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وهو الإيمان الفطري عند خطاب ألست بربكم كتبه بقلم توفيق الإقرار بربوبيته إذ قالوا: بلى وأيدهم بروح منه وهو ثمرة شجرة الإيمان الكسبي، إذا آمنوا وعملوا الصالحات فلما أبدت شجرة روح القلب فأثمرت بروح منه استعدت للتوصيل من الشجرة الطيبة التي هي الكلمة الطيبة وهي كلمة لا إله إلا الله، فتثمر ثمرة الوحدة، كما أثمرت لقائل: «سبحاني ما أعظم شاني». وهذا تحقيق قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝﴾، يعني يوم الرجوع إلى الحضرة لا ينفعه للوصول إلى الحضرة المال الذي هو المكتسب من أفعاله ولا البنون الذين هم مكتسبون من ذاته إلا أن يأتي إلى الله بقلب مستفيض سليم من آفات تعلق الكونين، ذي سلامة من انحراف المزاج القابل للفيض الإلهي بلا واسطة، وإنما سمي القلب قلباً لأنه سريع التقلب بتقليب مقلب القلوب كما قال ـ ﷺ ـ: «إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء»[1] ولأنه خلق في قلب عالم الغيب والشهادة، وهما الروح والجسد، وقد يتولد القلب من ازدواجهما، فصورته متصلة بالجسد وروحه متصله بالروح، وقد عبر ـ ﷺ ـ عن عالم الغيب والشهادة بالإصبعين لأنهما صورتا صفتي لطف الله تعالى وقهره قوله: «فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»[2] فإن شاء أقامه باستيلاء صفات الروحانية عليه إقامة متوجهة إلى حضرة العزة، وإن شاء أزاغه، أي بغلبات صفات الحيوانية عليه أزاغه معرضاً عن الحق متوجهاً إلى الدنيا وشهواتها واستيفاء لذاتها وطلب جاهها فإن من سننه تعالى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فلا يزيغ القلب إلا بعد أن يزيغ العبد أعماله الجسدانية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] أي زاغوا بإيذاء رسول الله أزاغ الله قلوبهم عن الإيمان، فكذلك إقامة القلوب إنما يكون بإقامة شرائط العبودية في تصفية

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

القلب وتنقيته، وتربيته في الترقي إلى مقامات مخصوصة به كما سيجيء شرحه إن شاء الله وحده.

الفصل الثاني
في مقامات القلب

اعلم أن للقلب أوصافاً، خلقه الله تعالى عليها بالقوة ومقاماته سيره في أطواره المختلفة على قانون. استخراج تلك الأوصاف من القوة إلى الفعل وله صحة ومرض، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البَقَرَة: ١٠] فمرضه بانحراف مزاجه عن تلك الأوصاف الجبلية واعتلاله بعوارض الأوصاف النفسانية العارضة له عنه وسلامته عن آفاتها وخصائصها واستقامته على أوصافها التي هو مجبول عليها بعد استخراجها من القوة إلى الفعل بالسير والعبور على مقاماته، فنحن نذكر في هذا الفصل مقاماته المختصة به وطريق العبور عليها على سبيل الإيجاز والاختصار إن شاء الله تعالى على الترتيب، فاعلم أن أول مقام القلب الذي هو صفته المجبولة عليه:

فصل في الزهد

وهو عدم الالتفات إلى الدنيا بحذافيرها مالها وجاهها وشهواتها وزينتها وزخارفها. رغبة في الآخرة ونعيمها الباقية. كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القَصَص: ٨٣] وهذا أول مرتبته في الزهد التي جبل عليها وهذا النوع من الزهد كالبذر في أرض القلب.

فبالتربية بماء الشريعة وآداب دهقنة[١] الطريقة تنبت منه شجرة الزهد فيما يشغله عن الله، وتثمر ثمرة الزهد فيما سوى الله، فالزهد رأس مال السائرين إلى الله تعالى ولهم في كل مقام ربح منه إلى ما لا نهاية له، كما قال ذو النون: من علامة الزهد المشروح صدره ثلاث: تفريق المجموع، وترك طلب المقصود، والإيثار عند القوت. قلت: وصحة الزهد بالورع، والتوكل، والتقوى، والصدق.

فصل في الورع

اعلم أن الورع: ترك الشبهات، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من حسن إسلام المرء

---

(١) التَّدَهْقُن: التَّكَيُّس. والدِّهقان والدُّهقان: التاجر، فارسي معرَّب، وهم الدَّهاقنة والدَّهاقين. والدِّهقان والدُّهْقان: القوي على التصرف مع جدَّة، والأنثى دهقانة، والاسم الدَّهقنة. (لسان اللسان، تهذيب لسان العرب، مادة [دهقن]).

تركه ما لا يعنيه»[١] أي ترك الفضلات. وقال ـ ﷺ ـ لأبي هريرة: «كن ورعاً تكن أعبد الناس»[٢] قال أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام.

قلت: المتورع من يتورع في الطعام والشراب واللباس والمنطق والنظر والخواطر والأفعال الظاهرة والأحوال الباطنة، حتى لا يتحرك في الظاهر إلا لله ولا يقصد في الباطن إلا الله، ويتورع عما سوى الله.

قال يحيى بن معاذ: من لم ينظر في دقيق من الورع، لم يصل إلى الجليل من العطاء.

وقال الحسن: «مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة» وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ لم يتقرب إليّ المتقربون بمثل الورع.

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: جلساء الله غداً أهل الورع والزهد.

وقيل: حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم فقبض على مشامه وقال: إنما ينتفع من هذا بريحه وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين.

وقال كهمس: «أذنبت ذنباً أبكي عليه من أربعين سنة وذلك أنه زارني أخ واشتريت بدانق سمكة مشوية، فلما فرغ أخذت قطعة طين من جدار جار لي حتى غسل يده ولم استحله».

وكان رجل يكتب رقعة في بيت بكراء فأراد أن يترب الكتاب من جدار البيت فخطر بباله أن البيت بالكراء، ثم خطر بباله أنه لا خطر لهذا التراب، فترب الكتاب من جدار البيت، فسمع هاتفاً يقول: سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه من طول الحساب.

فصل في التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلَاق: ٣] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المَائدة: ٢٣] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أريت الأمم بالموسم، فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل، فأعجبني كثرتهم وهيأتهم، فقيل لي:

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الزهد، باب (١١)، حديث رقم (٢٣١٧)، ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم (٣٩٧٦) ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، حديث رقم (٤٢١٧) ورواه أبو يعلى في مسنده، عن أبي هريرة، حديث رقم (٥٨٦٥) ورواه غيرهما.

أرضيت؟ قلت: نعم، قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً فيدخلون الجنة بغير حساب لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة بن محصن الأسدي، فقال: يا رسول الله ادع الله لي أن يجعلني منهم، فقال رسول الله - ﷺ -: «اللهم اجعله منهم» فقام آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال النبي - ﷺ -: «سبقك بها عكاشة»[(١)].

اعلم أن التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلاً في أمور دينه ودنياه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: ٣] وينخلع عن تصرفاته بالطبع كما أمره الله تعالى بقوله: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المُزمّل: ٩] ثم يكون راضياً بما قسم الله له في الأزل مستسلماً لما يجري الله عليه إلى الأبد، فتوكل العوام باتخاذ الله وكيلاً في رعاية مصالح دنياهم وأخراهم وتوكل الخواص بالتسليم لله فيما أحبوا وكرهوا، لقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦] . وتوكل أخص الخواص، بالتفويض إلى الله مفدياً بوجوده لموجده، متبرئاً إلى الله تعالى من النظر إلى صلاح حاله أو فساد مآله، لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله منه في إيجاده بحكمته.

وكلت إلى المحبوب أمري كله ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

كما قيل: قال سهل بن عبد الله: «أول المقامات أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف أراد ولا يكون له حركة ولا تدبير»، وقال أيضاً: «العلم كله باب من التعبد والتعبد كله باب من الورع والورع كله باب من الزهد والزهد باب من التوكل».

وقال حمدون القصار: «التوكل هو الاعتصام بالله ثم اعلم أن كمال التوكل الرضا بما قسم الله له».

فصل في الرضا

قال الله تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ وقال رسول الله - ﷺ -: «وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس»[(٢)].

---

(١) رواه أحمد في المسند، آخر أحاديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حديث رقم (٣٨١٩) [ج ١ ص ٤٠٣].

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم. . .، حديث رقم (٢٣٠٥). ورواه أبو يعلى في مسنده عن أبي هريرة، حديث رقم (٦٢٤٠) [ج ص ١١٣]. ورواه غيرهما.

اعلم أن الرضا عن الله ليس من شأن الإنسان، لأن الإنسان ظلوم كفار وإنما رضاه عن الله تعالى من نتائج رضا الله عنه. مهما رضى الله عن العبد يوفقه للرضا عنه. ولهذا المعنى اختلف المشايخ في أن الرضا من المقامات أو من الأحوال، فقال بعضهم: الرضا من الأحوال لأنه من مواهب الله تعالى والمقامات من المكاسب والأحوال من المواهب. وقال بعضهم: الرضا من المقامات وهو نهاية التوكل، يتوصل إليه العبد بالاكتساب ويحتمل الجمع بين القولين، بأن يقول: بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات لقوله ـ ﷺ ـ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً»[1]. وقال: «إن الله بحكمته تعالى جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[2] ونهايته من جملة الأحوال، ليست بمكتسبة، قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بينا أهل الجنة في مجلس لهم إذ سطع لهم نور على باب الجنة فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب تعالى قد أشرف، فقال: يا أهل الجنة سلوني فقالوا: نسألك الرضا عنا، فقال: رضاي أحلكم داري وأنا أحل لكم كرامتي هذا أوانها، فسلوني قالوا: نسألك الزيادة قال: فيؤتون بسحائب من ياقوت أحمر إذ منها زمرد أخضر وياقوت أحمر فجاءوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها، فيأمر الله بأشجار عليها الثمار وتجيء جوار من الحور العين وهن يقلن نحن الناعمات فلا نبوس ونحن الخالدات فلا نموت، أزواج قوم مؤمنين كرام. ويأمر الله عز وجل بكثبان من مسك أبيض أذفر، فيثير عليهم ريحاً يقال له المثيرة حتى ينتهي بهم إلى جنة عدن وهي قصبة الجنة، فتقول الملائكة: يا ربنا قد جاء القوم، فيقول الله تعالى: مرحباً بالصادقين مرحباً بالطائعين، قال: فيكشف عنهم الحجاب، فينظرون إلى الله عز وجل، فيتمتعون بنور الرحمٰن حتى لا يبصر بعضهم بعضاً، ثم يقول: ارجعوهم إلى القصور بالتحف، قال: فيرجعون وقد أبصر بعضهم بعضاً. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «فذلك قوله تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝﴾ [فُصِّلَت: ٣٢]»[3]. وقال المشايخ: الرضا باب الله الأعظم يعني من أكرم بالرضا فقد لقي بالترحيب الأوفى وأكرم بالتقريب الأعلى.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر إثبات طعم الإيمان. . .، حديث رقم (١٦٩٤) [ج٤ ص ٥٩٢]. ورواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب (١٠) حديث رقم (٢٦٢٣).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (١٠٥١٤) [ج ١٠ ص ٢١٥].

(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب، حديث رقم (٥٧٤٦) [ج ٤ ص ٣٢٥] والسيوطي في الدر المنثور عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾.

قال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا.

وقيل قال موسى ـ عليه السلام ـ: إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني؟ فقال: إنك لا تطيق ذلك. فخر موسى ـ عليه السلام ـ ساجداً متضرعاً. فأوحى الله تعالى إليه: يابن عمران إن رضاي في رضاك بقضائي.

وقال النصراباذي: من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله رضاه فيه.

وقيل ليحيى بن معاذ: متى يبلغ العبد مقام الرضا. قال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به، يقول: إن أعطيتني قبلت وإن منعتني رضيت وإن تركتني عبدت وإن دعوتني أجبت.

وقال الجنيد: الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب، فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا. وليس الرضا والمحبة كالخوف والرجاء فإنهما حالان لا يفارقان العبد في الدنيا والآخرة. لأنه في الجنة لا يستغنى عن الرضا والمحبة.

وقال ابن عطاء: «الرضا: سكون القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد. إنه اختار له الأفضل فيرضى له وهو ترك السخط».

وقال السري: «خمس من أخلاق المقربين: الرضا عن الله تعالى فيما تحب النفس وتكره والحب له بالتحبب من الله إليه والحياء من الله والأنس به والوحشة مما سواه»..

وقال ابن شمعون: الرضا بالحق والرضا عنه والرضا له والرضا به مدبراً ومختاراً والرضا عنه قاسماً ومعطياً والرضا له إلهاً ورباً.

وقال سفيان عند رابعة: «اللهم ارض عنا، فقالت: أما تستحي أن تطلب رضا من لست منه براض.

وقال سهل: إذا اتصل بالرضوان اتصلت الطمأنينة فطوبى لهم وحسن مآب.

وسئلت رابعة: متى يكون العبد راضياً. فقالت: إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة.

وقيل: قال الشبلي بين يدي الجنيد: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال الجنيد: قولك هذا ضيق صدر وضيق الصدر بترك الرضا بالقضاء.

فما قاله الجنيد تنبيه منه على أصل الرضا وذلك أن الرضا يحصل بانشراح الصدر وانفساحه وانشراح القلب من نور اليقين. قال الله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢] فإذا تمكن النور من الباطن اتسع الصدر وانفتح عين البصيرة وعاين حسن تدبير الله تعالى، فينتزع التضجر، لأن انشراح

الصدر يتضمن حلاوة الحب وفعل المحبوب بموقع الرضا عند المحب الصادق، لأن المحب يرى أن الفعل من المحبوب مراده واختياره، فيفنى في لذة رؤية اختيار المحبوب عن اختيار نفسه. كما قيل: وكل ما يفعل المحبوب محبوب.

فالرضا على ثلاثة أقسام: رضا العوام بما قسم الله لهم من الأرزاق. ورضا الخواص بما قضى الله لهم وعليهم بالوفاق، ورضا الأخص بالمولى من غير النفاق، وبالرضا يوجد برد اليقين.

فصل في اليقين

اعلم أن اليقين نور قذفه الله تعالى في قلوب المؤمنين والأولياء والأنبياء - عليهم السلام - بحسب مقاماتهم في المعرفة وذلك أن الله تعالى إذا اطلع على قلوب عباده المخصوصين بالعناية اطلاع الكرم عند توجههم إلى الحضرة بالصدق وتولههم بالشوق راجعين بقطع التعلقات سطعت أنوار الغيب فيملأ القلوب المصفاة شروق الأنوار التي بها كشوف الأسرار فكل قلب يرى بإراءة الحق تعالى إياه ما يراه بنور اليقين حقيقة غير مشوبة بالريب. ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ١١] وكما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: ٧٥] ولليقين زيادة ونقصان وضعف وقوة، يزيد بقدر تصفية القلب عن كدورات صفات النفس وتطهيره عن تلونات الأخلاق الذميمة، وتنوره بنور الذكر وإشراق أنوار تطلع المذكور والذاكر، فبدايته: علم اليقين بكشف الأسرار، ووسطه: عين اليقين بشواهد الآثار. ونهايته: حق اليقين بتتابع الأنوار.

قيل لرسول الله - ﷺ -: «إن عيسى ابن مريم - عليه السلام - كان يمشي على الماء قال: «لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء»[(١)].

ونقصانه بقدر تدنس القلب بلوث الشهوات وتكدره بشوب الغفلات وقوته في الرضا بالقضاء والصبر على البلاء والتوكل على رب السماء وضعفه بفقد هذه الأشياء.

قال «إبراهيم الخواص»: لقيت غلاماً في التيه كأنه سبيكة فضة، فقلت له: إلى أين يا غلام؟ فقال: إلى مكة. فقلت: بلا زاد ولا راحلة ولا نفقة؟ فقال لي: يا ضعيف اليقين، الذي يقدر على حفظ السمٰوات والأرض لا يقدر على أن يوصلني إلى مكة بلا علاقة. قال: فلما دخلت مكة فإذا أنا به في الطواف وهو يقول:

---

(١) جامع الأحاديث والمراسيل حديث رقم (١٣٦٧) [ج ٣ ص ١٠٧]. وانظر إحياء علوم الدين للغزالي، بيان فضيلة الشكر، [ج ٤ ص ٧٢].

يا عين سحي أبداً ... يا نفس موتي كمدا
ولا تحبي أحداً ... إلا الجليل الصمدا

فلما رآني قال: يا شيخ أنت على ضعف من اليقين بعد.

ثم اعلم أن اليقين من مقامات لا ينقطع السير فيها إلى الأبد لأنه ثمرة شجرة المعرفة وهي غير متناهية فثمرتها تكون غير متناهية. فكما أن للعارف في مقام السير في الله تتجدد المعرفة ويزيد مع لحظاته إلى الأبد، كذلك يتجدد للموقن السائر في مقام حق اليقين بحسب المعرفة مزيد في اليقين إلى الأبد. وقد خص الله حبيبه المجتبى ونبيه المصطفى ـ ﷺ ـ بهذه المرتبة السنية، فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] أي كن ثابتاً على قدم العبودية إلى الأبد ليزداد لك المعرفة واليقين بلا نهاية.

وإنما فسر علماء الظاهر اليقين هٰهنا بالموت؛ لأن اليقين بالآخرة وسؤال المنكر والنكير والثواب والعقاب يحصل بالموت، فإن فيه كشف الغطاء، كقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] وقد كشف غطاء السائرين إلى الله تعالى في حياتهم ووصلوا إلى مقام الإيقان بعد الإيمان بل حصلوا في مقام العيان حتى قال بعضهم: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً واليقين يورث الصبر وقد مر الكلام على الصبر وما بلغ من بلغ هذه المراتب وما عبر عن هذه المقامات إلا بالصدق.

فصل في الصدق

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»(١).

اعلم أن على الصدق مدار جميع المقامات في السير إلى الله ولا يمكن الوصول إلى الحضرة إلا بقدم الصدق كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢]. وقال بعضهم: الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه، الصدق ينافي الكذب في الأقوال والأعمال والأحوال، فمن صدق في الأقوال فهو صادق، ومن صدق في الأعمال فهو صدوق، ومن صدق في الأحوال فهو صديق.

---

(١) رواه الطيالسي في مسنده عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم (٢٤٧). ورواه الطبراني في المعجم الصغير، حديث رقم (٦٨٣) [ج ٢ ص ٨].

فالصدق في الأقوال: استواء اللسان على المقال، والصدق في الأعمال: استواء الأركان على الشرع في الأفعال وهما من المكاسب، وصدق الأحوال: استواء الجنان على الفضل والنوال من فيض ذي الجلال وهو من المواهب. وذلك تالي درجة النبوة. لقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

وعلى الحقيقة. لا يلزم الصدق أحداً في الأقوال والأعمال والأحوال إلا بحسن التوفيق من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إن الله مع الصادقين﴾ أي معهم بالتوفيق للصدق ومنشأ الصدق هو المعرفة، لأنك إذا عرفت ممن تخاطب أنه واقف على صدقك وكذبك وهو قادر على مجازاتك وأنه لا ينجيك من عقوبته إلا صدقك، فقد صدقت معه.

والصدق أصل لسائر أعمال البر وعلى قدر قوة الصدق يزداد العبد في أعمال البر وهو موهبة من الله، فإذا وقع في القلب سطع لذلك نور وله هياج في القلب وأخذ في الرأس، وانتشر في سائر الجسد، فيأخذ كل جارحة منه قبساً من الصدق على قدر الكثرة والقلة من هيجان الصدق. وعلى قدر ما وافق من ذلك رقة القلب وصحة العقل وربما هاج الصدق في القلب فولهه، وربما حيره، وربما أذهله وربما أبكاه وأحزنه وربما نغص عليه الطعام والشراب، وربما دار منه البكاء والنحيب وربما زعق وشهق وربما زال عنه العقل ساعة وربما سقط عنه التمييز ساعة ويوماً ويومين وأكثر على قدر هيجان الصدق من القلب، وربما يوحش من الخلق إلى أنس الوحدة، وربما دام به الحزن واقشعر منه الجلد، وربما لم ينتفع به أهل ولا ولد فهذا الذي وصفناه كله وأكثر من هذا يهيجه من القلب صدق الحياء أو صدق الخوف أو صدق المحبة. وأن من أمارات الصادق الصديق ما قيل: أن لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل إصلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله. لأن كراهيته لاطلاع الناس على عمله دليل منه على حب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين. اللهم إلا أن يكون قصدهم في ذلك صلاح الناس وحسن إدارتهم لينتفعوا بها ولم ينكروا، فإن إنكارهم يضر بهم.

ومن علامة الصديق أن يكون بصواب القول ناطقاً ولسانه محزوناً، فإذا نطق فكلامه بالحق موزون. وإنه طاهر القلب من كل دنس يصافي مولاه في كل نفس وإنه متمني الموت شوقاً إلى لقاء محبوبه قال الله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ﴾ [البَقَرَة: ٩٤] والصدق يورث الخوف والرجاء.

فصل في الخوف

قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: ١٦] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»(١).

اعلم أن الخوف من شرائط الإيمان وقد فرضه الله على المؤمنين في القرآن فقال: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥] وقد مدح المؤمنين على الخوف فقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النّحل: ٥٠] وللخوف مقامات ومراتب: فمقام عوام المؤمنين: أن يخافون الله في تعذيبهم بالنار. ومقام خواص المؤمنين: الخشية وهم العلماء كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨] وإنما يخشون أن تكون طاعاتهم مشوبة بالرياء. كما قالت عائشة، ـ رضي الله عنها ـ قلت: يا رسول الله ـ ﷺ ـ الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر. قال: لا ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه»(٢).

ومقام أخص الخواص. الهيبة: وهم أهل المعرفة من الأنبياء والأولياء قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عِمرَان: ٢٨] فمن ازداد المعرفة ازداد الهيبة وإنما يفزعون عن الحجاب والقطيعة. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه»(٣) وهذا النوع من الخوف ينشأ من القرب والمحبة وضد هذا النوع من الخوف الآمن من المكر. وقال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعرَاف: ٩٩].

والخائف الحقيقي: من لا يخاف إلا الله، فإن قيل: ما قولكم في قوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يُونس: ٦٢] هل

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك كتاب الرقاق، باب قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب، حديث رقم (٧٨٥٠) [ج ٤ ص ٣٤٢]. ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة....، باب (١٨) حديث رقم (٢٤٥٠) ورواه ابن حميد في مسنده عن أبي هريرة، حديث رقم (١٤٦٠) [ج ١ ص ٤٢٥].

(٢) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، حديث رقم (٣١٧٥). ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، حديث رقم (٤١٩٨) ورواه غيرهما.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب المناسك، حديث رقم (١٧٤٢) [ج ١ ص ٦٤٧].

يخاف الولي أم لا؟ قلنا: أما الخوف الذي يتعلق بزمان مستقبل من مكروه يصيبه من مخلوق أو محبوب يفوته فلا، لأنه ليس للولي ماض ولا مستقبل وهو ابن وقته ولأنه مشاهد للحق تعالى فلا يرى في الدارين غير الله وفي نظره كل شيء هالك إلا وجهه.

وأما خوفه في ذات الله تعظيماً وإجلالاً فنعم لأنه يزداد بازدياد القرب والمعرفة قال الواسطي: الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج على رعوناتها، وقال: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف.

قال الأستاذ أبو القاسم: «وهذا فيه إشكال» ومعناه إذا اصطلمت شواهد الحق بالأسرار ملكتها، فلا يبقى منها مساغ لذكر حدثان.

فالخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية.

فصل في الرجاء

قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «قال جبريل ـ عليه السلام ـ: قال الله عز وجل: عبدي ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً غفرت لك على ما كان منك، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بملئهن مغفرة واغفر لك ولا أبالي»(١).

واعلم أن الرجاء أحد جناحي قلب المؤمن، والخوف ثانيهما بهما يطير عوامهم إلى الجنات وخواصهم إلى القربات وأخص خواصهم إلى مقامات في المواصلات، ثم يتبدل اسم الخوف والرجاء فالرجاء انعكاس ضياء أنوار الجمال على مرآة القلب، والخوف انعكاس ضياء أنوار الجلال على مرآة القلب، وأمارة صحة الخوف والرجاء ترك ما يبعده عن الحضرة واستعمال ما يقربه إليها، فمن كان خوفه من النار ورجاؤه إلى الجنة فليباشر أعمال الشريعة بالتقوى، ومن كان خوفه عدم قبول الطاعات ورجاؤه إلى المواصلات فليعمل عملاً صالحاً للحقوق، صافياً عن الحظوظ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً بالالتفات إلى الدارين.

---

(١) رواه أحمد في المسند بلفظ: «إن الله عز وجل يقول يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر لك على ما كان فيك ويا عبدي إن لقيتني بقراب الأرض خطيئة ما لم تشرك بي لقيتك بقرابها مغفرة وقال أبو ذر إن الله عز وجل يقول يا عبادي كلكم مذنب إلا من أنا عافيته فذكر نحوه إلا أنه قال ذلك بأني جواد واجد ماجد» (المسند، حديث رقم (٢١٤٠٦) [ج ٥ ص ١٥٤]. وورواه ابن الجعد في مسنده، حديث رقم (٣٤٢٣) [ج ١ ص ٤٩١].

قال أبو خبيق: الرجال ثلاثة: رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها، ورجل عمل سيئة ثم تاب فهو يرجو المغفرة، ورجل كاذب يتمادى في الذنوب ويقول أرجو المغفرة.

والفرق بين الرجاء والتمني أن التمني يورث الكسل لصاحبه، ولا يسلك طريق الجهد والجد، وبعكسه صاحب الرجاء. فالرجاء محمود والتمني مذموم.

وقال يحيى بن معاذ: إلهي أجلى العطايا في قلبي رجاؤك وأعذب الكلام على لساني ثناؤك وأحب الساعات إليّ الساعة التي يكون فيها لقاؤك.

وفي بعض التفاسير: أن رسول الله ـ ﷺ ـ: دخل على أصحابه من باب «بني شيبة» فرآهم يضحكون فقال: «أتضحكون لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[1] ثم رجع القهقرى، قال: نزل علي جبريل ـ عليه السلام ـ وأتى بقوله تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾ [الحجر: ٤٩].

وقيل: إنما أوقعهم في الذنب حين سمى نفسه عفواً. وقيل: لو قال: لا أغفر الذنوب لم يذنب مسلم قط، كما أنه قال تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] لم يشرك مسلم قط ولكن لما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] طمعوا في مغفرته.

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم، أنه قال: كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لي فكانت ذات ليلة ظلماء بجيء المطر الشديد فخلا المطاف، فدخلت الطواف وكنت أقول: اللهم اعصمني اللهم اعصمني، فسمعت هاتفاً يقول لي: يابن أدهم. أنت تسألني العصمة وكل الناس يسألوني العصمة، فإذا عصمتكم فعلى من أرحم.

ثم اعلم أن تصحيح المقامات كلها بمحل الإخلاص على الحقيقة، فمن لم يصحبه الإخلاص في كل مقام لا يسلم له الخلاص منه والله أعلم وأحكم.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ...، حديث رقم (١٣٤ـ ٢٣٥٩) ولفظه: عن أنس بن مالك قال: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً قال فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه قال غطوا رؤوسهم ولهم خنين قال فقام عمر فقال رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً قال فقام ذاك الرجل فقال من أبي قال أبوك فلان فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾. ورواه غيره بألفاظ متقاربة.

فصل في الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من أخلص لله تعالى أربعين صباحاً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(١).

اعلم أن الإخلاص خلوص النظر من الخلق إلى الحق. وهو على ثلاثة أقسام:

إخلاص العوام: وهو خلوص الأحوال عن شوائب الرياء. قال ـ ﷺ ـ: «اليسير من الرياء شرك»(٢).

إخلاص الخواص: وهو خلوص النية عن شوائب النظر إلى الدارين، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى»(٣) من عمله.

إخلاص الأخص: وهو خلوص جوهر الإنساني عن شوب الوجود وشينه. قال ـ ﷺ ـ: «سألت جبريل ـ عليه السلام ـ عن الإخلاص ما هو. قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي»(٤). وهو سر الفناء من سر البقاء، أودعته قلوب المحبين فإن المحبة دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب، وهذا معنى قوله: «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً»(٥) وقد جاء في رواية أخرى «الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يسعه ملك مقرب ولا نبي مرسل»(٦).

والفرق بين المخلص والمخلَص. أن المخلِص: من أخلص في العبودية للربوبية. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ﴾ [البيّنة: ٥] والمخلَص: من أخلصه الحق عن حبس الوجود ببذل الجود. قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ

---

(١) رواه الشهاب في مسنده، حديث رقم (٤٦٦) [ج ١ ص ٢٨٥].

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، حديث رقم (٤) [ج ١ ص ٤٤] ورواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب من ترجى له السلامة من الفتن، حديث رقم (٣٩٨٩) ورواه غيرهما.

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي. . .، حديث رقم (١) ورواه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب ما عني به الطلاق، حديث رقم (٢٢٠١) ورواه غيرهما.

(٤) رواه أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه عوارف المعارف. الباب السادس والعشرون في خاصية الأربعينية التي يتعاهدها الصوفية.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢) ورواه البيهقي، في سننه الكبرى، باب الخروج من المظالم والتقرب إلى الله تعالى بالصدقة. . .، حديث رقم (٦١٨٨) [ج ٣ ص ٣٤٦] ورواه غيرهما.

(٦) أورده البروسي في تفسيره روح البيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾.

ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ [الحِجر: ٤٠] فلما تخلصوا عن حبس الوجود آيس الشيطان أن يصيبهم بسوء وانقطع عنهم سلطانه قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجر: ٤٢].

وقال ذو النون المصري: من علامات الإخلاص، استواء المدح والذم من العامة ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال واقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وقال يوسف بن الحسين: أعز شيء في الدنيا الإخلاص فكم اجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي وكأنه نبت فيه على لون آخر، ثم اعلم أنه لا يتم الإخلاص إلا بالمراقبة.

فصل في المراقبة

قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

اعلم أن المراقبة محافظة الأسرار عن الاستتار، فكما أن الله كان على كل شيء رقيباً ينبغي أن يكون العبد على كل شيء من الأشياء ظاهره وباطنه رقيباً، لئلا يجري عليه سوى المأمور به، ويعلم أن الله رقيبه على ما يفعله ويتمناه، فيكون رقيباً على بدنه، بسايس الطريقة ولزوم المجاهدات وترك الشهوات، رقيباً على قلبه بسايس المحبة عن ملاحظة الأغيار ولزوم الأذكار رقيباً على سره بسايس الأنوار عن الأستار في كشف الأسرار، رقيباً على روحه بطوالع شموس الشواهد عن الالتفات إلى الدارين في بذل الوجود لنيل المقصود، رقيباً على سره الخفي بسلطان الهوية وسطوات الألوهية عن وصمة أنانية الإنسانية في إفناء الصفات بالصفات والذات في الذات، وهذا حقيقة قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] أي رقيباً على كلية أشياء الموجودات ليستعملها لما خلقن له. محفوظة عن استعمال غير ما خلقت له. فمن تحقق له قبول الحق فله دوام المراقبة.

والمراقبة من باب المفاعلة وهو ما يكون بين الإثنين، فالرب يراقب جميع حركات العبد وسكناته ظاهراً وباطناً مراقبة الحفظ والعناية وألطاف الربوبية، والعبد يراقب جميع أوقاته وحالاته بظاهره وباطنه، رضا ربه وإرادته وأحكامه وقضاءه وقدره وإشاراته وإلهاماته وارداته وطوالعه وشواهده وتحلي صفاته وذاته، مراقبة التقوى

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان. . . ، حديث رقم (١ ـ ٨) ورواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم (٥٠) ورواه غيرهما.

والوفاء والحياء والشوق وأصناف العبودية كما أنشدوا:

كان رقيباً منك يرعى خواطري وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك منظراً يسؤك إلا قلت قد رمقاني
ولا بدرت من في دونك لفظة بغيرك إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السر بعدك خطرة لغيرك إلا عرجا بعناني
وإخوان صدق قد سمعت حديثهم فأمسكت عنهم ناظري ولساني

وقيل قوله - ﷺ -: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١) إشارة إلى حال المراقبة؛ لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامة هذا العلم مراقبة لربه عز وجل وهذا أصل لكل خير ولا يكاد يصل إلى هذه المراقبة إلا بعد فراغه من المحاسبة.

فصل في المحاسبة

فالعبد إذا حاسب نفسه على ما سلف وأصلح حاله في الوقت فلازم طريق الحق أحس بينه وبين الله عز وجل مراعاة القلب وحفظ مع الله الأنفاس، وراقب الله تعالى في عموم أحواله، فيعلم أنه سبحان عليه رقيب ومن قلبه قريب، يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله، ومن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة فكيف عن حقائق القربة.

وقال الجويري: من لم يحكم بينه وبين الله تعالى بالتقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة ومن أعلى مراتب المراقبة الحياء، فإن الحياء من الإيمان والإيمان من نور الجمال، فمن كان رقيبه نور الجمال كان محفوظاً من سطوات الجلال إلى أن يبلغه إلى أعلى مراتب الوصول والوصال.

ثم اعلم أنه لا مبلغ للسالك إلى هذه المسالك ولا منجي له من هذه المهالك مثل حسن الخلق.

فصل في الخلق

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤] وقال رسول الله - ﷺ -: «حين سئل: أي المؤمنين أحسنهم إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً»(٢).

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة بلفظ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهن خلقاً وخياركم خياركم لنسائكم» حديث رقم (١٠١١٨) [ج ٢ ص ٦٢١] طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

اعلم أن الخلق صورة الروح، كما أن الخلق صورة القالب، وأن الله قدر بكمال حكمته لكل شخص خلقاً وخلقاً كما قال ـ ﷺ ـ: «إن الله فرغ من الخَلق والخُلق والرزق والأجل، وكما جعل الأشباح قوالب الأرواح جعل الصورة قوالب الأخلاق، فمن حسنت صورته غالباً حسن خلقه، فكان النبي ـ ﷺ ـ من أحسن الناس خُلقاً وخَلقاً» وكما أنه تعالى جعل الصورة قوالب الأخلاق جعل الأخلاق قوالب الإيمان، كما سئل النبي ـ ﷺ ـ: أي المؤمنين أحسنهم إيماناً؟ قال: «أحسنهم إيماناً أحسنهم خُلقاً»(١) فاستقامة الأخلاق في استقامة الإيمان واستقامة الإيمان في استقامة القلب كما قال ـ ﷺ ـ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه»(٢).

والقلب المستقيم هو السليم من الأمراض والعلل والآفات والتعلقات فإذا صقلت مرآة القلب عن صدأ تعلقات الكونين وتنورت بنور الذكر وتواترت عليها شواهد التجليات انعكس تلألؤها على الأخلاق فتحسنها بحسب قوة التلألؤ والشواهد فمن تجلى له الرب تبارك وتعالى بجميع صفاته، صار متخلقاً بأخلاق الحق ومن تجلى له بأخلاقه يفني كينونيته ويبقيه بكينونيته تعالى، كما قال: كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً الحديث، ومن تجلى له الرب تعالى بذاته وصفاته لم يبق له وجوداً ولا خلقاً، فإن الخلق تبع للوجود فيكون خلقه خلق الحق كما كان حال النبي ـ ﷺ ـ، كان خلقه القرآن والقرآن هو خلق الله وصفته، فلما كان على خلق الله كان على خلق عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القَلَم: ٤] ومن علامة عظم خلقه ـ ﷺ ـ: أنه كسرت رباعيته وشج وجهه وهو يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

ثم اعلم أن كمالية الخلق الحسن والعبور على المقامات كلها وحصول الأحوال السنية، إنما يتيسر بملازمة الذكر، ورعاية حقوقه.

فصل في الذكر

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] وقال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأذكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والورق؛ وأن

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك، حديث رقم (١٣٠٧١) [ج ٣ ص ١٩٨] ورواه الشهاب في مسنده، حديث رقم (٨٨٧) [ج ٢ ص ٦٢].

تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم. قالوا: يا رسول الله وما ذاك؟ قال: ذكر الله»(١).

اعلم أن الذكر عدة السائرين إلى الله وعمدة طالبيه ولا يصل أحد إلى الله إلا بذكر الله. لأنه منه بدأ وإليه يعود، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فَاطِر: ١٠] وأن الذكر يوصل الذاكر إلى المذكور، بل يجعل الذاكر مذكوراً بقوله فاذكروني أذكركم، والذكر على ثلاثة أقسام: ذكر بالأقوال وذكر بالأعمال وذكر بالأحوال، فاذكروني بالأقوال بلفظ الاستغفار عن العصيان أذكركم بالرحمة والغفران بيانه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٥] فاذكروني بأعمال الأذكار من خلوص الإيمان، أذكركم بحياة الجنان ودخول الجنان، بيانه قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] الآية. فاذكروني بالأشباح والأرواح أذكركم بالنجاح والفلاح بيانه قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة: ١٠] فاذكروني بالأحوال وهي الشوق والمحبة، أذكركم بالقبول والقربة بيانه قوله: «من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً»(٢). فاذكروني بالتضرع والابتهال. أذكركم بالتفضل والاستقبال بيانه قوله: «ومن أتاني يمشي تلقيته هرولة»(٣) فاذكروني بالتعظيم أذكركم بالتكريم، فاذكروني ذكراً فانياً، أذكركم ذكراً باقياً، فاذكروني بصفاء السر، أذكركم بخالص البر، فاذكروني بترك الجفاء، أذكركم بحفظ الوفاء، فاذكروني بترك الأخطاء، أذكركم بأنواع العطاء، فاذكروني من حيث أنتم، أذكركم من حيث أنا، فاذكروني ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء. وهذا حقيقة قوله تعالى(٤): «وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»(٥) وهذا هو الذكر الحقيقي الذي يجعل الذاكر مذكوراً والمذكور ذاكراً، بل

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب (٦) حديث رقم (٣٣٧٧) ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الذكر، حديث رقم (٣٧٩٠) ورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة. . .، باب مثل المؤمن مثل النخلة، حديث رقم (٦٣-٢٨١١) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا، حديث رقم (٦١)، ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء. . .، باب الحث على الذكر حديث رقم (٢-٢٦٧٥). ورواه غيره بألفاظ متقاربة.

(٤) أي في الحديث القدسي.

(٥) هذا الحديث سبق تخريجه.

يكون الذكر والذاكر والمذكور واحداً. كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] وقال قائلهم:

رق الزجاج ورقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنها خمر ولا قدح وكأنه قدح ولا خمر

ويحل هذا المشكل في مثل حال الفراش مع الشمع فإن يقول للفراش اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي فذكر الفراش للشمع في نفسه أن يبذل نفسه لشعلة الشمع فيذكر شعلة الشمع في نفسه بالحرقة عليها ويذكره الشمع باشتعال نفس الفراش في نفسه. فلا يبقى التمييز بين الشمع والفراش. فإن طلبت الفراش وجدت الشمع وإن طلبت الشمع وجدت الفراش. كما قيل:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وإن للذكر شرائط وآداباً ليكون مثمراً مفيداً فمن شرطه أن يواظب على أفضل ذكر من الأذكار. وهو ما قال رسول الله - ﷺ -: «أفضل الذكر لا إله إلا الله»[(١)] ومن شرطه أن يأخذ هذا الذكر بالتلقين من رسول الله - ﷺ -. فيما روى «شداد بن أوس» و «عبادة بن الصامت» حاضر يصدقه قال: إنا لعند رسول الله - ﷺ - إذ قال: «هل فيكم غريب يعني أهل الكتاب؟».

قلنا: يا رسول الله لا، فأمر بغلق الباب، فقال: «ارفعوا أيديكم فقولوا لا إله إلا الله. فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله - ﷺ - ثم قال: الحمد لله، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها، فوعدتني عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد ثم قال: أبشروا فإن الله قد غفر لكم»[(٢)]. وقد لقن الصحابة التابعين من المشايخ شيخاً بعد شيخ إلى زماننا هذا كل من كان أهل الذكر منهم، كما كان الصحابة بقوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦] وهي لا إله إلا الله ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦] وأن أهل الذكر من غرس بالتلقين في أرض قلبه غرس الكلمة الطيبة وربي بماء الأعمال الصالحة بدهقة المتابعة ونظر شمس الولاية في هواء الإرادة إلى أن

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، حديث رقم (٣٣٨١) ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب فضل الحامدين، حديث رقم (٣٨٠٠) ورواه غيرهما.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الدعاء والتكبير...، حديث رقم (١٨٤٤) ورواه أحمد في المسند عن شداد بن أوس، حديث رقم (١٧١٦٢)، ورواه غيرهما.

تؤتى أكلها من المكاشفات والمشاهدات كل حين بإذن ربها.

ولتلقين أهل الذكر في هذا المعنى شأن عظيم وخاصية عزيزة، ولهذا شبه النبي - ﷺ -: النخل بالرجل المسلم في حديث «عبد الله بن عمر» أن النبي - ﷺ - قال: «إن من الشجر شجرة لا تسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ فوقع الناس في شجر البوادي قال «عبد الله» فوقع في نفسي أنها النخلة»[1]. ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله، قال: «هي النخلة»، وذلك أن النخلة لا تثمر البتة ما لم تؤبر فكذلك المريد الصادق ما لم يلقن من شيخ كامل لا تثمر شجرة وجوده من الثمار المودعة فيها بجود موجدها والله أعلم.

وأما آداب الذكر فإذا أراد المريد الطالب أن يشرف بتلقين الذكر يصوم ثلاثة أيام بأمر الشيخ، ويكون فيها دائم الوضوء دائم الذكر قليل الطعام، قليل المنام قليل التردد والاختلاط ثم يغتسل غسل الإسلام فإنه يبدل الإسلام التقليدي الميراثي بالإسلام التحقيقي الكسبي الإرادي، ثم يجلس بين يدي الشيخ على ركبتيه ويحضر قلبه ويراقب سره حتى يقول الشيخ مرة تامة: لا إله إلا الله بأداء صوته وهو يأخذ بقلبه متفهماً معانيها بحيث ينفي بـ «لا إله» الخواطر كلها، ويثبت بإثبات «إلا الله» الحضرة الإلهية بالمطلوبية والمقصودية والمعبودية والمحبوبية. أي لا مطلوب ولا مقصود ولا معبود ولا محبوب إلا الله. ثم يقول المريد رافعاً صوته ماداً نفسه حاضراً قلبه عند النفي والإثبات كما مر ذكره. ثم يقول الشيخ مرة ثالثة. ثم يقول المريد ثم يرفع الشيخ يديه ويدعو ويقول: «اللهم خذ منه وتقبل منه وافتح عليه أبواب كل خير فتحته على أنبيائك وأوليائك وأهل طاعتك أجمعين واهده إلى صراطك المستقيم وكن له عوناً ومعيناً برحمتك يا أرحم الراحمين. ثم يقوم المريد ولا يكلم أحداً. ويدخل بيت خلوة لا يزاحمه فيها أحد ويقعد مربعاً متوجهاً للقبلة واضعاً يديه على فخذيه ويكرر، «لا إله إلا الله» بقلب حاضر، خافضاً صوته ويخرج «لا إله» من صميم قلبه بقوة شديدة مع قطع كل تعلق في قلبه نافياً جميع خواطره ويدخل «إلا الله» بالقوة في قلبه مثبتاً توجه قلبه إلى الله تعالى ليكون جوامع معنى ذكره مثبتاً أن ما في الوجود سوى الله مداوماً على الذكر مواظباً عليه ليلته مراقباً لقلبه فيما يرى ويسمع ولا ينام إلا قليلاً بقدر الضرورة لإجمام الحواس. ومن آدابه أن يكون جميع أوقاته مستغرقاً بالذكر

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة...، باب مثل المؤمن مثل النخلة، حديث رقم (٦٣ - ٢٨١١)، ورواه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قول المحدث: حدثنا، حديث رقم (٦١). ورواه غيرهما.

بحيث لا يخلو لسانه وقلبه من الذكر ومعناه حتى يتجوهر القلب بجوهر الذكر ويرتفع حجب الاثنينية بين الذاكر والمذكور ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝﴾ [الرحمٰن: ١٩، ٢٠].

ثم اعلم أن الذريعة إلى وصول المقاصد في المقامات كلها هي الخلوة والعزلة والانقطاع عن الخلق.

فصل في الخلوة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١] وقال لنبيه وحبيبه ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] أي انقطع إليه في العبادة وإخلاص النية انقطاعاً يختص به وإلى هذا المعنى أشار بقوله عز وجل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] وعن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «أول ما بدىء به رسول الله - ﷺ - من الوحي: الرؤيا الصالحة في النوم. وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو تعبد الليالي ذوات عدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء»(١). الحديث.

اعلم أن الخلوة من موجبات السلوة وهي على نوعين: خلوة الاعتزال عن الخلق وخلوة الأربعينة مع الحق. فأما خلوة الاعتزال عن الخلق: فالجليس الصالح خير من الوحدة والوحدة خير من الجليس السوء، قاله رسول الله - ﷺ -. وقال رسول الله - ﷺ -: «إن من خير معايش الناس لهم رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أن يسمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانه، أو رجل في غنيمة له رأس سعفة من هذه السعاف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير»(٢) وقد قيل: العزلة من أمارات الوصلة.

وقال الجنيد: من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس فإن هذا زمان وحشة والعاقل من اختار فيه الوحدة.

وقال أبو يعقوب السوسي: الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء ولأمثالنا الاجتماع

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٢٥٢-١٦٠). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿إقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ حديث رقم (٤٩٥٣). ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العزلة، حديث رقم (٣٩٧٧).

أوفق، يعمل بعضهم على رؤية بعض.

وقال رسول الله - ﷺ -: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(١).

فالضابط لمثل هذه العزلة والخلوة أنه لو وجد صحبة من يعاونه على الدين ويرافقه في العبودية أن ينتفع به ويعتزل عن غير أهل الصحبة وإن لم يجد فالوحدة له خير من الجليس السوء.

وأما خلوة الأربعينية مع الحق: فله شرائط وآداب. سنورد شرائطها كما أوردها شيخنا «السعيد الشهيد الرباني صفوة الله أبو سعيد شرف بن المؤيد البغدادي، - رضي الله عنه -، وقدس روحه في الباب الخامس من كتاب «تحفة البررة» الموسوم به تبركاً بأنفاسه الشريفة، وتيمناً بألفاظه اللطيفة، قال - رضي الله عنه -: العزلة الخلوة من لوازم هذه الطريقة في أوائل ظهور أنوار الإرادة وتباشير صبح السعادة وعنوان الطلب.

روت عائشة - رضي الله عنها - عن بدء الوحي للنبي - ﷺ - فقالت في حديثها: «حبب إليه الخلاء وكان يتحنث إلى غار حراء أسبوعاً وأسبوعين(٢).

وروى جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - في بيان أول ما نزل عليه من القرآن قال: «جاورت بحراء فلما قضيت جواري فاستنبطت الوادي فنوديت فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي فلم أر شيئاً، فنوديت فنظرت فوقي، فإذا أنا به قاعد على عرش بين السماء والأرض قال: فخشيت منه، فانطلقت إلى خديجة فقلت: «دثروني.. فدثروني وصبوا علي ماء بارداً. فأنزلت عليّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ١ - ٣]»(٣) فسر الطلب كان مستوراً في النبي - ﷺ - في ابتداء الأمر حتى أمكنه الاشتغال بغير هذا الأمر، فكان أجير «خديجة» ثم التمس تزويجها فنكحها، وكان ذلك قصارى همه وهمته في ذلك الوقت إلى أن أظهر الله تعالى في قلبه سر طلب الحق فرغب عن مخالطة الأغيار، واستبشع

---

(١) رواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، حديث رقم (٤٠٣٢) ورواه البيهقي في السنن الكبرى، باب فضل المؤمن القوي...، حديث رقم (١٩٩٦١).

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٢٥٥ـ ١٦١). ورواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم (٤). ورواه غيرهما.

ملاذ الدنيا ونعيمها، وحبب إليه الخلاء ففارق الأهل والولد، وقنع بما يسد رمقه ويسكن جوعه وواظب بهذا التجريد على التفريد وداوم على التوجه إلى الحضرة الربوبية إلى أن أغناه الله تعالى عن طعام الخلق وشرابهم، فقال: «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[١] فأيده بروح منه وأكرمه بإنزال الوحي عليه، وتجلى له جبريل ـ عليه السلام ـ، وقال له: اقرأ. فقال: لست بقارىء وكان ظهوره فجأة فما شعر بحقيقة الأمر وخاف على نفسه وترك الخلوة وذهب إلى خديجة وقال: «زملوني زملوني زملوني»[٢] فزملته خديجة حتى ذهب عنه الروع فأخبر بواقعته خديجة، وقال: لقد خشيت على نفسي. . . فقالت خديجة: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق»[٣] فما استقر قلبه حتى انطلقت به خديجة إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ: «خبر ما رأى. فقال «ورقة»: هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ـ عليه السلام ـ فاطمأن قلبه عند ذلك وفتر الوحي إلى أن جاور في حراء على ما روى جابر بن عبد الله[٤] ـ رضي الله عنه ـ، فاتصل به جبريل ـ عليه السلام ـ وما كان يعرفه، فأمره بالقراءة فحسب دون الإبلاغ والإنذار إلى أن بالغ في الرياضة وزاد في مدة الخلوة، فاستعلى أمره وعلا شأنه واستأهل للتبليغ والإنذار وترقى إلى ذروة الكمال فهذه هي السنة الإلهية في هداية العباد وتربية الطالبين، فالمريد إذا هبت في قلبه لواقح العناية واخضر شجر طلبه وانفتحت أنواره وأزهاره استبشع شهوات الدنيا ولذاتها واستقبح نعيمها وزخارفها، فاستوحش عن الخلق ورغب عن مخالطتهم وغلب عليه هم الآخرة وتحرى رضا الحق حتى إذا ضاقت عليه الأرض بما رحبت اختار الخلوة وآثر العزلة فإذا استسعد بخدمة شيخ عارف بحقيقة الأمر، سالك لطريق الحق واقف على دقائق التربية ذكراً، وتعود التحلي والمواظبة على الذكر ليؤيد بذلك طلبه وشوقه فيستأنس بالخلوة ويستوحش عن الخلق فيجلسه في الخلوة.

فطريق الخلوة على ما لخصه «الجنيد» ـ رضي الله عنه ـ ورتبها أقرب الطرق إلى

---

(١) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٥٣٩) ورواه ابن راهويه في مسنده، عن أم علقمة مولاة عائشة، حديث رقم (١٠٣٥) [ج ٢ ص ٤٦٣]. ورواه غيرهما بألفاظ متقاربة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي. . .، حديث رقم (٢٥٢ـ ١٦٠) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ حديث رقم (٤٩٥٣) ورواه غيرهما.

(٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه وهو حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

حصول المقصود وقاعدتها مبنية على ثمانية شروط:

الشرط الأول: دوام الخلوة فلا يخرج عن خلوته لتفرج ولا لإزالة قبض ولا لسآمة وملالة ولا لداعية من دواعي الهوى والنفس. بل يكون خروجه ضرورة في الدين كالتوضوء وصلاة الجماعة.

الشرط الثاني: دوام الوضوء. فليحافظ على الوضوء ولا يمكث سويعة ما على الحدث. قال النبي - ﷺ -: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»(١) فإذا غلبه النوم واستيقظ وتعار جدد الوضوء، ويستحب الوضوء عند غلبة النوم وإن كان على وضع لا ينقض النوم طهارته على بعض المذاهب، فإن الوضوء على الوضوء نور على نور فأما إذا توضأ من غير علة بل من كسل النفس وطلب الاستراحة فذلك مكروه يجتنب عنه.

الشرط الثالث: دوام الصوم والتقليل مستحب للمريد وغيره فإنه ما ملىء وعاء شراً من بطن آدمي. قال عيسى ابن مريم للحواريين: أجيعوا بطونكم لعلكم ترون ربكم بقلوبكم. ولا شك أن القالب يستمد من الغذاء والقوى الطبيعية المودعة في الكبد لأمر الغذاء هي جند الشيطان وحزبه، فإذا وجد حظاً وافراً من الغذاء قويت بذلك دواعي النفس واستولت ظلمتها على القلب واستتبعت القوى الطبيعية القوى النفسانية يلزم منها استيلاء النوم وظهور كلالة الحواس وكدورتها، وإذا قلل الغذاء ذبلت قوى النفس ودواعيها فلا تحتاج القوى الطبيعية في هضمها الغذاء إلى استتباع غيرها فلا يمنع الفكر والعقل عن التصرف في مدركاتها.. والسر في ذلك أن أمر التغذية للإنسان هو المرتبة النباتية والاشتغال بالشهوات هو المرتبة الحيوانية فالمقبل على الغذاء لأجل الزيادة في البدن هو الغالب عليه النباتية والمقبل على الشهوات لأجل قضاء الوطر هو الغالب عليه الحيوانية وكلاهما اندرجا تحت قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] قال الله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: ٣] فالعاقل الطالب الذي خاض في هذا الأمر ورام نحو الكمال لا يأكل إلا لضرورة سد الرمق وبقاء المهجة، فإذا سكن جوعه بنخالة اغتذى بها واقتصر عليه وما التفت إلى شيء فيه حظ النفس وشغل الباطن، فإذا علمت أن تقليل الطعام أصل معظم هذا الباب، فاعلم أن الإفراط في

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الطهارة، حديث رقم (٤٤٩) ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء، حديث رقم (٢٧٧) ورواه غيرهما.

التقليل أيضاً مضر جداً، فإنه يؤدي إلى ضعف يمنعه عن مزاولة الأعمال ووظائف العبادات، والذكر القوي، وإن القليل إذا كان مقروناً بنية الصوم، كان أحسن فإن الصوم قد اختص من الله سبحانه وتعالى بفضيلة امتاز بها عن سائر أركان الإسلام والعبادات.

قال - ﷺ -: «حكاية عن الله تعالى: «الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»(١).

الشرط الرابع: دوام السكوت عن غير الذكر. فلا يتكلم ألبتة إلا مع الشيخ ويقتصر فيما يكلمه على حكاية الوقائع التي يريد حلها وأحوال قلبه في البسط والقبض وما ابتلى في الخلوة وما فتح عليه من المواهب، قال رسول الله - ﷺ -: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»(٢).

الشرط الخامس: دوام الذكر فإن من شرائط الخلوة المداومة على الذكر المعين بحيث لا يفتر عنه ألبتة ولا يتركه إلا عند غلبة النوم وفي أثناء الصلاة وفي المبرز فإنه يكره ثمة ذكر اللسان، فيذكر الله بقلبه ولا يذكر على غفلة من حقيقة الذكر، فإن الذكر المعتبر هو الذي يوافق فيه القلب اللسان ولا يذكر أيضاً كيف اتفق بل بقوة ويظهر أثره في جميع الأعضاء. لأن ذلك أقوى على نفي الخواطر وتحصيل الجمعية ويخفي الصوت فيه، ويجب الألحان ويبالغ في التعظيم وإنه إذا واظب على الذكر اللساني مدة على حضور تام وتعظيم وافر، يؤدي الذكر اللساني إلى الذكر القلبي، فيطمئن القلب بالذكر. قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨] ويغتذى به ويستأنس بالله ويذكره ويستوحش عن الخلق كلهم وعن مخالطتهم المانعة عن الخلوة. وإذا تمكن في الذكر القلبي وعرف الشيخ ذلك منه أمره بترك الذكر اللساني وشغله بمجرد التوجه إلى الله والحضور ومراقبة الحق أو القلب إلى أن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، حديث رقم (١٦٤ـ ١١٥١) ولفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف» قال الله عز وجل إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به يدع شهوته وطعامه من أجلي للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك» ورواه غير مسلم.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار...، حديث رقم (٧٤ـ ٤٧) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله...، حديث رقم (٦٠١٨) ورواه غيرهما.

يتبدل الذكر الأنسي بالذكر القدسي ويشغله الفكر الحقيقي بالمذكور ويلهيه عن صورة الذكر فيعرف حقيقة قول السادة: إن ذكر اللسان هذيان وذكر القلب وسوسة.

الشرط السادس: نفي الخواطر بأسرها برعاية صورة الذكر في معناه ولا يلتفت إلى تمييز الخواطر مضرة ظاهرة، ويصيّره الشيطان من جملة وساوسه وخواطره بل الواجب الذكر ومعناه والمبالغة في تعظيمه وتعظيم جلسته مع الله تعالى، قال الله تعالى[١]: «أنا جليس من ذكرني»، ومراقبة القلب ومحافظته وظيفة الإحسان. فإن الإحسان على ما قاله النبي ـ ﷺ ـ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢]. فإن التجريد يتيسر لمن أيد بصدق الإرادة والطلب في طرفة عين وأن يتيسر التفريد بمدة مديدة، ومشقة تامة، بواسطة نفي الخواطر. فإن جميع الأشياء المحسوسة التي استأنس بها المريد في ابتداء أمره وجاهليته والتي شاهدها ولم يستأنس بها مرتسمة في خياله، فإذا جلس في الخلوة واشتغل بالذكر، شوشت عليه الأمر والوقت، تارة بنسخ الخواطر وإنشائها، وتارة بمخالطتها بالمشاهدات الغيبية ومزاحمتها إياها، وكذلك هواجس النفس ودواعي هواها وعلى كثرتها، ووساوس العدو على اختلافها وكثرتها بوسيلة الهوى تكدر ينبوع القلب وتفرق حقيقة جمعية الباطن وتسلب عن المريد حلاوة الذكر الأكبر، بل هو خلاصة أمر الخلوة وزبدة حقيقة المعاملة ووصول إلى حقيقة التفريد والأنس بالله، تبدل إلقاء الشيطان بإلهام الرحمٰن وحديث النفس بمكالمة القلب والروح والحق سبحانه، أو بمناجاة القلب مع الله على اختلاف المراتب. والله أعلم.

الشرط السابع: ربط القلب بالشيخ. وهو عبارة عن تعلق قلب المريد بالشيخ من جهة الإرادة التامة الكاملة حتى يتيقن أنه هو الذي يوصله إلى الله تعالى، وأن هذه المرتبة والخاصية أعني أيضاً له إلى الله غير ثابتة لأحد من المشايخ، وإن كان كل واحد منهم موصوف بهذه الخاصية في حق غيره فإنه لو خطر ببال المريد أن في العالم أحداً يوصله إلى الله تعالى غير شيخه تصرف فيه الشيطان وأزعجه عن الخلوة لا سيما عند ظهور القبض والابتلاء وانسداد روزنة القلب، وربما يبلغ هذا التصرف إلى أن يتمثل بصورة شيخه فيريه أشياء يفسد بها اعتقاده وإرادته، فأما إذا استحكمت إرادته في حق شيخه كما قلنا يستحيل للشيطان التمثل بصورة الشيخ، فإن الشيخ في قومه كالنبي في أمته، وكما أن الشيطان لا يمكنه التمثل بصورة النبي ـ ﷺ ـ على ما

---

(١) أي في الحديث القدسي وقد سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «من رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي»(١) فكذلك لا يمكنه التمثل بصورة الشيخ فيبقى المريد محفوظاً. وإذا تعلق المريد بشيخه على هذا الشرط وجب عليه أن يتيقن أيضاً أن روحانية الشيخ غير متحيزة وكل ما لا يكون متحيزاً يستوى إليه نسب الأمكنة كلها ففي أي موضع يكون المريد لا تفارقه روحانية الشيخ وإن كانت تفارقه شخصيته والبعد إنما يتعلق بالمريد. فإذا تذكر المريد تقلبه عن الشيخ قرب إليه فيتعلق إليه قلبه واستفاد منه وهذه الاستفادة يطلع عليها المريد في أوقات ثلاثة:

أحدهما: أوان ما يريه الله تعالى شيئاً من آياته فيشاهده بعين القلب ولا يقف على حقيقة معناه، فيحتاج إلى الشيخ ليحل واقعته، فيستحضر الشيخ بقلبه ويسأله عن حقيقة معنى الصورة المشاهدة لا باللسان الظاهر بل بلسان القلب، فيلهمه روح الشيخ بحقيقة معنى الواقعة وفحواها عقيب السؤال، وإنما يتيسر له الاستحضار بواسطة ربط القلب به، ومن هذا الوجه يفصح له لسان القلب وينفتح له طريق القلب إلى الحق انفتاحاً يجعله محدثاً. قال النبي ـ ﷺ ـ: «قد كان في الأمم محدثون، فإن كان في هذه الأمة فعمر بن الخطاب»(٢) ـ رضي الله عنه ـ.

وثانيهما: عندما يقصده الشيطان، إما ظاهراً من حيث الصورة وإما أن يلقي في قلبه الرعب من غير أن يظهر نفسه، ففي هاتين الحالتين، إذا تذكر عن الشيخ واستعاذ به كالطفل إذا استعاذ بوالديه عند رؤية شيء خاف منه أو يجري اسمه على اللسان فيشاهد اضمحلال صورة الشيطان عند ذكر اسمه وزوال الخوف والرعب من قلبه وبطلان كيد الشيطان.

وثالثهما: إذا استعد المريد لفيضان أنوار الغيب عليه وتوجه الواردات إليه وجدّ في المجاهدة ربما يبلغ أمره إلى أن يفيض عليه الوقت أكثر عن مقدار قوته وتحمله، فإذا زاد عن استطاعته يعجز عن قبول الواردات، ولا يمكن أن يقول قائل: إنا قد رأينا المشايخ استفادوا من غير شيخ واحد مثل أبي عثمان الحيري، فإنه كان في الابتداء

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب قول النبي ﷺ: «من رآني. . .»، حديث رقم (١٠ـ ٢٢٦٦). وورواه الترمذي، كتاب الرؤيا، باب (٤) حديث رقم (٢٢٧٦). وورواه غيرهما.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، حديث رقم (٢٣ـ ٢٣٩٨). وأخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب مناقب عمر بن الخطاب. . .، حديث رقم (٣٦٨٩). ونصه عند البخاري «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر».

متمسكاً بحبل متابعة يحيى بن معاذ الرازي، ثم بعد ذلك رغب في صحبة «شاه الكرماني»، ولازم عتبته إلى أن قبله، ثم بعدما ورد مع الشاه بنيسابور، ورأى الشيخ أبا حفص الحداد، وقع على شبكته فاحتال إلى أن استوهبه «أبو حفص» عن الشاه، فوهبه منه فصحب الحداد، واستمسك بعروته الوثقى وبلغ مبلغ الرجال. وأنت لقد تحجرت واسعاً إذ خصصت تعلق الإرادة بشيخ واحد. لأنا نقول: كما أن الولادة والتربية تتعلق على الحقيقة بالوالدين ولكن تتفاوت حال الولادة والتربية تفاوتاً فاحشاً.

فإن تعلق الولادة تعلق لا يشارك الوالدين فيه غيرهما ولا يقوم أحد مقامهما وتعلق التربية تعلق يمكن أن يشاركهما فيه غيرهما. فإنه كثيراً ما يتفق أن يربى الصبي غير الوالدين ويرضع الطير لا الوالدة، فكذلك حال جنين العبودية في رحم إرادة المريد يتعلق ظهوره وانعقاده على حسب تقدم الحق سبحانه وتعالى بشيخ، فإذا تولد الجنين الذي هو السالك حقيقة وصلح لتربيته غيره يمكنه أن يسترضع عن شيخ هو كالطير التي يقوم مقام الأم وهذا أيضاً من خفيات لطائف الحق ودقائق دارقيته وحينئذ يتولى تربيته شيخ آخر، إما بسبب وفاة شيخه كما كان حال الشيخ أبي النجيب السهروردي - رضي الله عنه -، فإنه لما مات شيخه أحمد الغزالي، استفاد بإشارته بعده عن الشيخ حماد الدباس، وإما بسبب رزقه عن تربية شيخ آخر ساقه القدر إليه، كما كان حال الشيخ أبي عثمان الحيري.

أما إذا كان جنين العبودية بعد في الانعقاد وما تم بولده فلو اتصل بشيخ آخر فسد حاله وسقط الجنين سقطاً فلا يصلح منه شيء ويبقى مع تصرفات النفس، فإن غلبت عليه أهلكته، وإن لم تغلب عليه بل انقادت لقلبه دخل الجنة وصار من أهلها واشتغل بنعيمها وفاز بالذي اشتهت به نفسه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥﴾ [يس: ٥٥] وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ﴾ [فصلت: ٣١] . فإن مات الشيخ وهو بعد في إرادته وما تم الانعقاد، فإن ساعده القدر وأدركته العناية لزم خدمة شيخ مناسب الولاية شيخه من غير فترة، فيتصل تصرفه بتصرف شيخه فيستنتجه كالبيضة التي كانت مدة تحت دجاجة مثلها من غير فترة أخرجت الفرخ، وإن وقعت فترة بردت البيضة فيها فسدت، فأما إذا كان المريد فيها تحت تصرف شيخ فأزاغه الشيطان إلى إرادة شيخ آخر انقطع عنه واتصل بالآخر فأبى للحق سبحانه أن يكلمه بذلك الآخر ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ [الفتح: ٢٣] ويستحيل أن

يبقى مع ذلك الآخر إلا بحظ النفس، فيصير ضحكة للشيطان وعبرة للسالكين. اللهم إلا أن يرى الشيخ بعد الانعقاد فيه صلاحية بتربية غيره فيدفعه إليه، أو يرى قبل الانعقاد أن الله تعالى ينتجه من غيره، ويرزقه الكمال من آخر، فلا يتصرف فيه بل يشير إليه قبل التصرف ليستعد بخدمة من رزق منه.

كما يحكى عن الشيخ أبي القاسم القشيري، أنه أشار إلى الشيخ أبي علي الفارمذي بملازمة خدمة الشيخ أبي القاسم الجرجاني، - قدس الله أرواحهم -.

الشرط الثامن: ترك الاعتراض على الله سبحانه وتعالى، فإن من لوازم أمر المريد: أن يغتسل وينوي في غسله أنه غسل الميت، فيكون بين يدي الله سبحانه كالميت بين يدي الغاسل ويسلم لرب العالمين. ألا ترى إلى النبي - ﷺ - كيف كان يدعو كل ليلة عندما يضع جنبه على الأرض لاستراحة النوم ويقول: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك»[1] الحديث، فكذلك المريد: يسلم نفسه إلى الله فلا يعترض على الله ألبتة فإن رزقه بسطاً شكره عليه ويتيقن أن الباسط هو الله، وإن ابتلاه بقبض شكره عليه أو صبر فيه ويتيقن أن القابض هو الله تعالى، فإن مثل المريد مع الله كمثل المريض مع الطبيب، فإذا تيقن المريض أن الطبيب عالم بدقائق الطب مشفق على حاله فوض أمره إلى رأيه، وترك الاعتراض عليه، فإذا سقاه الحلو قبله وشربه وإن سقاه المر قبله وشربه، وعلم أن الحلو في وقته أنفع من المر والمر في وقته أنفع من الحلو، فكذلك المريد إذا تحقق عنده أن الله لطيف بعباده رحيم عليهم، رؤوف بهم، وأنه سبحانه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وتيقن أنه ظالم على نفسه ساع في هلاك قلبه وروحه، جاهل بما فيه فوزه ونجاته أو هلاكه وشقائه فوض أمره إليه واستسلم لقضائه، فإذا طيب وقته ورزقه البسط شكره وتيقن أن شقاء قلبه ومعالجة مرضه به، فإذا ضيق الأمر عليه وابتلاه بالقبض شكره وتيقن أن صحة قلبه يتعلق به ومعالجة مرضه في ذلك الوقت مستورة فيه:

وكلت إلى المحبوب أمري كله ... فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦] فإذا استعد بالتسليم في الابتداء بلغه التسليم إلى كمال العبودية في الانتهاء.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب ما يقول الرجل إذا نام. . .، حديث رقم (٢٦٥٢٦).

نقل عن الشبلي أنه قال: لو خيرني الحق سبحانه وتعالى بين الجنة والنار لاخترت النار، لما فيه خلاف النفس. فنقل هذا الكلام إلى الجنيد، فقال: هذا كلام الأطفال، فقيل له: فما تقول أنت؟ فقال: لو خيرني لقلت: أنا العبد وليس للعبد خيرة.

فسبيل المريد في الابتداء: أن يؤثر كل ما يخالف نفسه على ما يوافقها ولا يسكن إلى ما فيه شرب النفس كما كان حال «الشبلي»، وسبيل البالغ في العبودية أن لا يختار إلا ما اختاره الله تعالى كما كان «الجنيد»، ولن يبلغ أحد هذه المنزلة الرفيعة إلا على سبيل التدرج (ومبدأ التدرج) هو ترك الاعتراض على الله. إلى هنا كلام الشيخ - رضي الله عنه - في شرائط الخلوة وكيفيتها.

قلت: ومن شرائطها ترك الاعتراض على شيخه في جميع معاملاته معه ومع غيره من المريدين وغيرهم ويكون متحققاً أن لا يحيط علمه بعلوم الشيخ، فإنه يرى الشاهد ما لا يرى الغائب ويستسلم له في جميع الأحوال.

فإن بالاعتراض والتمرد تنسد روزنة القلب التي هي مفتوحة إلى ولاية الشيخ ومنها يدخل ضوء أنوار الولاية فيتنور قلب المريد ويتقوى به فإذا انسدت حرم عن الاقتباس واستولت عليه ظلمة النفس ووجد الشيطان مجال التصرف ويعتريه غيرة الولاية وردها، ومنها يتولد آفات لا تدارك لها.

فأما آداب الخلوة: فمنها: أنه يجلس فيها كما يجلس في مجالِس الملوك.

قال بعضهم: كنت جالساً في الخلوة فمددت رجلي فسمعت هاتفاً يقول: أهكذا تجالس الملوك. قال الله تعالى: أنا جليس من ذكرني. فلا يمد رجله فيها ويجلس مستقبل القبلة مربعاً واضعاً يديه على فخذيه ويواظب على كلمة «لا إله إلا الله» كما شرحنا في الذكر. وإذا خرج للوضوء أو للصلاة يمشي ويرجع متنكس الرأس لا يلتفت يميناً وشمالاً حاضر القلب ذاكراً، ومنها أنه إذا عرض الوقائع على الشيخ لا يزيد فيها ولا ينقص منها، ولا يقصها على غير الشيخ، ويضبط قول الشيخ في تأويلها ولا يشرع في حديث غير الوقائع ولا يبرمه بتطويل الكلام ويعظمه دخولاً وخروجاً، ومنها أنه يكون متوجهاً إلى الله بحيث لا يتطرق إليه الملالة والسآمة، وإن عارضه عارض من الأمراض والعلل وغيرهما لا يزعجه عن الخلوة إلا بالموت ليكون باب تصرفات النفس والشيطان عليه مسدوداً. والله أعلم بالصواب.

عن أبي عبد الرحمٰن السلمي، قال: سمعت «أبا تميم المغربي» يقول: من أخبار الخلوة على الصحبة: ينبغي أن يكون خالياً من جميع الأذكار إلا ذكر ربه وخالياً من جميع المرادات إلا مراد ربه وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأشياء، فإن لم

يكن بهذه الصفة فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية.

قال أبو بكر الوراق: «وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلة ووجدت شرهما في الكثرة والاختلاط.

روى أن داود ـ عليه السلام ـ لما ابتلى بالخطيئة خر لله ساجداً أربعين يوماً وليلة حتى أتاه الغفران من ربه.

وأما فتوحات الأربعينية، فأكثر من أن تحصى وأعظم من أن تروى، فإنها من المواهب، والمواهب على قدر المراتب، فكما لا نهاية للمراتب لا نهاية للمواهب.

ففتوحات أهل البدايات من اللوامع والبروق والطوالع والسواطع والطوارق واللوائح، وهي التي استخرجت باصطكاك غيوم البشرية عند هبوب نسمات الذكر من أنوار شموس الصفات الروحانية، فتفيد التلذذ بالمعاني العقلية ثم التنعم بحقائق الصفات القلبية ثم التواجد بالواردات الروحانية والتشوق بالإلهامات الربانية.

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كتماناً وتخبر عن جمع

وفتوحات أهل الوسائط من المحاضرات والمكاشفات والمشاهدات. فصاحب المحاورة حاضر بالقلب في مقام القرب باستيلاء سلطان الذكر فهو متنعم بنعيم الدرجات الفردوسية، وصاحب المكاشفة قد كشف عنه الغطاء ورفع عنه العماء وتبدل بيانه بالعيان واستغنى عن البرهان، وصاحب المشاهدة: مستغرق في بحر شواهد الأنوار وآثار قرب الجوار، وقد صحت سماء سره عن غيوم أوصاف نفسه، وتجلت شمس روحه مشرقة بشهود أنوار الغيب فصار ليله نهاراً وخفيه جهاراً، كما قيل:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري

والناس في سدف الظلام ونحن في ضوء النهار

وفتوحات أهل النهايات: من الفناء والبقاء ودوام اللقاء، فصاحبها بدوام الذكر بعد أن أفنى أفعال نفسه في أفعال ربه بملازمة الشريعة، وصفاته في صفاته بمزاولة الطريقة حتى يتجوهر القلب بنور الذكر، وتعدى الذكر عن كسوة الحرف والصوت وانطبع نوره في مرآة القلب المصفاة عن دنس أوصاف البشرية، ثم يسرى إلى الروح ويتجوهر الروح بجوهر الذكر ويتخذ الذكر والذاكر فيكون الذكر ذكر الذات، وحينئذ يتنور أجزاء الموجودات بنور ذكره لأنه محيط بها وبذكر الله معه، ثم إليه يصعد الكلم الطيب والذكر الطيب هو الذي لم يكن معلولاً بعلة دنياوية ولا أخراوية ويكون خالصاً لله بأن يذكره ببذل وجوده وإفنائه فيه بمباشرة الحقيقة على مقتضى حقيقة قوله: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ [البَقَرَة: ١٥٢] فيبقيه به على قضية ﴿اذكركم﴾ وهو عبارة عن تجلي

جماله الموصوف بالمذكورية لذاكريته ليفنيه عنها ويبقيه بمذكوريته، ثم يكون المحو عما يذوق من تجلي صفات الجمال ثم المحو والطمس عما يصادفه من تجلي صفات الجلال، فمن فني عن أفعاله فهو باق بأفعال الله تعالى، ومن فني عن صفاته فهو باق بصفات الله ومن فني عن ذاته فهو باق بذات الله. كما قال قائلهم:

وقوم تاه في أرض بقفر ... وقوم تاه في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا ... وأبقوا بالبقاء بقرب ربه

وقيل: فالأول، فناء صفاته ببقائه بصفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق وشهود الحق، ثم فناؤه من شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق وهو فناء الذات في الذات، وهذا تحقيق قول من قيل له: «إما أنا وإما أنت وإلا فلا نجتمع».

قاتلني وسيفه مسلول ... فقال لي واحدنا مقتول

قلت:

قلبي نهبوا ومن حياتي نالوا ... قد ملت إليهم ومني نالوا
إذ قلت بما أعيش قولوا ... بالحب فعش وحبهم قتال

الباب العاشر
في معرفة الروح ومقاماته

الفصل الأول
في معرفة الروح وماهيته

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال رسول الله - ﷺ -: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»(١)، وقال: «أول ما خلق الله روحي».

فاعلم أن الناس في أمر الروح ومعرفته تحزبوا أحزاباً كثيرة من الحكماء الأوائل والعلماء المتقدمين من الصحابة والتابعين والمتأخرين من المشايخ المعتبرين، أو أطنبوا فيه الكلام وأكثروا فيه الاختلاف وأطلقوا عنان النظر في مسارح الفكر وخاضوا غمرات ماهية الروح، فأكثرهم تاهوا في التيه وتنوعت آراؤهم فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح إلا ما شاء الله، فنحن لا نطول بنقل مقالاتهم وتقرير خيالاتهم. فإن أكثرها نتائج العقول المشوبة بآفة الوهم والخيال ولم تكتحل عيونها بكحل الاقتداء بالأنبياء، فلم يصبها نور الاهتداء، وأما ما نقل عن الأئمة والعلماء الراسخين في العلم. فقال بعضهم: إنه جسم لطيف وقال بعضهم: إنه عرض. وقال بعضهم: إنه جوهر قائم بنفسه ولكنه مخلوق. وقال الأكثرون: إن الله تعالى أبهم علم الروح على الخلق واستأثره لنفسه حتى قالوا: إن النبي - ﷺ - لم يكن عالماً به قلت: جل منصب حبيب الله ونبيه - ﷺ - أن يكون جاهلاً بالروح مع أنه يكون عالماً بالله، وقد من الله عليه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] هب أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر الله أنه علمه ما لم يكن

---

(١) أخرجه ابن حجر في لسان الميزان [ج ٣ ص ٤٠٧]، وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٣١٥) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

يعلم، فسكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظاراً للوحي حين سألته اليهود فقد كان لغموضه يرى في معنى الجواب دقة لا يفهمها اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه قال: وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله تعالى، فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب المنور بنور الذكر، ولما عبروا بالسير عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب، وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر، وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفي عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزل الخفي ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار مشاهدات الجمال الخفي، وإذا أفنوا بسطوات تجلي صفات الجلال عن أنانية الوجود ووصلوا إلى لجة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى، وإذا استغرقوا في بحر الهوية وأبقوا ببقاء الألوهية عرفوا الله بالله ووحدوه حين وجدوه، هذا أوان إراءة ماهية كل شيء كما هي، هذا وقت ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، فحينئذ إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح، وقد يتحقق للعبد مقام كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً، فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش. ففي هذه الحالة كيف يبقى لمعرفة الروح خطر عند من هذه أحواله، وهو مع هذه المرتبة العلية والمواهب السنية من لواقط سواقط حبات سنبلات بيادر بوادر النبوة ونوادر الرسالة، فكيف بحال سيد المرسلين وخاتم النبيين وحبيب رب العالمين وأفضل الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليه وعلى آله أجمعين في معرفة الروح وهو الذي يقول: «علمت ما كان وما سيكون»(١).

ثم اعلم أن الروح لطيفة ربانية وهو أول شيء تعلقت القدرة بإيجاده في أمر كن، وإنما قلنا إنه رباني لاختصاصه بالإضافة إلى الحضرة الربانية قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] وهو جوهر نوراني قائم بنفسه والذي يدل على قوله ـ ﷺ ـ: «إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»(٢) وأنه ليس بجسم ولا عرض لأنه أول مخلوق، وهو جوهر بسيط والجسم مركب، والعرض يحتاج إلى محل وقد بينا في فاتحة الكتاب: أن الجسم إذا قبل صورة لا يمكنه أن يقبل صورة غيرها من جنسها إلا أن يخلع الصورة الأولى ويفارقها، والروح ليس بهذه الصفة وذلك لأنه إذا

(١) لم يرد بهذا اللفظ إنما ورد بألفاظ أخرى تفيد هذا المعنى منها ما رواه أحمد في المسند عن أبي سعيد الخدري، حديث رقم (٧٥٢) [ج ٢ ص ٣٣١].

(٢) أورده ابن حجر في لسان الميزان، [ج ٣ ص ٤٠٧]. وأورده غيره.

قبل صورة معقول ما، وثبت تلك الصورة فيه ازداد بها قوة على تصور معقول آخر إليها من غير أن يفسد الصورة الأولى فلا يكون جسماً، وهو أصفى الجواهر وأنورها وأعلاها وأقربها إلى الحضرة، وهو المستعد لخلافة الله تعالى في الأرض، وهو الحي السميع والبصير المتكلم العالم القادر المريد الباقي، خلافة عن الله عز وجل. وقد عرفه الله بقوله: قل الروح من أمر ربي أي من قبيل عالم الأمر لا من قبيل عالم الخلق، وذلك أن الله تعالى خلق العوالم كثيرة، كما جاء في الخبر بروايات مختلفة، فقال في بعض الروايات: «خلق ثلاثمائة وستين ألف عالم»[١] وفي رواية أخرى: «وسبعين ألف عالم»[٢]، وفي رواية: «ثمانية عشر ألف عالم»[٣]، ولكنها محصورة في عالمين اثنين وهما الخلق والأمر. كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فعبر عن عالم الدنيا وهو ما يدرك بالحواس الخمس الظاهرة بالخلق وعبر عن عالم الآخرة وهو ما يدرك بالحواس الخمس الباطنة. وهي: العقل والقلب والسر والروح والخفي بالأمر. فعالم الأمر هو الأوليات العظائم التي خلقها الله تعالى للبقاء من الروح والعقل والقلم، وسمي عالم الأمر أمراً لأنه أوجده بأمر كن من لا شيء بلا واسطة شيء. كما قال: ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تكن شيئاً﴾ ولما كان أمره قديماً فما كون بالأمر القديم كان باقياً وإن كان حادثاً. وسمي عالم الخلق خلقاً لأنه أوجده بالوسائط من شيء مخلوق سماه خلقاً خلقه الله للفناء. فتبين أن قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥] إنما هو لتعريف معناه أنه من عالم الأمر والبقاء. لا من عالم الخلق والفناء وأنه ليس للاستبهام كما توهموه جماعة.

ثم اعلم أن الروح الذي تعلقت به القدرة بأمر كن أولاً هو روح النبي - ﷺ - لقوله: «أول ما خلق الله روحي»[٤] وفي رواية: «نوري»[٥] فإن قيل: روى أنه - ﷺ - قال أيضاً: «أول ما خلق الله العقل»[٦] وقال: «أول ما خلق الله القلم»[٧]. وقال: «أول ما خلق الله تعالى جوهره»[٨] ولا يحتمل أن يكون المخلوق الأول المطلق إلا واحداً؛ لأن الشيئين المتغايرين لا يكون كل واحد منهما أولاً في التكون والوجود على الإطلاق. إذ لا يخلو إما إذ أحدثا مصاحبين أو أحدثا متعاقبين: فإن أحدثا مصاحبين معاً فلا يختص أحدهما من

---

(١) و(٢) و(٣) أوردها الألوسي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وننزل من القرءان ما هو شفاء﴾.
(٤) و(٥) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٨٢٦) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
(٦) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٨٢٦) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.
(٧) المرجع السابق حديث رقم (٨٢٢).
(٨) المرجع السابق حديث رقم (٨٢٣).

الآخر بالأولية فلا يكون واحد منهما أولاً على الانفراد وإن أحدنا متعاقبين يكون المبتدأ أولاً والمتعاقب ثانياً فيكون الأول واحداً منهما لا محالة. ولا يجوز الخلف في كلام النبي - ﷺ - لأنه جاء بالصدق وأنه - ﷺ - قد أثبت الأوليات. قلنا المخلوق الأول هو مسمى واحد وله أسماء مختلفة فبحسب كل صفة فيه سمي باسم آخر، وقد كثرت الأسماء والمسمى واحد وهو الأصل وما سواه تبع، فلا ريب أن أصل الكون كان النبي - ﷺ - لقوله: لولاك لما خلقت الكون فهو أولى أن يكون أصلاً وما سواه أولى أن يكون تبعاً له، لأنه كان بالروح بذر شجرة الموجودات وهي سدرة المنتهى، فكما أن الثمرة تخرج من فرع الشجرة كان خروجه إلى قاب قوسين أو أدنى، ولهذا قال: نحن الآخرون السابقون أي السابقون بالخروج كالثمرة، والسابقون بالخلق كالبذر، فيلزم من ذلك أن يكون روحه - ﷺ - أول شيء تعلقت به القدرة وأن يكون هو المسمى بالأسماء المختلفة، فباعتبار أنه كان درة صدف الموجودات سمي درة وجوهرة. كما جاء في الخبر: «أول ما خلق الله جوهرة»[(١)]. وفي رواية «درة»[(٢)]. فنظر إليها فذابت فخلق منها كذا. وإنما باعتبار روحانيته سمي روحاً وباعتبار نورانيته سمي نوراً وباعتبار وفور عقله سمي عقلاً.

ونقل عن بعض الكبراء من الأئمة: أن أول المخلوقات على الإطلاق ملك كروبي يسمى العقل. وهو صاحب القلم بدليل توجه الخطاب عليه في قوله أقبل، فأقبل ثم قال له: أدبر فأدبر والحديث قول النبي - ﷺ -: «أول ما خلق الله العقل. فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، بك أعرف وبك آخذ وبك أعطي وبك أعاقب وبك أثيب»[(٣)].

وفي رواية: «وبك أعبد» ولما سماه قلماً. قال له أجر بما هو كائن إلى يوم القيامة وتسميته قلما كتسمية صاحب السيف سيفاً.

وقد قيل لخالد بن الوليد - رضي الله عنه - سيف الله فباعتبار غلبة صفاته الملكية يسمى ملكاً. وسمي الملك عقلاً لوفور عقله، وقلما باعتبار كتابته على لوح الوجود، وإذا أمعنت النظر وجدت كلما وصف النبي - ﷺ - به العقل وحكى عنه هو خاصية من خواص روحه الشريف - ﷺ - وهو قوله: «أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر» وهذا حال روحه - ﷺ - أنه أول ما خلق الله من خلق. إذ قال له أقبل إلى الدنيا على طريق التجارة لتربح من تجارتك أسباباً تحتاج إليه في المعرفة، فإن روحك كان عارفاً

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) هذا الحديث سبقت الإشارة إليه.

(٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

بكليات عالم الأرواح. وهو الغيب جاهلاً بجزئياته، وكليات عالم الأجسام وجزئياته وهو الشهادة، فتحصل من آلات الحواس الخمس والقوى البشرية ما تصير به عارفاً بكليات الغيب والشهادة وجزئياتها لتكون بالخلافة عالم الغيب والشهادة ثم قال له: أدبر أي ارجع إلى ربك فأدبر عن الدنيا، فقال له ما لي وللدنيا.

ورجع إلى ربه ليلة المعراج، ثم قال للعقل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، وهذا أيضاً حاله - ﷺ - أنه كان حبيب الله وأحب الخلق إليه، وقوله تعالى للعقل: «بك أعرف وبك آخذ وبك أعطي وبك أعاقب وبك أثيب»(١). فهذا كله حاله - ﷺ - لأنه من لم يعرف النبي - ﷺ - بالنبوة والرسالة لم يعرف الله ولو كان له ألف دليل على معرفة الله.

فمعناه بمعرفتك أعرف، أي من عرفك بالنبوة عرفني بالربوبية، وبك آخذ أي آخذ طاعة من أخذ منك ما أتيته من الدين والشريعة وبك أعطي، أي بشفاعتك أعطي درجة أهل الدرجات. كما قال - ﷺ -: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي حتى إبراهيم» وبك أعاقب وبك أثيب وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨١] فالله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بعثه بأن يؤمن بمحمد - ﷺ - ويوصي أمته بالإيمان به ونصرة دينه، فمن آمن به من الأمم الماضية قبل بعثته فهو من أهل الثواب. ومن لم يؤمن به من الأولين والآخرين فهو أهل العقاب، فصح فيه قوله: «بك أعاقب وبك أثيب» فكل ما ذكرناه في معرفة الروح فهو حال النبي - ﷺ - ومقاله، فكيف يظنُّ به أنه لم يكن عارفاً بالروح، والروح هو نفسه، وقال «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(٢) وذلك أن الله لما خلق آدم ونبيه جعلهم الله خلفاء في الأرض كما قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النَّمل: ٦٢] فمن شرط الخلافة أن يكون المستخلف مجتمع أوصاف المستخلف بالخلافة إلا ما اختص به المنوب بالأصالة، مثل القدم والأحدية والصمدية والكبرياء والعظمة والسلامة عن عيب ونقصان، فالروح خليفة الله وهو مجتمع صفاته الذاتية كالحياة والقدرة والسمع والبصر والكلام والعلم

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، الأصل السادس والمائتان في أن الاعتبار في الاجتهاد بعقد العقل، (ج ٢ ص ٣٥٣). وأورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٧٢٢) طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

والإرادة والبقاء، والجسد خليفة الروح، وهو مجتمع صفاته التي باجتماعها في الروح علمنا أنه خليفة الله، وبذلك علمنا أن الجسد خليفة الروح، لأنا وجدنا الجسد قبل اتصال الروح به وبعد انفصاله عنه خالياً عن هذه الصفات، فلما تعلق الروح به وجدنا فيه هذه الصفات علمنا أنه بخلافة الروح اتصف بهذه الصفات ولو لم يكن الروح متصفاً بهذه الصفات لخلافته الحق تعالى لم يكن الجسد بها متصفاً، فبقي أن الروح باق أبداً والجسد فان، فإن قلنا: وذلك لأن البقاء الأبدي من خاصية الروح فهو مختص بالأصالة دون خليفة وهو الجسد فإنه حادث أبدي دون أزلي.

ثم اعلم أن الأرواح كلها خلقت من روحه - ﷺ - كما روينا في حديث جابر وأن روحه أصل الأرواح، ولهذا سمي أمياً، أي: أم الأرواح، فكما كان آدم - عليه السلام - أبا البشر، كان النبي - ﷺ - أبا الأرواح وأمها. كما كان آدم أبا حواء وأمها، وذلك أن الله تعالى لما خلق روح النبي - ﷺ - كان الله ولم يكن معه شيء إلا روحه وما كان شيء آخر حتى ينسب روحه إليه أو يضاف إليه غير الله. فلما كان روحه أول باكورة أثمرها الله تعالى بإيجاده من شجرة الوجود وأول شيء تعلق به القدرة شرفه بتشريف إضافته إلى نفسه تعالى فسماه روحي، كما سمى أول بيت من بيوت الله وضع للناس وشرفه بالإضافة إلى نفسه فقال له: بيتي. ثم حين أراد أن يخلق آدم سواه ونفخ فيه من روحه أي: من نفخ الروح المضاف إلى نفسه وهو روح النبي - ﷺ - كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] فكان روح آدم من روح النبي - ﷺ - بهذا الدليل، وكذلك أرواح أولاده لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [:]. وقال في مريم - عليها السلام -: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فكان النفخ لجبريل - عليه السلام - وروحها من روح النبي - ﷺ - المضاف إلى الحضرة وهذا أحد أسرار قوله - ﷺ -: آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة(١). وقد أتى النبي - ﷺ - بروحه ليلة المعراج في صورة ملك فعرفه حق المعرفة كما جاء في حديث المعراج فيما يرويه عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهما في حديث طويل إلى أن قال - ﷺ - ثم رأينا ملكاً قد امترقت رجلاه في الأرضين السفلى وامترق رأسه من السماء السابعة العليا غلظ كل جناح من أجنحته مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل جناحين مسيرة خمسمائة عام للراكب المسرع، ومن لدن رأسه إلى منتهى قدميه ممتلئاً

---

(١) رواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب في فضل النبي ﷺ، حديث رقم (٣٦١٥). ورواه أحمد في المسند عن عبد الله بن عباس، حديث رقم (٢٥٥٠).

وجوهاً ونوراً ففي كل جزء منه وجوه كثيرة يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى، لا يشبه وجهٌ وجهاً ولا لغةٌ لغة ولا عينٌ عيناً، ليس فيه عين إلا فيه من البرق والنور ما لا يحصى، في جانب من جسده نور أحمر وفي جانب نور أصفر، وفي جانب نور أخضر وفي جانب نور أبيض وليس في جسده من أعضائه وريشه وبشرته وشعره جزء إلا وهو يسبح بتسبيح آخر فيخرج في كل يوم من تسبيحه بعدد ما خلق الله من الملائكة يسبحون لو أراد أن يلتقم السمٰوات السبع بلقمة واحدة لأطاق لا يستطيع أحد من الملائكة ينظر إليه من نوره، لا جبريل ولا ميكائيل ولا الكروبيون، وهو الروح المذكور في القرآن يرفع إليه أمور أهل السمٰوات والأرضين، وهو يرفعه إلى الله تعالى وهو صاحب الحجب وصاحب سرادقات العرش وهو كاتب الرحمٰن. فاعلم أنه الروح الأعظم والنور الأكبر الذي هو أول شيء تعلقت به القدرة بأمر كن كما صرح النبي - ﷺ - في هذا الحديث فقال وهو الروح المذكور في القرآن وقوله: «من لدن رأسه إلى منتهى قدميه كان ممتلئاً» إشارة إلى أن كل وجه من وجوهه وجه روح ينشأ منه الأنبياء والأولياء والمؤمنين والأمثل فالأمثل، على حسب علو منشئها وسفلها وقوله: يسبح كل لسان في هذه الوجوه بلغة أخرى لا يشبه وجه وجهاً ولا لغة لغة ولا عين عيناً. فهكذا وجوه الخلق ولغاتهم وعيونهم لا يشبه واحد منها واحداً وفي الحديث دليل على أن أرواح الملائكة تنشأت منه أيضاً. وقوله: يرفع إليه أمور أهل السمٰوات والأرضين وهو يرفعه إلى الله تعالى هذا حال الروح الأعظم مع الأرواح المنشأة منه وهو الروح المقدور الأول روح حبيب الله ونبيه - ﷺ - كما أخبر عن هذا الحال بقوله: «تعرض علي أعمال أمتي فأستبشر لمحسنها واستغفر لمسيئها»[1] وهو صاحب الحجب إذ به يرفع الحجب، وهو صاحب سرادقات العرش الذي به يعبر عنها وهو كاتب الرحمٰن إذ سماه القلم، بنوره كتب الله حروف الموجودات على صحيفة العدم كما قال تعالى: لولاك لما خلقت الكون وهذا كما يقول الزراع للبذر لولاك لما زرعت الشجرة، وذلك أن روح النبي - ﷺ - كان أول مخلوق وكان بمثابة البذر لشجرة الموجودات في البداية، ثم كان شخصه بمثابة الثمرة لشجرة الموجودات في النهاية، كما قال - ﷺ -: «نحن الآخرون السابقون»[2] فكما أن جميع أجزاء الشجرة يتنشأ من البذر كذلك يتنشأ جميع أجزاء شجرة الموجودات من بذر روحه

---

(١) رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك حديث رقم (١٢٠٤٢).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، حديث رقم (١٩- ٨٥٥). ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة، حديث رقم (٧٤١٩) ورواه غيرهما.

ملكها وملكوتها كما مر شرحها في حديث جابر وحديث المعراج والله أعلم.

الفصل الثاني
في مقامات الروح

فمنها: الإرادة: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال رسول الله - ﷺ -: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله» فقيل له: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفقه للعمل الصالح قبل الموت»(١).

اعلم أن المشايخ تكلموا في بيان الإرادة على ما فتح الله لهم وسانحهم الوقت به، وأكثرهم أخبروا عن إمارات الإرادة وموجباتها ومقتضياتها لا عن حقيقة الإرادة وماهيتها. حتى قالوا: «الإرادة ترك ما عليه العادة، وعادة الناس في الغالب التعريج في أوطان الغفلة والركون إلى اتباع الشهوة والاختلاف إلى ما دعت إليه المنية. فالمريد ينسلخ عن هذه الجملة فصار خروجه إمارة ودلالة على صحة الإرادة. فيسمى تلك الحال إرادة، وهي خروج عن العادة فهي إمارة الإرادة. وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: فأما حقيقة الإرادة فهي نهوض القلب في طلب الحق تعالى. ولهذا قال إنها لوعة تهون كل روعة قلت: وهذا أيضاً إمارة الإرادة لا حقيقتها.

فأما حقيقة الإرادة: فهي صفات من صفات الله تعالى، القديمة الأزلية الأبدية القائمة بذاته تعالى. فلما خلق الله الروح جعله قابلاً لعكس صفاته خلافة عنه. ولما خلق النفس جعلها قابلة لعكس صفات الروح خلافة عنه، فمن غلبت نفسه روحه كانت إرادته إلى الدنيا وما فيها، ومن غلب روحه نفسه كانت إرادته أخراوية. كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فلا تتجاوز الإرادة الإنسانية عن هاتين المرتبتين إذا وكلت إلى طبعها.

فأما الإرادة الحقيقية التي تنزهت عن الدنيا والآخرة فهي تريد وجه الله تعالى فحسب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝﴾ [الإنسان: ٩] أي: جزاء في الدنيا وشكوراً في الآخرة. وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] فهي نور من أنوار جماله تجلى به لأرواح خواص عباده يوم خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره. فمن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن البصاق في المسجد، وورواه الحاكم في المستدرك، كتاب المغازي والسرايا، حديث رقم (٤٣٢٧).

أصابه ذلك النور فقد هدي إلى الإرادة ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزُّمَر: ٢٢].

ثم من إمارات الإرادة ما قاله أبو علي الدقاق: الإرادة لوعة في الفؤاد، لذعة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن نيران تأجج في القلوب. ومن إمارة صدق الإرادة أن يشاهد المريد بنور الإرادة جمال ولاية مراده وهو شيخه، فيعشقه.

ومن إمارة عشقه أن ينسلخ من إرادة نفسه بالكلية فيكون مريد مراد مراده فلا يخالفه في شيء مما أمره به، كما حكي عن حال أحمد بن أبي الحواري مع أبي سليمان الداراني، كان بين أحمد وبينه عقد لا يخالفه فيما يأمر فجاءه أحمد يوماً وهو يتكلم في مجلسه، وقال: إن التنور قد سجر فما تأمر؟ فلم يجبه. فقال مرتين وثلاثة. فقال أبو سليمان: اذهب فاقعد فيه كأنه ضاق به صدره. فقال: وتغافل أبو سليمان ساعة ثم ذكر. فقال: اطلبوا أحمد فإنه في التنور، لأنه على عقد أن لا يخالفني. فنظروا فإذا هو في التنور لم يحترق منه شعرة.

فهذه تحقق صدق الإرادة التي من مواهب الحق تعالى ثم تقول إن القوم قد عدوا المواهب من الأحوال والمكاسب من المقامات. ولكنا وجدنا فرقاً دقيقاً بين المواهب المقاماتية والمواهب الأحوالية. فالمواهب المقاماتية ما خص الله تعالى به خواص عباده في بداية الفطرة من رشاش النور وإصابته وذلك بمثابة البذر فبالتربية وهي الكسب يبلغ مبلغ كماله كما قال النبي - ﷺ -: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله»(١).

فإرادة الله بالعبد الخير موهبة منه، والاستعمال هو كسب العبد وهو تربية بذر الإرادة، يبلغ المريد بها مقام المرادية، وأما المواهب الأحوالية ما وهبه الله في أثناء السلوك ونهايته من الشواهد والبواده والواردات والكشوف وأمثالها. فلهذا الفرق جعلنا المواهب المقاماتية من مقامات الروح لمدخل الكسب فيها، ولأن الروح مورد المواهب أولاً تسري آثارها إلى القلب ومنه إلى النفس ومنها إلى البدن فمنهما تصل إلى القلب تنشأ فيه أخلاق كريمة وأحوال سنية وإذا سرت إلى النفس تبدل صفاتها الذميمة بالصفات الحميدة. وإذا سرت إلى البدن تظهر عليه الطاعات والعبادات ثم تنور الطاعات والعبادات بتنور الصفات والأخلاق، وتصفو الأحوال وتزداد المواهب إلى أن يصير المريد مراداً للحق تعالى وللخلق. والله أعلم.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

ومنها الاستقامة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «استقيموا ولن تحصوا»(١). وقال: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ولا يستقيم لسانه حتى تستقيم جوارحه، ولا تستقيم جوارحه حتى تستقيم أعماله»(٢).

اعلم أن الاستقامة من خصائص الروح. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التِّين: ٤] أي: الروح الإنساني والاعوجاج من خاصية النفس. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف: ٥٣] والقلب خلق متوسطاً بينهما بين اصبعي اللطف والقهر قابلاً لكلتا الصفتين. فإن أيد الروح بالإيمان وروح من الله يبقى على استقامته ويتنور القلب بنور الإيمان ويستقيم به. قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجَادلة: ٢٢] وقال النبي ـ ﷺ ـ: «لا يستقيم إيمان أحدكم حتى يستقيم قلبه»(٣). الحديث. وإن وكلت النفس إلى اعوجاجها تعدى عوجها إلى القلب فيتصف بصفاتها. اعلم أن الشرع قد نزل لتقويم عوج النفس واستقامة جميع الأركان الظاهرة والباطنة على ما هو المستحق به كما أمر. قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هُود: ١١٢] ليخرج عن ظلمة ما طبع عليه إلى نور ما أمر به، فإن الخلق خلق في ظلمة الطبع ثم رش عليهم من نور الشرع. قال تعلى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٧].

فاستقامة اللسان في تحري الصدق، وترك الكذب والغيبة والبهتان والنميمة والفحش والرفث وما لا يعنيه في ملازمة الذكر.

واستقامة كل عضو من الأعضاء في استعماله بإتيان ما أمر به، وانتهائه إلى مأموريتها بالخير واطمئنانها إلى ذكر الله، وعبوديته، وتبدل صفاتها الذميمة بالأخلاق الحميدة.

واستقامة القلب في توجهه إلى الله وإعراضه عما سواه وخلوه عن الأغيار وتوكله عليه وتعرضه لنفحات ألطافه قابلاً للفيض الإلهي وكشف الأسرار وشواهد الأنوار.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك كتاب الطهارة، حديث رقم (٤٤٧) ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الطهارة، باب المحافظة على الوضوء، حديث رقم (٢٧٧) ورواه غيرهما.

(٢) و(٣) رواه أحمد في المسند عن أنس بن مالك حديث رقم (١٣٠٥٣) ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (١٠٥٥٣) [ج ١٠ ص ٢٢٧] ورواه غيرهما.

واستقامة الروح في استغراقه في بحر المحبة واستلذاذه بمرارة المحبة.

واستقامة الخفي في قابليته لتجلي صفات الربوبية والتحلي بأخلاق الألوهية فانيا عن أنانية نفسه باقياً بهوية ربه. فأما استقامة الطريق فهي على ثلاثة أوجه: استقامة الطريق إلى النار: وهي على إقدام الشهوات. قال - ﷺ -: «حفت النار بالشهوات»(١).

واستقامة الطريق إلى الجنة: وهي على إقدام المكاره في نهي النفس عن هواها. قال تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ وقال - ﷺ -: «حفت الجنة بالمكاره»(٢).

واستقامة الطريق إلى الله تعالى: وهي علم إقدام المتابعة ولزوم المطاوعة قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥١، ٥٢] أثبتت للنبي - ﷺ - الهداية إلى هذا الصراط لا هداية الصراط، لأن الهداية إلى الصراط من المكاسب وهداية الصراط من المواهب. قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] وهذه الهداية: نور يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده. كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فمن تقرب إلى الله باستقامة المكاسب يتقرب إليه الله باستقامة المواهب ثم الاستقامة من لوازم كل مقام وحال، وبها الترقي من مقام إلى مقام، ومن حال إلى حال. فمن لم يكن له استقامة في كل مقام وحال يؤول أمره إلى إضاعة السعي وإبطال الجهد ويرجع القهقري قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ [النحل: ٩٢] فمن أمارات استقامة أهل البداية: الثبات على جادة الشريعة. ومن أمارات استقامة أهل النهاية: محافظة أحكام الحقيقة بخمود البشرية وصقالة مرآة القلب بإخراجه عن طبع الطبيعة، وتزكية الأوصاف الإنسانية بتحلية الأخلاق الربانية.

ومنها الحياء: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ [العلق: ١٤] وقال رسول الله - ﷺ -: ذات يوم لأصحابه: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي يا نبي الله والحمد لله. قال: «ليس ذاك ولكن من استحى من الله حق الحياء

---

(١) و(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة...، حديث رقم (١ـ ٢٨٢٢). ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب صفة الجنة، باب (٢١) حديث رقم (٢٥٥٩) ورواه غيرهما.

فليحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»(١).

اعلم أن الحياء من أوصاف الروح ومقاماته والحياء والعقل توأمان.

وذلك أن الله تعالى لما خلق الروح الأعظم وهو روح النبي - ﷺ - كما مر شرحه، وهو القلم فكان إحدى شقّيه: الحياء والأخرى: العقل. فلا ينفك أحدهما عن صاحبه فأينما يوجد العقل: يوجد الحياء، وأينما يفقد العقل يفقد الحياء. وقد جاء في الخبر: أن الله تعالى لما نظر إلى روح النبي - ﷺ - بنظر المحبة غلب عليه الحياء فتعرق روحه فخلق الله تعالى من قطرات عرقه الأنبياء - عليهم السلام - وقوله - ﷺ -: «خلق الورد الأحمر من عرقي»(٢) لعل من أصل هذا العرق أصله. ومن نتائج هذه الحقيقة أن من نظر الآن بنظر المحبة إلى محبوبه غلب عليه الحياء واحمر وجهه وتعرق.

وقيل الحياء على وجوه: حياء الجناية. كآدم - عليه السلام - لما قيل: أفرارا منا، قال: بل حياء منك. وحياء التقصير: كالملائكة، يقولون: ما عبدناك حق عبادتك. وحياء الإجلال: كإسرافيل - عليه السلام - تسربل بجناحيه حياء من الله تعالى. وحياء الكرم: كالنبي - ﷺ - كان يستحي من أمته أن يقول: اخرجوا، فقال الله تعالى - عز وجل -: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وحياء الحشمة: كعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه -. حين سأل المقداد حتى سأل رسول الله - ﷺ - عن حكم المذي لمكان فاطمة - رضي الله عنها - منه وحياء الاستحقار كموسى - عليه السلام - قال: عرض بالحاجة من الدنيا فاستحيي أن أسألك يا رب. فقال له - عز وجل -: سلني ولو ملح عجينك وعلف شاتك. وحياء الرب سبحانه وتعالى. يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعدما عبر الصراط وإذا فيه فعلت ما فعلت ولقد استحيت أن أظهر عليك فاذهب فإني قد غفرت لك.

وعن أبي سليمان الداراني يقول: قال الله تعالى عبدي إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك، ومحوت من أم الكتاب زلاتك، ولا أناقشك في الحساب يوم القيامة.

قلت: الحياء حياءان: حياء روحاني منشؤه إنسانية الإنسان مما استفاد الروح عن

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، حديث رقم (٧٩١٥). ورواه الترمذي في الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة. . ، باب (٢٤) حديث رقم (٢٤٥٨) ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

حياء الرب تعالى خصوصية الخلافة، فإن الله حيي كريم. ويحتمل أن يكون هذا الحياء من وصف الكافر كما كان لزليخا حين ألقت ثوباً على وجه صنم في زاوية البيت إذ همت بيوسف ـ عليه السلام ـ فقال: ماذا تفعلين؟ فقالت: أستحي منه وهي كافرة: في تلك الحالة.

وحياء رباني: منشؤه نور الإيمان كما قال ـ عليه السلام ـ الحياء من الإيمان، وهو برهان الرحمٰن كما كان ليوسف ـ عليه السلام ـ في قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: ٢٤] قيل: البرهان حياؤه من الله تعالى لما رأى ذلك الفعل من زليخا. قال: أنا أولى أن أستحي من الله تعالى. وهذا النوع من الحياء لا يكون إلا للمؤمن.

ومنه ما جاء في وصفه ـ ﷺ ـ أنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها[1]. وقد خص النبي ـ ﷺ ـ بهذا الحياء من الصحابة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنهم ـ بقوله: «أحياكم عثمان»[2].

ثم اعلم أنه ما عبر سالك مقاماً من المقامات إلا بحياء من هذا النوع على حسب حالته وحضوره مع الله تعالى وقربه منه. فإن الحياء من نتائج الحضور والقرب والمشاهدة. فحياء الحضور لأهل البداية، وأمارته الندامة على ما جرى منه والتوبة عنه ولوم النفس عن المخالفات المنهيات وترك الموافقات المأمورات والرجوع منه إلى الله تعالى وعبوديته. وحياء القرب: لأهل الوسائط بما يباعده من الله ويحجب عنه كما قال ـ ﷺ ـ: «من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى»[3]. الحديث أي السمع والبصر واللسان والفم والبطن. وما حوى». أي: النفس والقلب والفرج. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا أي: حلالها وحرامها مما زين للناس ويذكر الموت والبلي أي: يموت قبل أن يموت. كما قيل: مت بالإرادة تحيى بالحقيقة. وحياء المشاهدة: لأهل النهاية، وإمارته ذوبان الوجود حياء لشهود المعبود وترك الوجود.

ومنها الحرية: قيل في قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحَشر: ٩] إنما آثروا على أنفسهم لحريتهم عما خرجوا منه فآثروا به. وقال

(١) رواه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، حديث رقم (٦٧ـ ٢٣٢٠) ورواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ حديث رقم (٣٥٦٢). ورواه غيرهما.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك، ذكر مناقب زيد بن ثابت، حديث رقم (٥٧٨٤) [ج ٣ ص ٤٧٧] ورواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب (٣٣) حديث رقم (٣٧٩٠) ورواه غيرهما.

(٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

رسول الله ـ ﷺ ـ: «إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر»(١)، وإنما يرجع الأمر إلى الآخرة. أشار به النبي ـ ﷺ ـ: إن قناعة النفس على ما يكفيها من الطعام والثياب الضروري من الحرية عن رق عبودية الدنيا.

اعلم أن الحرية من أعلى مقامات القرب للروح وهي فك الرقبة عن رق عبودية الكونين. قال الله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝﴾ [البلد: ١١ ـ ١٣] يشير إلى أن اقتحامه عقبة المكونات في فك الرقبة عن رق عبوديتها وهي مقام العبدية مطلقاً ولم يتمكن أحد في هذا المقام من الأنبياء والمرسلين إلا محمد رسول الله ـ ﷺ ـ جميعا. والذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فقد سماه الله تعالى العبد مطلقاً وجعله كاسم العلم له ومن سماه العبد غيره سماه مقيداً كما قال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] وقال: ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] فتحقق أن الحرية عن الأغيار مودعة في عبودية الملك الجبار. فمن ازدادت عبوديته ازدادت حريته فللنفس عبودية الدنيا.

قال ـ ﷺ ـ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة»(٢). فإمارة حريته عنها بأن يتساوى عنده أحجارها وأعراضها كما كان لحارثة: قال لرسول الله ـ ﷺ ـ: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها(٣).

وللقلب: عبودية الآخرة، وإمارة الحرية عنه: الاستغناء عنها بالافتقار إلى الله تعالى. وللروح عبودية الدرجات والقربات والكرامات وإمارة حريته عنها: الإعراض عما سوى الله بالفناء فيه للبقاء به.

وقال بشر الحافي: من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى.

وقال الحسين بن منصور: إذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها يصير حراً من تعب العبودية. فيترسم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة. وذلك مقام الأنبياء والصديقين. يعني تصير العبودية مشربه، ويستلذ بعذوبتها بدلاً عن استمرار مشقتها.

---

(١) رواه ابن أبي سيبة في مصنفه ووقفه على أبي الدرداء، حديث رقم (١٢٠٥١) [ج٣ ص ٥٣]. وروى حديثاً آخر قريباً منه موقوفاً على ابن عباس، رقم (٣٤٥٥٢) [ج ٧ ص ١٠٦].

(٢) رواه ابن أبي شيبة من كلام عبد الله بن مسعود، حديث رقم (٣٤٥٥٢).

(٣) رواه عبد بن حميد في مسنده عن الحارث بن مالك الأنصاري حديث رقم (٤٤٥) [ج ١ ص ١٦٥] ورواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٣٣٦٧) [ج ٣ ص ٢٦٦] ورواه غيرهما.

وقال إبراهيم بن أدهم: الحر الكريم يخرج عن الدنيا قبل أن يخرج منها.

قلت: الحر الكريم من يخرج عن الكونين، وإن لم يخرج عنهما كما كان حال النبي - ﷺ - أُخرِجَ عن كون الدنيا بالبراق وجبريل، وأخرج عن كون الآخرة بالرفرف، وجذبه ادن مني. وأُخرِجَ عن كون أنانيته بتجلي كينونية ربه، فلهذا انفرد بالعبدية مطلقاً، وتوحد بالحرية مطلقاً، فكان عبداً لا يعبد إلا ربه وكان حراً لا يتعبد إلا لربه.

ومنها الفتوة: قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٣، ١٤] وقال رسول الله - ﷺ -: «الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم»(١).

اعلم أن الفتوة اسم جامع لمعان جميلة وخصال حميدة وأخلاق كريمة روحانية ومواهب سنية أولها الإيمان التحقيقي لا التقليدي كما كان لأصحاب الكهف ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣] بلا واسطة تقليد بل بنظر تحقيق، وكما كان لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إذ قال إبراهيم: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝﴾ [الصافات: ٩٩] ثم زيادة الهداية على الهداية. إنه كما قال: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝﴾ [الكهف: ١٣] ولا ريب أن الإيمان لا يكون إلا بالهداية فآمنوا بالهداية فزدناهم هدى. فهو هداية على الهداية. وقوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] أيضاً من الهداية. وقوله: ﴿سَيَهْدِينِ ۝﴾ [الصافات: ٩٩] طلب الهداية على الهداية كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فتوفيق المجاهدة في الله من الهداية، ثم قوله: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] الهداية على الهداية، ثم الربط على القلب، وهو بمنزلة السكينة قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤] أي: أنزلنا السكينة في قلوبهم وربطنا على قلوبهم ألا يلتفتوا إلى غير الله تعالى وهذا من المواهب السنية ثم العفة والتقى وبذل الفدى ومنع الأذى والتحول عن الإخوان والصفح عن عثراتهم والتعامي عن عيوبهم ورؤية فضلهم وأداء حقوقهم وأماناتهم والسعي في تعاونهم وتناصرهم وترافقهم والاجتناب عن مخاصمتهم ومخالفتهم.

ومن الفتوة الإيثار والرفد مع الوفد والإنصاف وترك الانتصاف والوفاء بالعهود والاحتراز عن الغدر والعفو عند المقدرة ونصرة المظلوم ورد المظالم والاستعلاء عن

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء...، باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن، حديث رقم (٣٨ـ ٢٦٩٩). ورواه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في المعونة للمسلم، حديث رقم (٤٩٤٦) ورواه غيرهما.

الغيبة والبهتان والمجانبة عن صحبة الأحداث والنسوان.

ومنها المحبة: قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] الآية. وقال رسول الله - ﷺ -: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»(١) وقال: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلاناً فأحبه فيحبه جبريل - عليه السلام -، ثم ينادي في أهل السماء إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض العبد...». قال مالك: لا أحسبه إلا قال في البغض مثل ذلك، وفي رواية نافع عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - في الحب قال: «وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول إني أبغض فلاناً فأبغضه قال فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه قال: فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض»(٢).

وقال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها؟ فلم يذكر كثيراً إلا أنه يحب الله ورسوله. قال: «فأنت مع من أحببت»(٣). وعن النبي - ﷺ - عن جبريل عن ربه - عز وجل - في حديث طويل قال: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ومن أحببته كنت له سمعاً وبصراً...»(٤). الحديث.

اعلم أن المحبة صفة من صفات الله تعالى كما أن الجمال صفة من صفاته. قال - ﷺ -: «إن الله جميل يحب الجمال»(٥) فكان في الأزل محباً لجماله، ولما كان من خصوصية الجمال العزة والجلال، ومن خصوصية المحبة الذلة والافتقار في اجتماعهما تعسر وانكسار، فاقتضت الحكمة الأزلية أن يجعل خليفة مستنبياً أميناً لحمل أمانة صفتيه: الجمال والمحبة، وهو محمد الأمين. ليكون بخلافته ونيابته محباً

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء...، باب من أحب لقاء الله...، حديث رقم (١٤- ٢٦٨٣). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله...، حديث رقم (٦٥٠٧). ورواه غيرهما.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار عن محبة أهل السماء والأرض...، حديث رقم (٣٦٥) [ج ٢ ص ٨٦]. ورواه أحمد في المسند عن أبي هريرة حديث رقم (٧٦٤٣) [ج ٢ ص ٣٥٨] ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة...، باب المرء مع من أحب، حديث رقم (١٦١- ٢٦٣٩) ورواه غيره بألفاظ متقاربة.

(٤) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٥) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه حديث رقم (١٤٧- ٩١). ورواه غيره بألفاظ متقاربة.

لجماله وجميلاً لمحبته، فإن كل محبة من محبة الله كما أن كل جميل من جمال الله فيحب الله لمحبته ويحبه الله لجماله، ولهذا سمي حبيب الله، فهو خليفة الله تشرفاً وتكرماً به، ليحب جماله بمحبته خلافة عنه، ويحمل لجماله خلافة عنه ليحبه الله. والله خليفته إنعاماً وإكراماً، ليكون قلبه الذي به يحبه وبصره الذي يبصر جماله كما لو فرضنا مرآة مصفاة ينظر فيها صاحب جمال فينعكس فيها صورة الناظر وصفاته. فالصورة التي في المرآة تكون خليفة للناظر والناظر يكون خليفة للصورة التي في المرآة وكل واحد منهما يحب جمال نفسه وجمال صاحبه بالأصالة والخلافة عنه. فالناظر يحب جمال نفسه وجمال منظوره بمحبته التي هي صفته بالأصالة ويحب جمال نفسه وجمال منظوره بالمحبة التي هي صفة المنظور خلافة عنه، والمنظور يحب جمال نفسه وجمال ناظره بمحبته التي هي صفته بالأصالة، ويحب جمال نفسه وجمال ناظره بالمحبة التي هي صفة ناظره خلافة عنه فوجدت الناظر والمنظور في الصورة اثنين وفي الحقيقة واحداً، فالمحب والمحبوب على التحقيق واحد. كما قيل:

أنـا مـن أهـوى ومـن أهـوى أنـا

وهذا تحقيق قوله: إن الله تعالى خلق آدم فتجلى فيه. فلما رأى النبي - ﷺ - في مرآة وجوده المصقولة عن طبع الطبع بمصقل لا إله إلا الله تجلى ذات الربوبية وصفاته. فقال: «أنا من الله»[(١)] أي من عكس ذاته وصفاته. وقال: من «عرف نفسه فقد عرف ربه»[(٢)]. أي: من عرف نفسه بالمرآتية، عرف ربه بأنه المتجلي فيه. ولما كانت من خصوصية المحبة الذلة والافتقار جعلت في طريق الخليفة استقلالاً واستحقاقاً ليفتخر الخليفة بالافتقار. ويقول: «الفقر فخري»[(٣)]. ويتعزز المستخلف بعزته وجلاله فيقول: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني، فيكون المكونات تبعاً لهذا الخليفة كما قال تعالى لحبيبه: لولاك لما خلقت الكون ويكون آدم ومن دونه تحت لوائه. فمن وجد سعادة الخلافة في حمل الجمال والمحبة بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] إنما وجد بتبعيته. فأما المحبة فإنها من لوازم وجود الإنسان لأنه جبلت القلوب على حب من أحسن إليها.

وأما الجمال الذي هو محبوب الحق تعالى. فإنه يحصل بمتابعته لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] أي: تحبونه بمحبة جبلية فاتبعوني بالتبتل

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٨٣٣) [ج ٢ ص ٨٠].

إلى الله، وعدم الالتفات إلى ما سواه ليتجلى الله في مرآة قلوبكم، فتعطون جمالاً ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] وإنما كانت العزة والجلال من خصوصية المستخلف لأنه غني عن العالمين.

وإنما كانت الذلة والافتقار من خصوصية الخليفة، لأن العالمين مفتقرون إليه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] فكانت محبة الخليفة ذلة وافتقار ومحبة المستخلف عزة وجلالاً، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطِر: ١٠] أي: من كان يريد العزة بغير الله ودينه فلا يجدها فإن العزة لله جميعاً، ومن يريد الاعتزاز بالله ودينه فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين بمطاوعة الله ومتابعة رسوله وموافقة المؤمنين يجدها، فمن طلب العزة من الله أعزه الله، ومن طلب من غير الله أذله الله. ولهذا قال: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما ألقيته في النار»(١).

ثم اعلم أن المحبة على ثلاثة أقسام: محبة إنسانية ومحبة إيمانية ومحبة ربانية.

فأما المحبة الإنسانية فما هو مركوز في الجبلة الإنسانية وهو على نوعين: محبة روحانية ومحبة نفسانية، فالمحبوبات التي هي من نتائج المحبة الروحانية التأله والعلوم العقلية وأفعال الخير والأخلاق الحسنة كما يكون للرهابين والبراهمة والفلاسفة وغيرهم يشترك فيها المؤمن والكافر. وكذلك محبوبات المحبة النفسانية وهي كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

وأما المحبة الإيمانية: فهي من نتائج نور الإيمان. فمن ازداد من نور الإيمان ازدادت محبته. وقد أخبر الله تعالى عن المحبة الإنسانية والإيمانية بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وعلامة هذه المحبة استيلاء محبة الموافقة على القلوب وانزعاج محبة المخالفة عنها واستطابة روح المؤانسة، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون، قد اشتعلت قلوبهم بلزوم دوام ذكر المحبوب عن اللذات، واشتعلت نار المحبة على

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار بأن من تقرب إلى الله قدر شبر أو ذراع...، حديث رقم (٣٢٨) [ج ٢ ص ٣٥]. ورواه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، حديث رقم (٤٠٩٠) ورواه غيرهما.

دواعي الشهوات فانحسمت مواد المخالفات وانقطعت هواجس التبعات كما قيل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كنت تصدق حبه لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة ... منه وأنت لشكر ذاك مضيع

وقال بعضهم: سمعت رجلاً بالساحل في جوف الليل وهو يبكي ويقول بصوت حزين: قرة عيني وسرور قلبي ما الذي أسقطني من عينك، فطوبى للقلوب ملأتها من خشيتك واستولت عليها محبتك، فخشيتك مانعة لها من ولوج كل مقصد خوفاً لحلول سخطك، ومحبتك قاطعة لها عن سبيل كل شهوة غير ذكرك.

وأما المحبة الربانية: فهي صفة الله تعالى المنعكسة في مرآة قلوب المحبوبين المحبين. عند قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] وعلامة المحبة في الظاهر متابعة الرسول - ﷺ - في ملازمة الفرائض ومداومة النوافل. كما قال - ﷺ - يقول الله - عز وجل -: «لن يتقرب إلي المتقربون بمثل ما افترضت عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه...»(١) الحديث. وعلامتها في الباطن أن لا يُؤْثِر على الله غير الله ولا يكون متولي أمره إلا الله ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] والتفاوت بين القوم في المحبة على قدر العناية من الله تعالى وكثرة الرعاية من العبد وتعاهد المعرفة وتصفية اليقين والصدق في الطلب، وعلامة تلك المسارعة والمبادرة والحث على السير وحسن الالتجاء إلى الله تعالى في كل حال.

قال أحمد بن الحواري: حججت أنا وأبو سليمان الداراني فبينا نحن نسير إذ سقطت السطيحة مني فقلت لأبي سليمان: فقدت السطيحة وبقينا بلا ماء وكان برد شديد. فقال أبو سليمان: يا راد الضالة وهادي من الضلالة اردد علينا الضالة. فإذا واحد ينادي من ذهب له سطيحة. قال: فقلت أنا، فأخذتها فبينا نحن نسير وقد تدرعنا بالفراء لشدة البرد فإذا نحن بإنسان عليه إطمار وهو يترشح عرقاً. فقال أبو سليمان: تعال ندفع إليك مما علينا من الثياب، فقال: يا أبا سليمان، أتشير إلى الزهد وتجد البرد أنا أسيح في هذه البرية منذ ثلاثين سنة ما انتفضت ولا ارتعدت، يلبسني في البرد فيحا من محبته ويلبسني في الصيف مذاق برد محبته.

وقال الحسن صاحب الفضيل بن عياض: دخلت على فضيل وهو يبكي. قلت ما يبكيك يا أبا علي؟ قال: ويحك يا حسن إنه إذا جن الليل وهدأت العيون واختلط

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

الظلام، افترش أهل المحبة لله أقدامهم وقد أشرف الجليل سبحانه وتعالى عليهم فنادى: بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلي، فإني مطلع عليهم في خلواتهم، أسمع بكاءهم وأرى أنينهم. . فلم لا تنادي فيهم يا جبريل. ما هذا البكاء الذي أسمعه منكم؟ هل أخبركم أحد أن حبيباً يعذب أحباءه؟ وهل يجمل بي أن أعذب أقواماً وعند البيات أحدهم يطلب مرضاتي، فبي حلفت أنهم إذا وردوا علي يوم القيامة جعلت هديتي لهم أن أكشف لهم عن وجهي حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم.

كما سمعت بعض الحكماء يوصي رجلاً يقول له فيما يقول:

وكن لربك ذا حب لتخدمه إن المحبين للرحمٰن خدام

وإن من دأب المحبين وهجيرهم كثرة الذكر لمحبوبهم على طريق الدوام والاستقامة بالأقوال والأعمال والأحوال كما مر ذكره، ولا ينقطعون ولا يملون ولا يفترون، وكيف يفترون وبذكره يتروحون.

وقد أجمع الحكماء أن من أحب شيئاً أكثر من ذكره فذكر الله هو الغالب على قلوب المحبين لله ـ عز وجل ـ لا يريدون به بدلاً ولا يبغون عنه حولاً، ولو قطعوا عن ذكر سيدهم لفسد العيش عليهم وتشتتوا في أمورهم ولتنغصوا في أحوالهم.

وذكر الله هو المستولي على همومهم وعقولهم، كما قال فتح الموصلي رحمة الله عليه: إيثار محبة الله تعالى على محبة نفسك من علامة حبك لله ـ عز وجل ـ. فالمحب لله سبحانه لا يجد مع الحب لله لشيء لذة ولا يغفل عن ذكر الله تعالى. وقال فرقد السبخي في بعض الكتب: أن ينال المحبون لله تعالى من طول اجتهادهم يحبونه ويحبون ذكره ويحببونه إلى خلقه: يمشون بين عباده بالنصائح ويخافون عليهم يوم تبدو الفضائح، أولئك أولياء الله وأحباؤه وأهل صفوته، وأولئك لا راحة لهم دون لقائه.

وقال بعض الحكماء: ما تلذذ المتلذذون بشيء ألذ من حب الله ـ عز وجل ـ ومحبة ذكره ويروى عن أبي نوح قال: سمعت رجلاً من العباد يقول: إذا سأم الطالبون من طلبهم فلن يسأم محبوك من ذكرك ومناجاتك.

وكانت رابعة تقول إذا جنها الليل: قد جاء الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه وخلوت بك يا محبوب.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، لأن النبي ـ ﷺ ـ قال: «المرء مع من أحب»(١). فهم مع الله تعالى.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

قلت: وهذا حال المحبين لله. فكيف حال من أحبه الله فحاله أن يفني كينونته في كينونة الله. كما قال تعالى: «فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش...»(١). الحديث.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ولا يزيد بالبر.

قلت: وقوله: حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء فمسلَّم، لأنه كلما جاء من المحبوب محبوب، ولكن قوله: ولا يزيد بالبر فغير مسلم لأنه كما ليس لجمال المحبوب نهاية، ينبغي أن لا يكون لمحبة المحب نهاية. وذلك لأن المحبة على قدر المعرفة. فكلما ازدادت المعرفة ازدادت المحبة ولا نهاية للمعرفة فلا يكون نهاية للمحبة والمعرفة بر من الله تزيد به المحبة.

وقال الجنيد: دفع لي السري رقعة وقال: هذه لك خير من سبعمائة قصة أو حديث تعلو فإذا فيها:

فلما ادعيت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلتصق القلب بالحشا ... وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يُبقي لك الهوى ... سوى مقلة تبكي بها وتناجيا

وأنشد ابن عطاء:

غرست لأجل الحب غصناً من الهوى ... ولم يك يدرك ما الهوى أحد قبلي
فأورق أغصاناً واتبع صبوة ... وأعقب لي مراً من الثمر المحلى
فكل جميع العاشقين هواهم ... إذا نسبوه كانوا من ذلك الأصل

وقيل: أوحى الله تعالى إلى عيسى - عليه السلام - أني إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي.

وقال أبو بكر الكتاني: جرت مسألة في المحبة بمكة أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا هات ما عندك يا عراقي: فأطرق رأسه ودمعت عيناه: عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد. جبرك الله يا تاج العارفين.

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

وقيل في بعض الكتب المنزلة: عبدي أنا وحقك، لك محب، فبحقي عليك كن لي محباً.

وكان رسول الله - ﷺ - يدعو: «اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد»(١). فأراد النبي - ﷺ - أن يكون حب الله تعالى أغلب في الطبع أيضاً والجبلة من حب الماء البارد. وهذا الحب يشتمل على الذات والصفات من المحب المحبوب. وهذا كما قال بعضهم لبعض: كلي بكلك مشغول. فقال: كلي لكلك مبذول.

وقد كتب إلي في أثناء السلوك بعض أجلة المشايخ: اعلم يا أخي أنه بقدر ما تكون له يكون لك. وقد كنت في الخلوة بخوارزم فوقع هذا الكلام على قلبي وأثر فيّ أثراً عظيماً.

فقلت في نفسي: أكون له بكليتي حتى يكون لي بكليته وعزمت أن لا أخرج من الخلوة سنين كثيرة أو بقية عمري. فقعدت بقدر ثلاث سنين أقل أو أكثر فأخرجني منها شيخي - قدس الله روحه - بغير اختياري وألزمني ملازمة خدمته واستفادة صحبته إلى أن صار الأمر إلى ما صار.

ومنها المراقبة: قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢] وقال رسول الله - ﷺ - في جواب جبريل - عليه السلام - عن قوله: ما الإحسان؟ «قال: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢). إشارة إلى حال المراقبة لأن المراقبة علم العبد بإطلاع الرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة لربه عز وجل.

اعلم: أن المراقبة من أعلى مقامات الروح ولا يتمكن أحد في هذا المقام إلا بعد فراغه عن المحاسبة وعبوره عن المقامات القلبية، ولكنها مستعملة في جميع المقامات ولها في كل مقام حظ من الخير. فمراقبة الأبدان، بالمحافظة على أركان الشريعة، ومراقبة النفوس بملازمة آداب الطريقة، وتهذيب الأخلاق بمراقبة القلوب وبمخالصة الأعمال ورعاية الأحوال عن التغير بالآمال، ومراقبة الأسرار، عن إسبال بالنظر إلى الأغيار. ومراقبة الأرواح عن التدنس بصفات الأشباح متخلقاً بأخلاق الملك الفتاح، ومراقبة الله

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة صٓ بسم الله الرحمن الرحيم، حديث رقم (٣٦٢١) [ج ٢ ص ٤٧٠] ورواه الترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب (٧٣) حديث رقم (٣٤٩٠) ورواه غيرهما بألفاظ متقاربة.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

بخلو القلب وصفاء السر ولزوم الباب لمواهب رب الأرباب.

وحقيقة المراقبة: أن يكون الله رقيباً للعبد على جميع حالاته، حافظاً له ومعيناً في جميع مقاماته.

وقال بعضهم: من راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق بالمراقبة خاف على فوت حظه من ربه لا غير وكان بعض المشايخ له تلامذة وكان يخص واحداً منهم بإقباله عليه أكثر مما يقبل على غيره. فقالوا له في ذلك. فقال: أبين لكم فدفع إلى كل واحد من تلامذته طيراً وقال له: اذبحه بحيث لا يراه أحد. ودفع إلى هذا الغلام أيضاً فمضوا ورجع كل واحد منهم وقد ذبح طيره وجاء هذا بالطير حياً. فقال: هلا ذبحته؟ قال: أمرتني بحيث لا يراه أحد ولم أر موضعاً ألا يراه أحد. فقال: لهذا أخصه بإقبالي عليه.

وقال ذو النون: علامة الإيثار ما آثر الله تعالى، وتعظيم ما عظم الله تعالى، وتصغير ما صغر الله تعالى.

قلت: من يراقب الله تعالى بعبوديته يراقبه الله بربوبيته ومن لم يراقبه الله بربوبيته لم يراقبه الله بعبوديته فمن يراقب الله بأعماله يراقبه بأحواله. ومنها العبودية: قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال: إني أخاف الله تعالى ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا يعلم شماله ما تنفق يمينه»(١).

اعلم: أن العبودية من أكمل مقامات الروح. لأنه أول عبد عبد الله مخلصاً حين لم يكن شيء مع الله يعبد الله أو يعبد له من دون الله. فإنه أول من تعلقت القدرة به وهو في الحقيقة روح محمد ـ ﷺ ـ. ولهذا خصه الله تعالى باسم العبدية مطلقاً حيث قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ [العلق: ٩، ١٠] [العلق: ١٠] ولأنه كانت العبودية مسلمة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، حديث رقم (٩١ـ ١٠٣١). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الآذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة...، حديث رقم (٦٦٠) ورواه غيرهما.

له إذ لم يكن تحت رق غير الله تعالى. فالعبودية بهذا الاعتبار هي الحرية عما سوى الله، فلما خلق الله الروح خلقه عبداً لله حراً عما سوى الله، ثم خلق الموجودات فتصرف الروح فيها بخلافة الحق تعالى. وتعلق ببعضها لمناسبة ما معه فصار عبداً له. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة»[1]. ولما كان روح عيسى ـ عليه السلام ـ في بدء خلقه غير متعلق بشيء من الموجودات أخبر عن حاله فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] وكما كان روح محمد ﷺ ـ تتخلص عن رق الموجودات وعرج به ليلة المعراج حتى عبر عن سدرة المنتهى. أخبر الله عنه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] ففرق عظيم بين المقامين في العبدية بين من هو باق فيخبر عن نفسه وبين من هو فان عن نفسه باق بربه، فيخبر عنه ربه بكل روح تجرد عن تعلق الكونين وحرر عن رقها استأهل لمقام العبودية، وقيل لها: فادخلي في عبادي، ثم يستحق بجذبات العناية ودخوله الجنة المضافة إلى الحضرة بقوله: وادخلي جنتي، ولهذا الاستحقاق رد من جوار رب العالمين بالنفخ الخاص إلى أسفل سافلين القالب فافهم جداً. ثم اعلم أنك عبد من أنت في قيده وأسره، إن كنت في أسر نفسك فأنت عبد لنفسك وإن كنت في أسر آخرتك فأنت عبد آخرتك وإن كنت في أسر مولاك فأنت عبد مولاك.

وقال سهل بن عبد الله: لا يصح التعبد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء: من الجوع والعري والفقر والذل.

وقال ذو النون: العبودية أن تكون عبده في كل حال كما أنه ربك في كل حال.

قلت: العبودية أن تكون عبداً لربك في كل حال حُراً عن رق الأشياء ولا تكون رباً لشيء فإن العبد وما يملكه لمولاه.

ومنها الفقر: قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الفقراء الصُّبر هم جلساء الله يوم القيامة»[2] وقال: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله حديث رقم (٢٨٨٧). ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب في المكثرين، حديث رقم (٤١٣٥) ورواه غيرهما.

(٢) أورد البروسي في تفسيره (روح البيان)، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾. وأورده ابن عدي في «الكامل في الضعفاء» أحاديث مطرف أبو مصعب مديني اليساري الأصم، [ج ٦ ص ٣٧٧].

بخمسمائة عام نصف يوم»[(١)].

اعلم: أن الفقر من أشرف مقامات الروح وذلك لأنه لما خلق كان أول مخلوق ولم يكن معه مخلوق آخر. فكان عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء وهو كَلّ على مولاه، فنهاية الفقر الرجوع إلى البداية، فالفقر على ثلاثة أوجه:

فقر العوام: وهو بعدم المال كما ولدته أمه.

وفقر الخواص: وهو بعدم الآمال والخروج من أحكام الصفات كما كان في عالم الأرواح.

وفقر الأخص: وهو بعدم الوجود كما كان في علم الله قبل إيجاده بالوجود ليكون عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء من الوجود وهو كل على مولاه بجود الوجود ونيل المقصود. وهذا هو الفقر الذي افتخر به النبي - ﷺ - بقوله: «الفقر فخري»[(٢)]. وهو فقر الفقراء الصُبر عن أوصاف الوجود الذي هم جلساء الله يوم القيامة وهو الفقر الذي أشار إليه من قال: الفقير لا يحتاج إلى الله لأنه فقير عن وجوده غني بربه. فالغني بالشيء لا يحتاج إلى ذلك الشيء. وهذا مقام النبي - ﷺ - بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۞﴾ [الضحى: ٨] فكان - ﷺ - فقيراً عن وجوده غنياً بربه، ولم يكن غنياً عن ربه.

ومثال ذلك: أن القمر يحتاج إلى نور الشمس وهو غني بنورها عند محاذاتها ولم يكن غنياً عن نورها. ولهذا قالت المشايخ: الاستغناء عن الشيء أتم من الاستغناء بالشيء وقول النبي - ﷺ -: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة سنة»[(٣)]. يدل على أن الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر. وكذلك قوله - ﷺ - لرجلين أحدهما فقير والآخر غني: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»[(٤)]. وقال: صاحب الدرهمين أشد حساباً من صاحب الدرهم.

---

(١) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزهد، باب (٣٧) حديث رقم (٢٣٥٣) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه محمد، حديث رقم (٧٦٠٥) [ج ٧ ص ٣١٥]. ورواه غيرهما.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٤) ونص الحديث: عن سهل قال: مر رجل على رسول الله فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع. قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع لا يشفع وإن قال أن لا يستمع. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا» (صحيح البخاري كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، حديث رقم (٥٠٩١).

وقال الحسن البصري: إن مما كتب الله تعالى لإبراهيم ـ عليه السلام ـ في الصحف الأولى: إن أحب أحبابي إليَّ الفقراء الذين يبتغون مرضاتي وأمري ويحفظون وصيتي، وإن من كرامتهم عليّ أن لا أرزقهم ما يشتغلون به عن طاعتي.

ويروى في حديث آخر يقول الله عز وجل: «عبادي وأصفيائي: ما زويت عنكم الدنيا لهوانكم عليّ، ولكن أردت أن تتردد أصواتكم إليّ وأسمع منكم النداء فهذه داري فانزلوها وهذه جواري فتبحبحوا»[1].

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: رأس الدين ترك الدنيا والقربة من الله عز وجل وحب المساكين والدنو منهم»[2]. وروى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: من هم يا ربنا؟ فيقول: «فقراء المسلمين القانعون بطاعتي، الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة، فيدخلون فيأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون»[3].

ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ على رجل فقير فلم ير له شيئاً. فقال: «لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم»[4].

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «كل ضعيف أغبر أشعث ذي طمرين. لو أقسم على الله لأبره»[5].

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الفقر على المؤمن أحسن من العذار الجيد على حد الفرس»[6].

وقيل: لو لم يكن للفقير فضيلة غير إرادته سعة للمسلمين ورخص أسعارهم لكفاه ذلك. لأنه يحتاج إلى شرائها والغني سيحتاج إلى بيعها. هذا لعوام الفقراء فكيف لخواصهم، ولأخص خواصهم.

وقيل: سئل محمد بن عبد الله الفرغاني عن الافتقار إلى الله أتم أم الاستغناء

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٣٩٥)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٦/ ١٦).

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٢٨٣).

(٤) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٢٨٠)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٤/ ١٩٣).

(٥) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٢٨٠)، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١٨١٤).

(٦) أورده ابن عراق في تنزيه الشريعة (٢/ ٣١١).

بالله؟. فقال: إذا صح الافتقار إلى الله صح الاستغناء بالله، وإذا صح الاستغناء به كمل الغنى به، فلا يقال أيهما أتم، الافتقار أم الغنى، لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ: إذا رأيت الفقراء فسائلهم كما تسائل الأغنياء، فإن لم تفعل فاجعل كل شيء عملته تحت التراب.

وروى عن أبي الدرداء أنه قال: لأن أقع من فوق قصر فأتحطم أحب إليّ من مجالسة الغني، لأني سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إياكم ومجالسة الموتى. قيل: ومن الموتى؟ قال: الأغنياء»(١).

قال إبراهيم بن أدهم: طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر.

قال ابن الكرمني: إن الفقير الصادق يحترز من الغني حذاراً من أن يدخل عليه فيفسد عليه فقره، كما أن الغني يحترز من الفقر حذاراً أن يدخل فيفسد غناه عليه وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ: تريد أن يكون لك يوم القيامة مثل حسنات الخلق أجمع، قال: نعم قال: عد المريض وكن لثياب الفقراء فالياً، فحمل موسى ـ عليه السلام ـ على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يغلي ثيابهم ويعود المرضى.

وقال سهل بن عبد الله: خمسة أشياء من جوهر النفس: فقير يظهر الغنى، وجائع يظهر الشبع، ومحزون يظهر الفرح، ورجل بينه وبين رجل عداوة فيظهر المحبة، ورجل يصوم النهار ويقوم الليل فلا يظهر ضعفاً.

وقال بشر الحافي: أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر.

قلت: وتصحيح هذا القول: إن الله تعالى أراني في بعض مكاشفاتي العالم بأسره وفي طرف منه رسم. فقال لي: ما ترى؟ قلت: العالم بأسره فقال: هل تدري ما هذا الرسم؟ قلت: لا يا رب قال: هذا رأس سكة الفقراء فاحفظه ولازم عتبته. وها أنا أعالج نفسي في لزوم هذه العتبة منذ خمسين سنة بفضل الله ومنه.

ومنها التصوف: قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] ﴾ [فاطر: ٣٢] وعن أنس بن مالك، قال لي رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن قدرت أن تصبح

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل» ثم قال: «يا بني ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي في الجنة»(١). وقال أنس: كان رسول الله - ﷺ - يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف.

وذهب قوم إلى أنهم سمعوا صوفية نسبة لهم إلى ظاهر اللبسة. لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه أرفق ولكونه لباس الأنبياء - عليهم السلام - روى عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: مر بالصخرة الروحاء سبعون نبياً حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام.

وقيل: إن عيسى - عليه السلام - كان يلبس الصوف والشعر ويأكل من الشجر ويبيت حيث أمسى.

وقال الحسن البصري: لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف وكان اختيارهم لبس الصوف لتركهم زينة الدنيا.

يقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال: تقمص إذا لبس القميص، وقيل: سموا صوفية لأنهم أهل الصف الأول في عالم الأرواح.

قد روى أن الأرواح كانت في أربعة صفوف:

الصف الأول: الأنبياء وخواص الأولياء.

الصف الثاني: هم المؤمنون.

الصف الثالث: هم المسلمون.

الصف الرابع: هم الكفار والمنافقون.

وقيل: لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بسرائرهم بين يديه.

وقيل: كان هذا الاسم في الأصل صفوي فاستثقل ذلك وجعل صوفياً.

وقيل: سمعوا صوفية نسبة إلى الصفة التي كانت لفقراء المهاجرين على عهد رسول الله - ﷺ - الذين قال الله فيهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٣] ﴾ [البقرة: ٢٧٣]. هذا وإن كان لا يستقيم من حيث الاشتقاق اللغوي ولكن صحيح من حيث المعنى لأن الصوفية يخالط حالهم حال أولئك لكونهم مجتمعين متآلفين مصاحبين لله وفي الله كأصحاب الصفة وكانوا نحواً من أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر. جعلوا أنفسهم في المسجد كاجتماع الصوفية

(١) رواه الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، حديث رقم (٢٦٧٨) ورواه أبو يعلي في مسنده عن أنس حديث رقم (٣٦٢٤) [ج ٦ ص ٣٠٦].

قديماً وحديثاً في الزوايا والربط. وكانوا لا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة. كانوا يحتطبون ويرضحون النواء بالنهار، وبالليل يشتغلون بالعبادة وتعلم القرآن وتلاوته. وكان ـ ﷺ ـ يواسيهم ويحث الناس على مواساتهم ويجلس معهم ويأكل معهم. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢].

ونزل في ابن أم مكتوم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝﴾ [عبس: ١، ٢]. وكان من أهل الصفة وعن ابن عباس قال: وقف رسول الله ـ ﷺ ـ يوماً على أهل الصفة فرأى فقرهم وجهادهم وطيب قلوبهم فقال: «أبشروا يا أصحاب الصفة فمن بقي منكم على التعب الذي أنتم عليه اليوم ماضياً بما فيه فإنه من رفقائي يوم القيامة»(١).

ولم يكن هذا الاسم في زمن رسول الله ـ ﷺ ـ أعني الصوفي. وقيل: كان في زمن التابعين.

ونقل عن الحسن البصري أنه قال: رأيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه. وقال: معي أربع دوانيق يكفيني ما معي.

ويشيد بهذا ما روى عن سفيان أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء.

وقيل: لما آثروا الذبول والخمول والتواضع والانكسار والتخفي والتواري كانوا كالخرقة المرماة والصوفة المرمية التي لا يرغب فيها ولا يلتفت إليها فقال: صوفي نسبة إلى الصوفة كما يقال كوفي نسبة إلى الكوفة.

وقيل: الصوفية قوم كانوا يخدمون الكعبة. وقيل: سموا بذلك لأنهم تشبكوا بها تشبك الصوف بما ينبت عليه، والصوفان نبت أرغب: فالصوفي منسوب إلى الصوفية لاشتغالهم بالعادة وتشبك بعضهم ببعض.

وقيل: الصوفي منسوب إلى الصوفان لاقتصادهم في الطعام على ما يجري مجرى الصوفان في قلة العناء في الغذاء.

قلت: اعلم أن نسبة الصوفي بخصوصية الصفاء أولى من غيره وإن كان له وجه بعيد من حيث اللغة ولكنه وجه قريب من حيث المعنى. وذلك لأن الصفاء من أعز مقامات الروح. إذ هو أولى من تعلق به أمر كن. ولهذا قال تعالى في تعريفه لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، وهو نور روحاني صاف عن كدورات تعلقات الكونين وكان مصافياً في محبة الله وعبوديته لأنه لم يكن معه مخلوق

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الزكاة، الباب الثالث في فضل الفقر والفقراء، حديث رقم (١٦٥٧٣) وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١٣/ ٢٧٧).

آخر ليحبه أو يتعلق به، فلما خلقت المخلوقات ورده الله تعالى إلى أسفل سافلين القالب تكدر صفوه بظلمات المخلوقات وتبدل أنسه بالوحشة وقربه بالبعد، وتغيرت تلك المصافات بينه وبين ربه تعالى إلى أن أدركته العناية وهبت نفحات الألطاف الربوبية ودعته إلى إقامة العبودية متعرضاً لتلك النفحات بجميع الحركات والسكنات تاركاً للشهوات معرضاً عن محال الآفات وسالكاً في المقامات ملازماً لتزكية النفس مداوماً على تصفية القلبْ راغباً في تحلية الروح، لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار بتصفية القلب عن أقذار النفس وتحلية الروح بأوصاف الحق، فيزهق باطل الآفات والموانع والحجب، ويعود إلى تلك المصافات، فلما صافى العبد مع ربه برعاية العبودية صوفي عن كدر الوجود بعناية الربوبية، فهو فان عن أنانيته باق بهويته، فصار الصوفي باسم علمه، وهذا معنى قول الجنيد وقد سئل عن الصوفي فقال: هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به.

وكذلك معنى قول الحصري: الصوفي لا يوجد بعد عدمه ولا يعدم بعد وجوده يعني الصوفي هو الفاني عن أنانيته المعدوم عن وجوده المجازي الباقي بهوية ربه الموجود بوجوده الحقيقي الذي لا يعدم.

وكذلك معنى قول الشيخ أبي الحسن الخرقاني: الصوفي غير مخلوق يعني قد فني منه ما كان مخلوقاً فهو الباقي ببقاء الله تعالى الذي لا يعدم. فنسبة الصوفي إلى معنى الصفاء بهذا الاعتبار أولى والله أعلم.

ثم اعلم أن التصوف مع كثرة الأقاويل فيه مبني على ثلاثة أصول: خروج وعروج وولوج.

فأما الخروج: فهو الخروج عن الدنيا ومطالبات النفس عنها.

وأما العروج: فهو العروج إلى أعلى مراتب العقبى وملاحظات القلب منها.

وأما الولوج: فهو الولوج في التخلق بأخلاق الله والفناء فيها.

فالصوفي اسم جامع لمن أدى حق كل مقام وحظي عن كل حال سني والله أعلم.

ومنها الأدب: قال الله تعالى عز وجل: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ٥٣] قيل: حفظ آداب الحضرة وقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي»(١).

(١) أورده المتقي الهندي، كتاب الشمائل، شمائل متفرقة، حديث رقم (١٨٦٦٩).

اعلم أن الأدب من أكرم مقامات الروح وذلك لأن الروح لما كان أول من تعلقت به القدرة وهو موصوف بالعقل والأدب ومن أدبه أنه كان مؤتمراً بأوامر الحق ومنتهياً عن نواهيه، فلما أمره بأن أقبل فأقبل، وأدبر فأدبر، واهبط فهبط ولم يكن معه موجود آخر ليلتفت إليه فيسيء أدبه.

ثم اعلم أن الأدب على ثلاثة أوجه: أدب الروح وأدب القلب وأدب النفس.

فأما أدب الروح: فهو مع الله بتوجهه إلى الحضرة وتبتله عما سواه بعدم الالتفات إليه، كما كان حال النبي - ﷺ - ليلة المعراج ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝﴾ [النجم: ١٦، ١٧] بالالتفات إلى ما يغشى السدرة من أنواع الكرامات وأصناف التنعمات، تحفظاً لآداب الحضرة.

وأما أدب القلب: مع النبي - ﷺ - والمشايخ فبالتعظيم والتوقير والتسليم لأوامرهم ونواهيهم وإيثارهم على النفس والأهل والولد والمال، إيماناً للنبي - ﷺ - وفرض عين وإرادة للمشايخ وقرة عين. قال النبي - ﷺ -: «الشيخ في قومه كالنبي في أمته»[1] أي بالاحترام وامتثال الأوامر والنواهي.

وأما أدب النفس مع الإخوان والأهل والولد وسائر الخلائق فهو بالشفقة والرحمة والنصيحة. وقال - ﷺ -: ملاك الدين: التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»[2]. وقال: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3]. وقال - ﷺ -: «إنما الدين النصحة»[4].

وقال أبو نصر السراج الطوسي: الناس في الأدب على ثلاث طبقات: أما أهل الدنيا: فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسماء الملوك وأشعار العرب. وأما أهل الدين: فأكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات. وأما أهل الخصوصية: فأكثر آدابهم في طهارة القلوب

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الموت، الباب الرابع في فضيلة طول العمر. وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٢٩) و(٣٣٩) وأخرجه غيرهما.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع إنما هو من أقوال العارفين ونص العبارة العبودية: هي التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله. (مرقاة المفاتيح كتاب الطهارة، حديث رقم (١٢٣٥) [ج ٢ ص ٢٣٠].

.(٣) رواه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، حديث رقم (١٩٢٤) ورواه البيهقي في سننه الكبرى، باب ما على الوالي من أمر الجيش، حديث رقم (١٨٢٧٢) [ج ١٣ ص ٢٧٨].

(٤) هذا الحديث سبق تخريجه.

ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب في مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب.

وسئل أبو حفص عن أدب الفقير في الصحبة فقال: حفظ حرمات المشايخ وحسن العشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر، وترك صحبة من ليس في طبقتهم، وملازمة الإيثار ومجانبة الادخار والمعاونة في أمر الدين والدنيا.

فمن أدبهم: التغافل عن زلل الأخوان والنصح فيما تجب فيه النصيحة في الخلاء، وكتم عيب الأصحاب، واطلاعهم على عيوبهم في السر، والقيام بخدمتهم واحتمال الأذى منهم، فبذلك يختبر الفقير حلمه ويظهر جوهره.

ومن آداب القوم: أن لا يرون لأنفسهم ملكاً يختصون به.

قال إبراهيم بن شيبان: كنا لا نصحب من يقول: نعلي.

وقال أحمد القلانسي: دخلت على قوم من الفقراء بالبصرة فأكرموني وبجلوني فقلت يوماً لبعضهم: أين إزاري. فسقطت من عينهم.

وكان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه إنسان شارطه على ثلاثة أشياء: أن تكون الخدمة والأذان له، وأن تكون يدهم في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيده. فقال رجل من أصحابه: أنا لا أقدر على ذلك. فقال: أعجبني صدقك وكان إبراهيم بن أدهم ينظر البساتين ويعمل في الحصاد وينفق على أصحابه.

وكان من أخلاق السلف: كان من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير أمره. قال الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أي مشاع هم فيه سواء.

ومن الأدب: تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والإيثار بالموضع. روى أن رسول الله - ﷺ - كان جالساً في صفة ضيقة فجاء قوم من البدريين فلم يجدوا موضعاً يجلسون فيه، فأقام رسول الله - ﷺ - من لم يكن من أهل بدر فجلسوا مكانهم، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ [المجادلة: ١١] الآية.

حكى أن علي بن بندار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائراً، فتماشيا، فقال أبو عبد الله: تقدم، فقال: بأي عذر، قال: بأنك لقيت الجنيد وما لقيته.

ومن الأدب: ترك التكلف مع الإخوان. قيل: لما ورد أبو حفص العراق تكلف له الجنيد أنواع الأطعمة فأنكر ذلك أبو حفص وقال: صير أصحابي مثل المخانيث

يقدم لهم الألوان والفتوة عندنا ترك التكلف يستوي مقامه وذهابه.

ومن الأدب: ستر عورات الإخوان. قال عيسى ـ عليه السلام ـ لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائماً فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه، فقال: بل تكشفون عورته. قالوا: سبحان الله من يفعل هذا؟ قال: أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها.

ومن الأدب: الاستغفار للإخوان بظهر الغيب والاهتمام لهم من الله تعالى في دفع المكاره عنهم، حكى: أن أخوين: ابتلي أحدهما بهوى. فأظهر عليه أخاه فقال: إني ابتليت بهوى، فإن شئت ألا تقعد على محبتي لله فافعل. فقال: ما كنت لأحل عقد إخائك لأجل خطيئتك، وعقد بينه وبين الله عهداً، أن لا يأكل ولا يشرب حتى يعافيه الله تعالى من هواه، فطوى أربعين يوماً، كلما يسأله عن هواه فيقول: ما زال. فبعد الأربعين أخبره أن الهوى قد زال، فأكل وشرب.

وقال ذو النون المصري: أدب العارف فوق كل أدب لأن معروفه مؤدب قلبه. وقال بعضهم: يقول الحق سبحانه: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ألزمته العطب فاختر أيهما شئت الأدب أو العطب.

وقيل: مد ابن عطاء يوماً رجله بين أصحابه وقال: ترك الأدب بين أهل الأدب أدب ويشهد بهذه الحكاية الخبر الذي روى عن النبي ـ ﷺ ـ كان عنده أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهم ـ فدخل عثمان ـ رضي الله عنه ـ فغطى فخذه وقال: ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟[1]. نبه ـ ﷺ ـ على أن حشمة عثمان ـ رضي الله عنه ـ وإن عظمت عنده الحالة التي كانت بينه وبين أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما كانت أصفى. وفي قريب من معناه أنشد:

في انقباض وحشمة فإذا ... صادفت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما قلت غير محتشم

وقال الجنيد: إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب.

فالأدب كل الأدب أن العبد إذا قام بحقوق الله تعالى يرزقه علماً بمعرفة النفس

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان، حديث رقم (٢٦ـ ٢٤٠١). ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر تعظيم المصطفى ﷺ عثمان. . .، حديث رقم (٦٩٠٧) [ج ١٥ ص ٣٣٧] ورواه غيرهما.

وعيوبها ومحاسن الأخلاق ومعرفة محاسن الآداب ويوقفه من آراء الحقوق على بصيرة ويفقهه في كل ذلك ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق، فكل تقصير يوجد من خبث النفس وعدم تزكيتها وبقاء صفاتها عليه، فإن صحبت ظلمت بالإفراط تارة والتفريط أخرى وبعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق، والحكايات والمواعظ والآداب وسماعها لا يعمل في النفس زيادة تأثير، ويكون كثير تقلب فيه الماء من فوق فلا يمكث فيه ولا ينتفع به، وإذا أخذت بالتقوى والزهد في الدنيا نبع ماء الحياة وتفقهت وعلمت وأدت الحقوق وقامت بواجب الآداب وواجب الصحبة بتوفيق الله تعالى.

ومنها الصحبة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠] وقال رسول الله - ﷺ -: «واشوقاه إلى لقاء إخواني» قالوا: أولسنا بإخوانك؟ قال: بل أنتم أصحابي وإنما إخواني الذين لم يأتوا بعد»[١]. وقال: الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن أحبهم بحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ومن أذاهم أذاني ومن آذاني فقد أذى الله ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[٢].

اعلم أن الصحبة من أشرف مقامات الروح مع الله تعالى إذ لم يكن معه غير الله ليصحبه وأنه قد خلق قبل الأجساد بألفي عام. كما ورد به الخبر وأنه قد صحب مع الله في هذه المدة فأورثته الصحبة شرفاً ورتبة اختص به عن العالمين. كما أورثت صحبة النبي - ﷺ - الصحابة شرفاً ورتبة اختصوا بها عن العالمين. قال رسول الله - ﷺ -: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[٣]. ولهذا الشرف وجد الروح اختصاص رتبة إضافته إلى الحضرة بقوله: من روحي.

اعلم أن كمالية كل شيء ونقصانه مودعة في الصحبة مثاله كالنواة. كماليتها

---

(١) رواه أبو يعلى بلفظ: «متى ألقى أخواني قالوا: يا رسول الله ألسنا إخوانك قال: بل أنتم أصحابي وإخواني الذين آمنوا بي ولم يروني». (مسند أبي يعلى عن ثابت البناني عن أنس بن مالك، حديث رقم (٣٣٩٠) ورواه غيره.

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فيمن سب أصحاب النبي، حديث رقم (٣٨٦٢) ورواه أحمد في المسند عن عبد الله بن مغفل المزني، حديث رقم (٢٠٥٦٨) [ج ٥ ص ٥٤].

(٣) رواه البخاري في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً» حديث رقم (٣٦٧٣) ورواه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، حديث رقم (٢٢٢- ٢٥٤١) ورواه غيرهما.

مودعة في صحبة التراب وتربيتها بالماء والهواء والشمس ودهقنة الدهقان ونقصانها أيضاً مودعة في صحبة التراب عند أعوان الماء أو أحد أسباب التربية فكذلك كمالية الروح ونقصانه مودعة في صحبة القالب. فإن وجد التربية بماء الإيمان ولواقح أعمال الشريعة وطلوع شمس العناية ودهقنة النبي أو الشيخ تكاملت شجرة العبودية وأثمرت ثمرات المعرفة والتوحيد. كما قال تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] وإن عدم منه بعض أسباب التربية تناقص الروح والحس بصحبة القالب. نقصان النواة بصحبة التراب عند أعوان بعض أسباب التربية. كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝﴾ [العصر: ١ - ٣].

فمن أعظم أسباب التربية صحبة شيخ كامل واصل صاحب ولاية عالم بأركان الشريعة واقف على آداب الطريقة متحقق بدقائق الحقيقة مكاشف لأسرار السلوك محبب الله إلى عباده ومحبب عباد الله إلى الله داع إلى الله. قال رسول الله - ﷺ - حاكياً عن ربه: «إذا كان الغالب على عبدي الاشتغال بي جعلت نعمته ولذته في ذكري. فإذا جعلت نعمته ولذته في ذكري عشقني وعشقته ورفعت الحجاب فيما بيني وبينه لا يسهو إذا سهى الناس. أولئك كلامهم كلام الأنبياء أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فصرفت ذلك عنهم»(١).

ولا يصحب أكثر مدعي أهل العصر المشيخة الذين ينسبون إلى البيوتات ويتشيخون بالآباء والأجداد وهم بمعزل عن رتبة المريدين الصادقين الطالبين من أرباب الرياضات وأصحاب السلوك المقتدين بالمشايخ والرجال البالغين فإنهم قطاع الطريق على الصادقين من الطلبة. ولا يصحب أيضاً جماعة يسمون أنفسهم الملامتية والقليدرية والحيدرية والجريرية، فإن الغالب على أكثرهم الإباحة والزندقة، إلا من يشاء الله به خيراً، والضابط في تمييز أهل الخير منهم ومن غيرهم إقامة الشريعة على قانون المتابعة والتأدب بآداب الطريقة على وفق سير المشايخ، ومن ادعى أنه خلص مع الله تعالى ضميره ونال رتبة في الحقيقة أنه تنزه عن الشريعة وأن الارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليداً، فاعلم أنه من أهل الإلحاد والزندقة والفلسفة والإباحة، فاحذرهم إن صحبتهم وظلمة أنفاسهم سم قاتل لقلوب المبتدئين من المريدين، ولم يعلم الجاهل المغرور أن الشريعة قشر لب الحقيقة واللب لا ينعقد ولا يتربى إلا بالاستمداد عن القشر، وكل حقيقة ردتها الشريعة زندقة، وان

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال، كتاب الأذكار، الباب الأول، حديث رقم (١٨٦٨).

الشريعة من أهل الحقيقة تقيد بحقوق العبودية وحقيقة العبودية، وصار مطالباً بأمور وزيادات لا يطالب بها من لم يصل إلى ذلك المقام لا أنه يخلع عن عنقه ربقة التكليف ويخامر باطنه الزيغ والتحريف.

روى عن أبي محمد الجريري يقول: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة فقال الرجل: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذي يقول هذا، وإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه يرجعون فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها وإنها لآكد في معرفتي ولو قوي الحال.

ومن أوصاف المشيخة أن يكون من أهل الولاية وإن لم يستأهل للاقتداء كل ولي لأن أهل الولاية على ثلاثة أقسام: ولي مجذوب غير متدارك بالسلوك وولي سالك غير متدارك بالجذبة، وولي مجذوب متدارك بالسلوك. فالولي المجذوب الذي غير متدارك بالسلوك لا يصلح للمشيخة لأنه غير واقف على المقامات والآفات والقواطع وطريق إصلاح الأحوال فلا يصلح للاقتداء وإن صلح للاهتداء.

فأما الولي السالك المتدارك بالجذبة. والولي المجذوب المتدارك بالسلوك فهما يستأهلان للمشيخة والاقتداء. ولكن المجذوب السالك أولى بالاقتداء، لأنه أعلى مقاماً وأقوى حالاً من السالك المجذوب وذلك لأن الطريق إلى الله بنوعين اثنين:

أحدهما: طريق من العبد إلى الله فهو ضلالة في ضلالة.

وثانيهما: طريق من الله إلى العبد فهو هداية في هداية، وهو طريق المجذوب.

فإن سطوة الجذبة تخرق الحجب ويخترق في لحظة ما لا يندفع ولا يرتفع للسالك في سنين كثيرة بالمجاهدة والمكابدة، ثم تحتجب الجذبة ويتدارك العبد بالسلوك مؤيداً بتأييد الجذبة، فيستأنف السير بالمعاملة والشوق والمحبة، ثم يتبدل السير بالطير، ثم بهبوب الرياح المرسلة.

ثم بلمعان البرق الخاطف إلى أن يبلغ أعلى عليين الروحانية وينقطع الطريق ويتعذر العبور ثم يتدارك السالك بالجذبة وتتخلص الجذبة عن الاحتجاب وتخطفه عنه تفنيه وتوصله إلى الحق وتبقيه به. فهذه حقيقة قوله - ﷺ -: «جذبة من جذبات الحق توازي عمل الثقلين»[1]. فإن عمل الثقلين لا يوصل السالك إلى الحق كما توصله

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٠٦٧) وأورده السهروردي في =

الجذبة.

وللمشيخة إمارات ودلالات وأوصاف وأخلاق يطول شرحها ليستحق بها الاقتداء ويصح له الاهتداء، وكذلك للمريد الصادق الطالب المستصحب أمارات وأحوال يستحق بها الصحبة، فنحن نقتصر في شرحها على ما قال الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير رحمة الله عليه، حين سئل عن الشيخ المحقق والمريد المصدق فقال: أدنى أحوال الشيخ أن يكون موصوفاً بعشر خصال حتى تسلم له المشيخة:

أولها: أن يصير مراداً حتى يمكنه أن يربي المريد.

ثانيها: أن يكون سالكاً للطريق حتى يقدر على الدلالة لغيره.

ثالثها: أن يكون مؤدباً مهذباً حتى يؤدب المريد ويهذبه.

رابعها: أن يكون جواداً سخياً غير ملتفت إلى الكون حتى يمكنه أن يؤثر به مريده.

خامسها: أن لا يتعلق بمال المريد حتى لا يحتاج إلى استعماله في حقه.

سادسها: إذا أمكنه أن يعظ بالإشارة فلا يعظ بالعبارة.

سابعها: إن أمكنه أن يؤدب المريد بالرفق فلا يؤدبه بالعنف والغضب.

ثامنها: إن كان ما يأمر المريد به يحب أن يباشره من قبل أن يأمر المريد به.

تاسعها: أن كل ما يزجره عنه فينبغي أن ينزجر عنه أولاً.

عاشرها: أنه إذا أقبل مريد الله فلا يرده لأحد من خلقه.

وقال: أقل أحوال المريد أن تكون هذه الخصال العشرة موجودة فيه. حتى تصح منه الإرادة.

أولها: أن يكون لبيباً فهماً حتى يفهم إشارة الشيخ.

ثانيها: أن تكون نفسه مطيعة له حتى يمكنه أن يكون متمثلاً لأوامر الشيخ.

ثالثها: أن يكون حديد السمع ليدرك كلام الشيخ.

رابعها: أن يكون منور القلب ليرى عظمة الشيخ.

خامسها: أن يكون صادق اللهجة ليصدق فيما يخبر عن حاله.

= عوارف المعارف، الباب السادس عشر في ذكر اختلاف أحوال مشايخهم في السفر والمقام. (تعريف الأحياء بفضائل الإحياء) [ج ١ ص ٨٣]. وأورده الرازي في التفسير، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [ج ٤ ص ١٣٢].

سادسها: أن يكون صادق العهد ليفي بما التزم.

سابعها: أن يكون سخياً جواداً ليمكنه أن يخرج عما في يده.

ثامنها: أن يكون حافظاً للسر ليكتم أسرار الشيخ.

تاسعها: أن يكون متعظاً محباً للنصيحة ليقبل نصيحة الشيخ.

عاشرها: أن يكون عياراً ليفتدي بروحه العزيز في الطريق.

فإن كان الشيخ والمريد مزينين بهذه الأوصاف يحصل المقصود على أسرع الأحوال.

قال أبو بكر الطمستاني: أصبحوا الله فإن لم تطيقوا فاصحبوا مع من يصحب مع الله لتوصلكم بركات صحبته إلى صحبة الله عز وجل.

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى ـ عليه السلام ـ: كن يقظاً مرتاداً لنفسك أخداناً وكل خدن لا يوافيك طائعاً على مسرة فاقصه ولا تصحبه فإنه يقسي قلبك وهو لك عدو. وأكثر من ذكري تستوجب شكري والمزيد من فضلي.

وقال ذو النون المصري: لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع الشيطان إلا بالعداوة.

ومنها السماع: قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ [الزمر: ١٧ ـ ١٨] روى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتضربان بالدفين ورسول الله ـ ﷺ ـ مسجى بثوبه فانتهزهما أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ: فكشف رسول الله ـ ﷺ ـ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد»[1].

اعلم أن السماع من أجل مقامات الروح لأنه استسعد بسعادة سماع خطاب الحق تعالى وهو في كتم العدم إذ قال للسماء والأرض وهما في كتم العدم ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وكان الخطاب مع أهل السماء والأرض كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي اسأل أهل القرية، وهم الأرواح لا الأجساد. بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وما قال طائعات لأنه خطاب

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد، حديث رقم (١٨ـ ٨٩٢). ورواه النسائي في السنن الكبرى، كتاب صلاة العيدين، باب الضرب بالدف أيام منى، حديث رقم (١٧٩٦). ورواه غيرهما.

مع العقلاء. وأن في قدرة الله تعالى لا فرق بين أن يسمع حيواناً أو جماداً أو معدوماً كما أسمع النار بقوله: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلما أسمع الله تعالى الأرواح المعدومة خطاب ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا﴾ [فُصِّلَت: ١١] استفرغت عذوبة سماع الخطاب للأرواح. ارتاحوا للإتيان طوعاً فقالوا: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١] بخلاف تراب الأجساد الذي جاء جبريل إليه فقال: أجب ربك. فلما سمع الخطاب بواسطة جبريل ـ عليه السلام ـ لم تجد ذوق سماع الحق تعالى فلم يجبه بالطوع، بل أقسم عليه واستعفى أن يقبض عنه قبضة حتى بعث الله عزرائيل إليه فقبض منه قبضة على كره منه ولو كان الله أسمع التراب خطابه بلا واسطة، كما أسمع الأرواح لارتاح للإجابة طوعاً ورغبة، ألا ترى أن الذرات الترابية لما أخذها الله تعالى من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى. فلما أسمعها خطابه كيف ارتاحت الذرات والأرواح لعذوبة سماع الخطاب. وقالوا: طوعاً ورغبة: بلى فالآن من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد إذا سمع قولاً من القرآن أو شعراً بالألحان أو ضروباً بالأوزان أو معنى من العرفان يرتاح له ويذكره ذوق عذوبة ذلك السماع ويحدده شوق لذاذة ذاك الخطاب، فيحركه بالتواجد ثم بالوجد ثم بالوجود. قيل: سمع الشبلي قائلاً يقول:

أسأل عن سلمى فهل من مخبر ... يكون له علم بها أين تنزل

فزعق وقال: لا والله ما في الدارين مخبر.

وقيل: الوجد سر صفات الباطن كما أن الطاعة سر صفات الظاهر. وصفات الظاهر: الحركة والسكون وصفات الباطن: الأحوال والأخلاق.

وقال شيخنا السعيد الشهيد شرف بن المؤيد البغدادي في كتابه تحفة البررة: إن الله تعالى كما خلق للإنسان قالباً وروحاً، فكذلك خلق لحواسه الخمس التي هي: السمع والبصر والذوق والشم واللمس قلباً وروحاً، فقالبه ما تعلق بالقالب، وروحه ما تعلق بالقلب.

ولما كان القالب في حيز الاشتراك مع البهائم والأنعام صارت صورة الحواس مشتركة بين الإنسان وغيره من الحيوان، فللقالب المشترك حواس مشتركة وللقلب المخصوص بالإنسان روح الحواس المخصوص بالإنسان، فمن ليس له من عالم الإنسانية غير حظ الحواس الظاهر وحرم حقيقة روح الحواس الظاهرة الذي هو حقيقة حواس الباطن فهو كالنعم والبهيمة

ومن خلق جهنم وذراها. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ

وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩] فبالحواس الظاهرة تدرك عالم الجواهر والأعراف، وبالحواس الحقيقية يدرك صورة حقائق الغيب قال تعالى في صفة الكفار: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] يعني أنهم والله أعلم كانوا ينظرون إلى صورة النبي - ﷺ - بالحواس الظاهرة. وما كانوا يبصرون صورة نبوته بالحس الحقيقي الروحاني قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٢] فلا شك أنهم كانوا معزولين عن حاسة السمع الظاهرة، وكانوا معزولين عن السمع الحقيقي الروحاني، الذي هو روح السمع الظاهرة وكانوا يسمعون القرآن من حيث قرع الأصوات المتموجة بالصماخ تموجاً مخصوصاً حرفياً، فيحس بها الحاسة المتعينة المتموجة الظاهرة فيفهمون بها منه أساطير الأولين ولا يسمعونه بالسمع الحقيقي الذي هو روح السمع الظاهر، إذ كانوا عنه معزولين حتى يدركوا كلام الله سبحانه وتعالى فيؤمنوا به فما هو المعتبر من الحواس الحقيقة اعتباراً يعتد بها السمع والبصر قال الله تعالى في معرض الامتنان على العباد في مواضع القرآن العظيم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المُلك: ٢٣] فبدأ بالسمع ثم بغيره، لأن الإحياء من السمع قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُمَر: ٦٨] فكما أن الإحياء الذي يتعلق بالبشر، إنما كان منشؤه من السمع وبه، فكذلك إحياء القلوب الذي يتعلق بالنشأة الأخرى التي هي مبدأ ظهور آثار الحياة الطيبة التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النّحل: ٩٧] انفتح السمع الحقيقي وزال الصم الذي ذكره الله بقوله: صم بكم. فسمع العبد من حروف القرآن أو من غير ذلك الحروف المعينة المودعة بين الدفتين كلام الله تعالى، فاشتاق إلى الحضرة وصبا إليها والأذن تعشق قبل العين أحياناً، فانقذ نفسه من النار. قال الله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠] فإذن السمع ينقذ العبد من السعير والبصر يختطفه من الجنة، وإبتداء السير هو الممر على السعير، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريَم: ٧١].

وكذلك صارت مرتبة ذوي الأبصار فوق مرتبة ذوي السمع. ألا ترى أن محمداً - ﷺ - كان صاحب البصر. قال الله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النّجم: ١٧] وموسى - عليه السلام - كان صاحب السمع. قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النّساء: ١٦٤] وناهيك بموسى - عليه السلام - وسيره إشارة إلى الابتداء

بالسمع وإلى الانتهاء بالبصر. قال الله تعالى حكاية عن ابتداء ظهور آثار روحانيته: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠] وقال تعالى حكاية عن مرتبة تمكنه ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] الآية. وقال عقبه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤] فبين الحق سبحانه وتعالى أن حظ موسى ـ عليه السلام ـ منه سبحانه على استقلال الرسالة والكلام، فأمره بقبول الاصطفاء من هذا الوجه المخصوص ورؤية المن والفضل من الله تعالى والخروج عن عهدة الشكر، ليستحق بشكره على هذه النعمة على قضية ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] مزيد معنى الرؤية على تبعية النبي ـ ﷺ ـ ولذلك قال: اللهم اجعلني من أحمد. وقال النبي ـ ﷺ ـ: «لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»(١) لأنه الطالب الصادق والسالك الواقف والمريد المتعطش فإذا تيقن أن الحظ الأوفر وهو الرؤية التي تتعلق بالبصر يستحيل أن تحصل إلا بمتابعة المصطفى ألزم على نفسه المتابعة، بخلاف إبليس الكاذب في دعواه، فإنه ما وسعه في إدراك رضى المحبوب إلا متابعة آدم فأبى واستكبر وكان من الكافرين. فلما كان ظهور السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة التي بها تصير المضغة التي إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، فلما كان تعلق السمع الظاهر الحس بالقلب أشد والبون بينهما أقرب من البعد الذي بين البصر الظاهر الحسي إلى البصر الحقيقي الروحاني، فلذلك يؤدي آثار ما يتعلق بالسمع الظاهر إلى القلب أسرع مما يؤدي إليه آثار البصر الظاهر.

ألا ترى أن الإنسان ربما غشي عليه إذا سمع بعض الأصوات الطيبة المناسبة الأوزان سواء كان صاحب قلب أو لم يكن، ولا يصير مغشياً عليه برؤية الأشياء المستحسنة في البصر الظاهر، وهذا السمع الحقيقي ربما يتحلى به العبد ولم يشعر بذلك التجلي فيسمع الأشياء بقلبه ولا يشعر باستماعه عليه لذلك الشيء من حيث الظاهر، وإن كان القلب الذي هو السامع مشعراً بحقيقة استماعه وإنما يكون ذلك لمباينة بين الظاهر والباطن، وإن هذه المباينة لا ترتفع ألبتة إلا بواسطة المجاهدة والرياضة، فإذا سمع الإنسان صوتاً سواء كان ذلك الصوت موزوناً مناسباً أو لم يكن

---

(١) رواه أحمد في المسند عن جابر بن عبد الله، حديث رقم (١٤٦٧٢) [ج ٣ ص ٣٣٨] ورواه ابن أبي شيبة، من كره النظر في كتب أهل الكتاب، حديث رقم (٢٦٤٢١) [ج ٥ ص ٣١٢].

فله من ذلك السمع حظ لا محالة من حيث الظاهر، وإن كان القلب الذي هو السامع مشعراً بحقيقة استماعه، فإنما يكون ذلك لمباينة بين الظاهر والباطن، فإن هذه المباينة لا ترتفع البتة بواسطة المجاهدة والرياضة، فإذا سمع الإنسان صوتاً سواء كان ذلك الصوت موزوناً مناسباً أو لم يكن، فله من ذلك السمع حظ لا محالة من حيث الإدراك الحسي، فإن كان له مع هذا الحس روح الحس، أي السمع الحقيقي كان له منه حظان إثنان:

أحدهما: إدراك الحس.

وثانيهما: حظ إدراك السمع الحقيقي وإن كان السمع الحقيقي لا يتوقف على ما يستفيد من السمع الظاهر، فإن له في عالمه إدراكات غير محصورة، ولذلك قال بعض المشايخ: وفي فؤادي قول يغنيني، ففي مبدأ ظهور هذا السمع يغلب عليه تصرفات هذا الحس إذ هو قشره وقالبه فيتخير إدراكاته. فإذا كمل وبلغ الغاية القصوى عمت الأوقات كلها، إذ منبعه الحقيقي فوق عالم الزمان والمكان. فإذا التفت السالك إلى الكون سمع تسبيح الأشياء بأسرها وإن من شيء إلا يسبح بحمده، وإذا اختطفه الحق سبحانه وتعالى عن الكون سمع كلام الحق سبحانه، فاستغرقت أوقاته في السماع، ولذلك قال الحصري: إيش اعمل بسماع ينقطع إذا انقطع منه من يسمع، ينبغي أن يكون سماعك سماعاً متصلاً غير منقطع. فإذا سمع السالك صوتاً واستوفى الصماخ منه حظه والسمع الحقيقي حقه، فلو كانت المباينة بين الظاهر والباطن مرتفعة بالمجاهدة وغيرها، أمكن للسامع أن يعبر عما هو مسموع سمعه الحقيقي من مجرد الصوت الظاهر بكلام منظور معلوم، فيسمع من صوت البراعة كلاماً معلوماً مفهوماً، وكذلك من سائر الأصوات كصرير الباب وأصوات الطيور وغيرهما.

روى عن أمير المؤمنين وقدوة السالكين علي ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع صوت ناقوس فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: سبحان الله حقاً حقاً إن المولى يبقى. أورده الأستاذ أبو القاسم القشيري في الرسالة.

وقال أيضاً: سمعت السلمي يقول: دخلت على أبي عثمان المغربي وواحد يستقي الماء من البئر على بكرة. فقال: يا أبا عبد الرحمٰن، تدري إيش تقول البكرة؟ فقلت: لا. فقال: يقول الله. وهذا ربما تستبشعه العقول الغير مستخلصة عن آفات البشرية، ومن لم يذق لا يدري.

فأما إذا لم تكن المباينة مرتفعة لا يمكنه أن تغير منه بشيء مفهوم وربما لا يشعر بسماعه وإن سمعه، وغير ذلك السماع حالته في الظاهر، وهذا هو حال أرباب

المواجيد الذين وجدوا في الباطن من السماع واردات وردت على قلوبهم فغيرت صفات قلوبهم وأدى ذلك التغير إلى الظاهر لكنهم ما فهموا شيئاً ولا أدركوا كلاماً. وهذا السمع أعني السمع الحقيقي الروحاني تبع لا محالة لحقيقة القلب إذ هو له بمنزلة الحاسة للقالب. فكما أن الشخص يسمع الكلام أو الصوت بواسطة الحاسة عمن يكون معه، فإذا كان مع الله سمع من الله وإذا كان مع غيره سمع من ذلك الغير. فإذا سمع العبد كلاماً أو صوتاً وكان القلب مع الله سمعت حاسته ذلك الكلام أو الصوت من المتكلم أو الصامت وسمع القلب ذلك الكلام أو مراد الله تعالى منه إلى الحق، ولذلك ربما يسمع شيئاً ويفهم من ذلك الشيء شيئاً آخر، ويسمع هزلاً ويفهم من ذلك الهزل جداً. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُمَر: ١٨] .

وقال بعض المشايخ: كنت أقرأ القرآن مرة وأسمع من نفسي فصار كأني أقرأ وأسمع من النبي - ﷺ - ثم صار وكأني أقرأ وأسمع من جبريل - عليه السلام - ثم صار كأني أقرأ وأسمع من الله.

ثم اعلم أنه تختلف أحوال أشخاص الإنسان اختلافاً ظاهراً، فبعضهم من اتصف قلبه بصفات النفس وغلبت عليه آفات الشهوات ودواعي الهوى فانحط عن ذروة الإنسانية إلى حضيض البهيمة، وبعضهم من اتصفت نفسه بالصفات القلبية فاستنارت بنور القلب واطمأنت في العبودية. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] فدخولها في زمرة العباد هو اتصافها بصفات الأرواح التي من خصائصها العبودية، وبعضهم من له منزلة من بين المنزلتين فيكون قلبه باقياً على فطرته الأولى، لا هو تصرف في النفس تصرفاً بيناً يزيل به عنها حقائق الظلمة ولا تصرفت النفس فيه تصرفاً بيناً يزيل بها عنه حقائق النورانية، فتارة تغلب النفس على قلبه وتارة يغلب القلب على نفسه. هذا هو حال أكثر المسلمين. فمن اتصف قلبه بصفات النفس فإن كان ذلك الاتصاف مبطلاً حقيقة خاصية جوهره كما في الكفار فلا بد وأن يبطل فيه السمع والفقه اللذان من صفات كماله، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩] الآية. وإن لم يكن ذلك الاتصاف مبطلاً لحقيقة جوهره وذاتيات صفاته بل مغيراً لبعض صفاته ومبطلاً لبعضها، فإما أن يكون بحيث ان أبطل السمع الحقيقي أو لا يكون، فإن لم يكن بحيث قد أبطلت سمعه الحقيقي وربما غامضه في السماع وارد حق أو فجأة خطاب عيني فيكون مخالفاً لما اعتاده من طبائع الحيوانية، فلم يحتمله

الروح الحيواني فيهلك بغتة، فلا تستغربن ذلك، فإن الأطباء قد اتفقوا على أن الفرح المفرط والغم المفرط مهلكان، خصوصاً إذا اعتريا القلب بغتة، فإن لم يهلكه غير حاله إما بإنابة إلى الله تعالى، أو بمرض وتبديل مزاج، وإن كان ذلك الاتصاف أبطل حقيقة جوهره أو أبطل سمعه الحقيقي فلا يكون سمعه إلا على طفيل القالب وواسطة الحاسة، فلو سمع القرآن فهم عنه أساطير الأولين، ولو سمع شعراً فتخيل معناه إلى ما يقتضي هواه فيزيد سماعه في زندقته.

قال ذو النون ـ رضي الله عنه ـ: السماع وارد حق جاء يزعج القلوب إلى ربها فمن أصغى إليه بحق تحقق ومن أصغى إليه بنفس تزندق. لكنه مع هذا إن لم يكن ذلك الاتصاف مبطل ولو بعد حين، وذلك إذا كان بدرقتة همة الشيخ.

وأما من اتصفت نفسه بالصفات القلبية فيكون حاسة سمعه تبعاً لحقيقة سمع قلبه، فلا يستمع في الظاهر شيئاً إلا وقد سمع فيه من القلب أشياء، فتارة يسمع من مجرد الصوت حقائق الترغيب والتشويق ولطائف المخاطبات أو الترهيب والتخويف ومستلذات المعاتبات، وتارة يسمع الكلمات فيسبق السمع الباطن السمع الظاهري فيغير مدرك الظاهر كما حكى الأستاذ في الرسالة أنه سمع أبو سلمان الدمشقي طوافاً ينادي يا سعتر بري فسقط مغشياً عليه، فلما أفاق سئل. فقال: حسبته يقول اسع ترى بري بربي. ويبلغ حاله إلى مرتبة لا يتوقف سماعه على إسماع شيء بالحس لا ينقطع سماعه من الغيب كما مر من حكاية الحصري كما لا تنقطع أبصاره ولا يزاحمه النظر الحسي فكذلك لا ينقطع سماعه ولا يزاحمه السمع الحسي.

وأما من بقي في منزلة بين المنزلتين على غلبات صفات النفس وبقاء صفات القلب حتى يغلب تارة صفات نفسه فتوقعه في الفتنة، وتارة تغلب صفات قلبه فتخرجه من الظلمات إلى النور ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] فإذا غلبت عليه صفات النفس يخاف عليه من السماع تهييج الشهوات وإثارة الآفات المستكنة، والصادق في طلبه مقصور الهمة على قهر النفس وإحياء صفات القلب فيراعي أوقاته ويعالج باطنه بما يوافقه.

حكى الأستاذ في الرسالة أنه كان ابن زيري من أصحاب الجنيد شيخاً فاضلاً فربما كان يحضر موضع سماع، فإن استطابه فرش إزاره وجلس عليه وقال: الصوفي مع قلبه، وإن لم يستطب قال: السماع لأرباب القلوب ومر وأخذ نعله.

وأما الكلام في تحليل السماع وتحريمه فمنه ما يتعلق بالأحاديث والآثار، ومنه ما يتعلق بأحكام المجتهدين من الأئمة، ومنه ما يتعلق بإشارات المحققين من المشايخ

الصوفية. فأما ما يتعلق بالأحاديث والآثار فمنه ما روى ابن شهاب الزهري عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - أن أبا بكر - رضي الله عنه - دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتدففان وتضربان ورسول الله - ﷺ - متغش بثوبه فانتهزهما أبو بكر فكشف رسول الله - ﷺ - عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد»[1]. وتلك أيام منى ورسول الله - ﷺ - بالمدينة. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: رأيت رسول الله - ﷺ - يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون وأنا جارية. واتفق البخاري ومسلم على تخريجه من طريق ابن شهاب وروى الزهري أيضاً: وقال بسايب بن يزيد بينا نحن مع عبد الرحمٰن بن عوف - رضي الله عنه - في طريق الحج ونحن نؤم بمكة اعتزل عبد الرحمٰن الطريق ثم قال لرباح بن المغترف: غننا يا أبا حسان، وكان يحسن النصب فبينا رباح يغنيهم أدركهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته، فقال: ما هذا؟ فقال عبد الرحمٰن لا بأس بهذا نلهو ونقصر عنا. فقال عمر: فإن كنت آخذاً فعليك بشعر ضرار بن الخطاب. وضرار: رجل من بني محارب بن فهز. والنصب: ضرب من أغاني الأعراب.

وروى عمر بن عبد العزيز عن عبد الله بن الحارث بن نوفل أنه رأى أسامة بن زيد في مسجد رسول الله - ﷺ - مضطجعاً رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، يتغنى بالنصب. وهذا الحديث رواه يونس بن زيد وجماعة الزهري عن عمر بن عبد العزيز. وقال مسلم بن الحجاج: والحديث كما قال القوم.

وروى وهب بن كيسان قال: قال عبد الله بن الزبير، وكان متكئاً يغني، قال فقال له رجل تغني فاستوى جالساً ثم قال: وأي رجل من المهاجرين لم أسمعه يتغنى النصب.

وروى ابن جريج: سألت عطاء عن الغناء بالشعر، وقال لا أرى به بأساً إن لم يكن فحشاً.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنه - في هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦] قال: نزلت في الغناء وأشباهه.

وروى أبو الصهباء عن ابن مسعود قال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦] قال: هو والله الغناء.

وروى عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ۝﴾ [النجم: ٦١] قال: هو

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

الغناء بالحميرية.

وروى أبو مالك الأشعري عن النبي - ﷺ - أنه قال: «يشربون ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها وتضرب على رؤوسهم المعازف خسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»(١).

وروى ابن عباس - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله تبارك وتعالى حرم عليكم الخمر والميسر والكوب وهو الطبل وقال كل مسكر حرام»(٢).

وروى ابن وائل عن ابن مسعود قال: الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل.

ونقل أبو طالب المكي وقال: سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر وابن الزبير والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم وقال: قد فعل ذلك كثير من السلف: صحابي وتابعي بإحسان، قال: ولم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع في أفضل الأيام في السنة وهي الأيام المعدودات التي أمر الله تعالى عباده فيها بذكره وهي أيام التشريف، ولم يزل أهل المدينة مواظبين مع أهل مكة على السماع إلى زماننا هذا.

وأما ما يتعلق بأقاويل المجتهدين من الأئمة. فالشافعي - رضي الله عنه - لا يحرمه ويجعله في العوام مكروهاً حتى لو احترف بالغناء واتصف على الدوام بسماعه على وجه النهي، يرد به الشهادة ويجعله مما يسقط المروءة ولا يلحقه بالمحرمات.

وروى عن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع فقيل له إذا أتى بك يوم القيامة ويؤتى بحسناتك وسيئاتك ففي أي الجانبين سماعك فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات يعني أنه من المباحات.

وحكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي - رضي الله عنه - ومالك وأبي حنيفة - رضي الله عنهما - وسفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً استدل بها على أنهم رأوا تحريمه.

وقد قال الشافعي في كتاب «أدب القضاء» إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل.

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الخبر المدحض قول من نفى كون المسخ في هذه الأمة، حديث رقم (٦٧٥٨) ورواه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، حديث رقم (٤٠٢٠) ورواه غيرهما بألفاظ متقاربة.

(٢) رواه البيهقي في سننه الكبرى، باب ما جاء في ذم الملاهي من المعازف والمزامير ونحوها، حديث رقم (٢٠٧٧٩). ورواه أحمد في المسند عن عبد الله بن عباس حديث رقم (٢٦٢٥) [ج ١ ص ٢٨٩] ورواه غيرهما.

فمن استكثر فيه فهو سفيه ترد شهادته.

وقال: وأما أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ فإنه كان يكره ذلك ويجعل سماع الغناء من الذنوب.

وكذلك سائر أهل الكوفة. سفيان الثوري وحماد وإبراهيم والشعبي ولا مزيد على ما ذكره حجة الإسلام: محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ في إباحة السماع في إحياء علوم الدين إجمالاً وتفصيلاً ورداً على القائلين بتحريم السماع، ولا نطول هذا المختصر بنقله، وحاصل كلامهم يرجع إلى أن السماع لهو وكل لهو حرام إلا ما صح جوازه عن النبي ـ ﷺ ـ. والنزاع في المقدمتين جميعاً، أما الأولى: فلأن عندنا يقسم السماع إلى ما يتعلق باللهو وإلى ما لا يتعلق به. والمتعلق باللهو وإن كان مباحاً في الشرع حقيقة فعند أكثر العلماء فهو محظور في معاملة أرباب القلوب، وقد جلت رتبة هذه الطائفة عن أن يستمعوا بهذا ويجتمعوا للسماع بسهو وقد استفاض واشتهر أن أبا الحسن النوري حضر مجلساً فيه سماع فسمع هذا البيت.

مازلت أنزل في ودادك منزلاً ... يتحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه، فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقي أصوله مثل السيوف، وكان يغدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه، فورم قدماه وساقاه وعاش بعده أياماً قلائل ومات.

حكى الأستاذ في الرسالة: أن الرقى قال: سمعت الدراج يقول: كنت أنا وابن القوطي مارين على الدجلة بين البصرة والأيلة فإذا بقصر حسن له منظر وعليه رجل وبين يديه جارية تغني وتقول:

في سبيل الله ود كان مني لك يبذل ... كل يوم يتلون غير هذا بك أجمل

فإذا شاب تحت المنظر بيده ركوة وعليه مرقعة يسمع. فقال: يا جارية:

بحياة مولاك اعبدي ... كل يوم يتلون غير هذا بك أجمل

فقال الشاب قولي فأعادت. فقال الفقير: هذا والله تلوني مع الحق وشهق شهقة خرج فيها روحه. فقال صاحب القصر للجارية: أنت حرة لوجه الله تعالى وأهل البصرة فرغوا من دفنه والصلاة عليه. فقام صاحب القصر وقال: أليس تعرفونني، أشهدكم أن كل شيء لي في سبيل الله تعالى وكل مماليكي أحرار، فأتزر بإزار وارتدى برداء وتصدق بالقصر ومر فلم ير له بعد ذلك وجه ولا سمع له أثر.

وحكى أن نقيب العلوية بنيسابور كان منكراً لسماع القوم وينسب مواجيدهم وحركاتهم في السماع إلى التكلف والإراءة فاتفق أن حضر سماع بعض المشايخ، أظنه

أبا سعيد بن أبي الخير، فذكر القوال بيتاً، فصعق بعض الفقراء وقام وقعد ميتاً فشاهد السيد تلك الواقعة فقال: يمكن أن يكذب الرجل في حالته ولا يمكن أن يكذب في موته.

فهذه الحكايات المشهورة تعرفك أن سماع القوم ليس هو مما ينسب إلى اللهو واللعب، فإنهم يسمعون من حيث سماع التوحيد بحق، لا بحظ فهم بين استتار يوجب التلهية أو تجل يورث الترويح أو خطاب يقتضي الاشتياق أو غياب يزيد في الإحراق، فتارة يخاطبهم الحق بأشعارهم فيختطفهم عن أذكار ستوراً، فتارة يتضرعون بين يدي الحق بأحوالهم وتارة بأموالهم، فيملأ قلوبهم سروراً وحبوراً.

وأما المقدمة الثانية: وهي أن كل لهو حرام إلا ما صح جوازه عن النبي - ﷺ - فهي صادقة، وإن كان فيها تطويلاً أن السماع الذي يتعلق باللهو قد ثبت جوازه عن النبي - ﷺ -. فإن حديث عائشة أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان وتدففان وتضربان والنبي - ﷺ - متغشٍ بثوبه فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي - ﷺ - عن وجهه وقال: دعهما. حديث ثابت متفق على صحته أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما. وروي عن عروة بن الزبير قال: قالت عائشة - رضي الله عنها - لقد رأيت رسول الله - ﷺ - يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون في المسجد بالدرق والحراب ورسول الله - ﷺ - يسترني بردائه لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو. وهذا أيضاً مما اتفقا على تخريجه، وهذه الأحاديث مما قد خرجنا في كتابنا الموسوم بزبدة العوالي وحلية الأمالي، فصح إباحة النظر إلى اللهو وإباحة الرقص فإنه لا يخفى عادة الحبشة في الرقص واللعب، وإباحة اللعب في المسجد وإباحة نظر النسوان إلى الرجال المشتغلين باللهو واللعب فإذا ثبت جواز هذه الأشياء ثبت أن السماع مباح وإن كان مقروناً باللهو واللعب شرعاً إذا لم يقترن بمحظور شرعي، أو ما يؤدي إلى محظور شرعي والله أعلم.

أما ما يتعلق بالمحققين من المشايخ. فقد نقل عن بعضهم: إنكار السماع ومنهم المريدين عن الاشتغال به. وعن بعضهم تجويز السماع بل الاشتغال به والتروي عن مشاربه وإذا تأملت في أقوالهم وكشفت الغطاء عن أحوالهم. وجدتهم متفقين على الحقيقة غير مختلفين إلا في الظاهر. وإنما تطرق الاختلاف في أقوالهم لا في صورة معينة تريك وجه التناقض ولكن في صورة مختلفة، وأقوال متباينة ومقامات متباعدة، وإذا اختلفت الأحوال زال التناقض من الأقوال. ومما يدلك على هذا اتفاق شافعيهم

وحنفيهم على إثبات السماع واجتماعهم في مجالس السماع.

حكى الشيخ أبو نصر السراج في اللمع قال: سمعت أبا الحسين علي بن محمد الصيرفي قال: سمعت رويما وقد سئل عن المشايخ الذين لقيهم، كيف كان يجدهم في وقت السماع؟ فقال: مثل قطيع الغنم إذا وقع في وسطها الذئب. وقال سمعت الوجيهي يقول: سمعت الطراس القواري بمصر يقول: دخلت على إسرافيل أستاذ ذي النون وهو جالس وينكث بإصبعه على الأرض ويترنم مع نفسه بشيء فلما رآني قال: تحسن تقول شيئاً، قلت: لا، قال: أنت بلا قلب. فمن منع منهم المريدين عن السماع وأنكر عليهم الاجتماع بالسماع فلفوائد، منها: أن المريدين في شرح إرادتهم وعزة طلبهم قد غلبت عليهم الصفات النفسانية والأهواء المختلفة. وكذلك احتاجوا إلى المجاهدة والرياضات الشاقة، فخافوا عليهم إثارة فتنة قد أماتوها، وتهيج داعية قد قيدوها وتذكر شهوة قد نسوها، والنزاع إلى معشوقة قد فارقوها، والتحنن إلى بلاد قد رحلوا عنها.

سئل الشبلي عن السماع فقال: ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية.

وقال الجنيد: إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

ومنها: أنه ربما يقع المريد في آفات الرياء، فيميل طبعه إلى قبول الخلق ويستحلي تقربهم إليه وتبركهم إلى وجده فيجره ذلك إلى تكلف في إظهار الوجد لا سيما وقد وجدوا رخصة في التواجد. فعلى ظن التواجد، المحمود الذي هو التوجه إلى الحضرة باستمداد الحق، والاستعانة به في نفي الصفات النفسانية والالتفات إلى الغير يوقعهم الشيطان في التواجد الذي هو نتيجة الرياء الصرف.

حكي: أن أبا القاسم النصراباذي كان كثير الولع بالسماع فعوتب في ذلك فقال: نعم هو خير من أن تقعد وتغتاب. فقال له أبو عمر بن نجيد: هيهات يا أبا القاسم زلة في السماع خير من كذا وكذا سنة تغتاب الناس، وذلك أن من مزلة السماع أنه يكذب على الله أنه وهب له شيئاً وما وهب له. والكذب على الله من أقبح الزلات، وكذلك قال أبو علي الدقاق وقرأ بين يديه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [يونس: ٦٩] قال: هو الصوفي إذا صاح في غير وقته.

ومنها: أنه قلما يخلو مجلس سماع عمن لا يكون من جنسهم بل يكون من أرباب النفوس وأبناء الدنيا، فربما لا تؤدى أحوالهم، وتعود غائلة حضورهم إليهم فيشقى بهم جليسهم ومن شأنهم أن لا يشقى بهم جليسهم ولذلك قال الجنيد: السماع

يحتاج إلى ثلاثة أشياء: الزمان والمكان والإخوان.

ومنها: أن السماع يظهر مخفيات الباطن ومستورات القلوب ويبرز الجوهر المكنون، فيصير المريد بذلك عرضة للآفات، إذ هو مأمور بإخفاء الأحوال، لا سيما عن الأغيار، فلذلك قالوا: كل عمل وقع عليه نظر الخلق صار هباء منثوراً، وقال بعضهم: الفقير الصادق هو الذي لا يضمر شراً ولا يظهر خيراً.

ومنها: أنه ربما خلطوا جدهم بهزل ما، أو وقعوا في الاعتراض على محق وتركوا بعض آداب الصحبة أو غفلوا عن مراقبة باطنهم لحظة، فتصرفت فيهم الشياطين وسولتهم وأغوتهم، وكثيراً ما يكون هذه التصرفات في صورة الوجد وإظهار غلبات الأحوال. حكى الشيخ أبو الحسن علي بن عثمان الهجويري صاحب كتاب كشف المحجوب فيه قال: سمعت الشيخ أبا العباس الشقاني يقول: كنت في مجلس قوم اشتغلوا بالسماع فرأيت الشياطين عرايا يطوفون ويلعبون بين أيديهم وينفخون فيهم فيتواجد الفقراء بذلك. وهذا مما لا يقف عليه إلا صاحب نظر كامل واقف على مكائد الشيطان وتصرفاته في المريدين. ولهذا قال أبو علي الروزباري: ليتنا تخلصنا منه رأساً برأس.

فلما تحقق عندهم هذه الآفات في السماع احترزوا عنه واستجلبوا فوائده بطرف آخر. وطائفة أخرى كرهت ذلك وزعمت أن الذي يتعرض لاستماع هذه الرباعيات لا يخلو من وجهين: إما قوم متمهلين من أهل الرعاية والفتنة أو قوم وصلوا إلى الأعمال السنية، وعانقوا المقامات الرضية، وأماتوا أنفسهم بالرياضات والمجاهدات وطرحوا الدنيا وراء ظهورهم وانقطعوا إلى الله بجميع معانيهم، ولسنا نحن من هؤلاء ولا من هؤلاء، فلا معنى لاشتغالنا بذلك، وترك ذلك أولى بنا والاشتغال بالطاعات وآداء المفروضات واجتناب المحرمات شغلنا عن ذلك.

ومن رخص السماع للمريدين فكانت رخصته على سبيل المعالجة والتدبير الصالح، فإن الله تعالى ما خلق دواء وأودع فيه شفاء إلا وقد قاربه بنوع ضرر يتوقع من استعماله، إن لم يتداركه المعالج بحسن التدبير وما من شيء من المعاملات الشرعية والأوامر الإلهية التي يتوقع النجاة بها والفوز بالدرجات إلا وفيها آفات تؤدي إلى الهلاك إذا لم يستعملها العبد على شرطها. فأولى أركان الإسلام بالاعتبار الصلاة.

ومنها: الفوز والفلاح. قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ومنها: الويل والخسران. قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤، ٥] وقال النبي

ـ ﷺ ـ: «رب قائم ليس حظه من قيامه إلا السهر ورب صائم ليس حظه من صيامه إلا الجوع والعطش»(١). وكما رأى الشقاني الشياطين يلعبون بأهل السماع رأى رسول الله ـ ﷺ ـ الشياطين يدخلون فرج الصفوف في الصلاة. فإنه قد صح في حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «رصوا صفوفكم وقاربوا بينهما. وحاذوا بالأعناق فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشيطان يدخل من خلل الصف كأنها الحذف»(٢) وصح في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين. فإذا قضى النداء أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه ويقول: اذكر كذا وكذا لما لم يكن يذكر حتى يضل الرجل. لن يدري كم صلى»(٣).

فلا يسوغ لأحد ترك الصلاة بعلة طواف الشيطان بين يدي المصلي ولا بعلة مزاحمته بالوسوسة وإلقاء الخواطر المذمومة. فطريق المريد أن يجد في تنقيح الأعمال وتهذيبها وإزاحة الآفات عنها. وهذا هو فائدة الرياضة ليصير بها مناجياً ربه في صلواته بعد أن كان ضحكة للشياطين وأسير تصرفاتهم، فكما أن المصلي لا يترك الصلاة لآفة يجدها في خلال صلاته، بل يجد في تنقيح الصلاة تصحيحها، فكذلك الشيخ لا يترك السماع، بعد أن يتحقق عن طريق تربية المريدين به إذا وجد آفة تلحقه بل يزيل الآفة بهمته وولايته ويريهم بصفوته وزبدته، فإن للمريدين وأصحاب الرياضة والمجاهدة وأرباب الخلوة والعزلة أطواراً وأحوالاً مختلفة. فربما يذيقهم الوقت لذة بسط يحيى الحق سبحانه بها قلوبهم، فيزيل عنهم نصب الرياضة وتعب المجاهدة، وربما يوقعهم في قبض يؤدي إذا استكمل شأنه إلى ملالة وسآمة يخاف منها إزعاج المريد عن الخلوة

(١) رواه ابن خزيمة في صحيحه، باب نفي نواب الصوم عني...، حديث رقم (١٩٩٧) [ج ٣ ص ٢٤٢].

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه، باب الأمر بالمحاذاة بين المناكب...، حديث رقم (١٥٤٥) ورواه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، حديث رقم (٦٦٧) ورواه غيرهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة، باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه، حديث رقم (١٩ـ ٣٨٩) ونصّه:
عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطان له ضراط حتى لا يسمع التأذين فإذا قضي التأذين أقبل حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر حتى إذا قضي التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له اذكر كذا واذكر كذا لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل ما يدري كم صلى.
ورواه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب فضل التأذين، حديث رقم (٦٠٨) ورواه غيرهما.

وقبول باطنه لتصرفات الشيطان والنفس. ففي كلا الوقتين يربيه الشيخ على مقتضى نظره الناقد، فإذا كان في البسط يزيد في السماع في تشويقه وتعشيقه فيشحذ به دواعي قلبه الوامق حتى يصير بحيث لا يبالي مهجته وروحه فيتبدل بذلك سيره بالطيران، فيقطع بلحظة ولمحة ما لا يتوقع قطعه في غيره بسنة. وإذا كان في القبض ينشطه ويقويه ويزيل تعبه ويريحه من نصبه ويدفع بذلك منه إصر المجاهدة وعبء الرياضة ويحيى به قلبه ويفك به روحه عن أسر الشيطان، واستيلاء النفس. وإذا استراح السالك به عن كلالة عرضت وشامة سنحت عن الرياضة واستيلاء خواطر الأعداء عاد رونق وجه طلبه. ولا تستغربن ذلك في حال المريد والسالك فإنك تشاهد في الظاهر أنه ربما يغيب عاشق عن معشوقه، فيمحو طول المفارقة آثار الشوق من قلبه ويخلق النزاع في باطنه إلى محبوبه فيقل أنينه بل يفنى حنينه. فإذا اتفق له سماع أبيات تعلق بواقعته وتتضمن تغيير معشوقه وتذكره أيام الوصال ولذات المعاشقة والمغازلة ولطائف الاستمتاع بحال المعشوق حركه السماع وهيج دواعي طلبه، وأثار أشواق قلبه وجدد نزاع ضميره إلى أن طفق يمزق ثيابه وربما سعى في إهلاك نفسه وإزهاق روحه، لا سيما إذا صحبه سكر. وكذلك إذا استولت صفات النفس ودواعي الهوى على القلب الهائم فانسدت بذلك طريق القلب الذي يلي الغيب، فلا يروحه نسيم نفحات ألطاف الرب. فبقي القلب كالعاشق المهجور المبتلي بالآفات والحرمان فإذا امتدت مدة الهجران وطالت أيام الحرمان ولم يتمكن بعد في صدق الطلب آنس بالوحشة ونسي لذة المناجاة. وإذا حركه السماع واستوى زبد قلبه هيج أشواقه الكامنة فيستحكم بذلك عقدة الإرادة، وتجدد عهد الطلب. فتبين أن السماع في حق المريد في الابتداء من أنفع المعالجات وأنجع التدابير لا سيما إذا لم يقارنه آفة صحبة الأغيار ولم يزاحمه مجالسة الأشرار، ولم يكدره حضور من يزيغ قلب المريد من الحق إلى الباطل بل يكون في حراسة همة شيخ تمنع هيبته المريد عن الحركات المتكلفة، وخلط الجد بالهزل ومزج الطلب بالطرب، وأما الكبراء والسادة منهم فجلت رتبتهم عن أن يستكملوا بشيء ويكون فيهم فضلة لطارق يطرقهم ولوارد يرد عليهم ولذلك قال بعضهم: أنا ودك[1] كله لا ينفذ فيّ قول.

وحكي عن سهل بن عبد الله التستري أنه قال: حالي في الصلاة وقبل الدخول في الصلاة شيء واحد.

وذلك أنه يراعي قلبه ويراقب الله بسره قبل دخوله في الصلاة، ثم يقوم إلى

---

(١) الوَدَكُ: الدَّسَمُ، أو دَسَمُ اللحم ودُهْنُه الذي يستخرج منه.

الصلاة بحضور قلبه وجمع همه فيدخل في الصلاة بالمعنى الذي كان قبل الصلاة. فكذلك حاله يكون قبل السماع وبعده بمعنى واحد فيكون سماعه متصلاً ووجده متصلاً وشربه دائماً وعطشه دائماً، وكلما ازداد شربه ازداد عطشه، وكلما ازداد عطشاً ازداد شرباً، فلا ينقطع أبداً.

حكى الوجيهي أنه كان جماعة من الصوفية متجمعين في بيت ومعهم قوال فهم يقولون ويتواجدون فأشرف عليهم ممشاد الدينوري فلما نظروا إليه سكتوا جميعاً فقال لهم ممشاد: ما لكم قد سكتم، ارجعوا إلى ما كنتم فيه فلو جمع ملاهي الدنيا في أذني ما شغل همي ولا شفى ما بي.

قال الشيخ أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي في كتاب كشف المحجوب: دخلت يوماً في صميم الصيف على الشيخ أبي أحمد بن المظفر بن أحمد بن حمدان بثياب السفر وغبار الطريق فقال لي: يا أبا الحسن إيش إرادتك في الحال. فقلت: السماع، فاستحضر قوالاً وجماعة من أهل السماع، وكنت على قوة الإرادة وحرقة الابتداء وحدة الشباب، فلما سمعت السماع استولى عليّ سلطان الوجد واضطربت اضطراباً شديداً، فلما سكنت غلبات الوقت وسكت القوال، قال لي الشيخ: كيف وجدت السماع؟ فقلت: أيها الشيخ استرحت به وطاب وقتي فيه، فقال: سيجيء وقت يستوي عندك هذا السماع ونعيق الغراب، فإن قوة السمع تكون عند عدم المشاهدة، فإذا حصلت المشاهدة اضمحلت ولاية السمع، فانظر حتى لا يعتاد ذلك، فتصير طبيعة تمنعك عن الكمال.

قال الشيخ أبو نصر السراج ـ رحمه الله ـ: وهو لا يعني الكبراء ربما يحضرون في هذه المواضع التي فيها السماع لأحوال شتى وجهات مختلفة، فربما يجتمعون معهم من جهة مساعدة أخ من إخوانهم، وربما يحضرون لعلمهم ونياتهم وكبر عقولهم حتى تعرفونهم ما لهم وما عليهم من شرائط السماع وآدابها، وربما يجتمعون مع غير أبناء جنسهم من سعة أخلاقهم وتحملهم، فيكونون معهم باينين منهم ومنفردين عنهم ببواطنهم، وإن كانوا مع جلسائهم بظواهرهم.

قلت إلى هنا ما ذكره الشيخ الشهيد ـ رضي الله عنه ـ في فضل السماع من كتابه الموسوم بتحفة البررة. تيمناً بميامن كلماته الشريفة وإشاراته اللطيفة متبركاً بنتائج نفائس أنفاسه العزيزة، ليكون الكتاب بطراز فوائده مطرزاً والمتأملون بتناول موائده معززاً.

فأما اختياري من الأقاويل في السماع ما قال الجنيد ـ رحمة الله عليه ـ: السماع: حرام على العوام لبقاء نفوسهم. مباح للخواص لوفور علومهم، واجب على

أصحابنا لفناء حظوظهم.

وقال أبو بكر الكتاني: سماع العوام على متابعة الطبع، وسماع المريدين رغبة ورهبة، وسماع الأولياء رؤية الآلآء والنعم، وسماع العارفين على المشاهدة، وسماع أهل الحقيقة على الكشف والعيان.

ولكل واحد من هؤلاء مصدر ومقام، فلا ريب في أن السماع مشتمل على كثير من الفوائد، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: ١٨] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المَائدة: ٨٣] فكل سماع قول يفيد هذه المعاني لصاحبه من الهداية والرشد والمعرفة واللب فهو السماع الحق الذي اسمعه الحق تعالى. فمن القوم من يسمع في الله وبالله ومن الله، ولا يسمع بالسمع الإنساني بل يسمع بالسمع الرباني كما قال تعالى[١]: «كنت له سمعا فبي يسمع»[٢]. عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: أوحى الله إلى موسى بن عمران - عليه السلام -: إني جعلت فيك عشرة آلاف سمع حتى سمعت كلامي وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني. فمن كان له مثل هذا السمع فقد يسمع من الناقوس التوحيد كما سمع علي - رضي الله عنه -.

وهذا سماع لم يختلف فيه أحد من المسلمين، وكذلك السماع يتضمن آفات كثيرة وفتناً عظيمة، لمن تصدى بالحرص عليه، إذا قلت أعماله وانفسدت أحواله وربما تطلب النفوس الاجتماع في السماع لتناول الشهوة واسترواحاً إلى الطرب واللهو والعشرة، واستجلاء لمواطن الغفلات والمطانبات ولا سيما في زماننا. فإن أكثر من تزيا بزي الطلبة هم البطلة من أرباب أصحاب النفوس والأهواء الذين ينتسبون إلى التصوف، ويتشبهون بأهل التعرف، يتداخلون في هذا الشأن بأغراض فاسدة ويتعاملون في أسواق كاسدة، شيوخهم عن التقوى عرية، وشبابهم عن الفتوة برية، يباشرون الهوى في اجتماعهم ويعاشرون الرجال النساء في سماعهم، فلعمري الواجب على ذوي الاجتهاد الصائب تحريم السماع بهذه العلل، وسد هذا الخلل. اللهم إلا أن يكون شيخاً كاملاً واصلاً، صاحب الولاية والتصرف، وله أصحاب من الطالبين الصادقين، فمن ذوي جد واجتهاد، مواظبين على العزلة والخلوة منقطعين إلى الله ملازمي ذكر الله مجاهدي كفار النفوس بسيف الصدق وتأيد الله يسلم لهم السماع،

---

(١) أي في الحديث القدسي.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه بغير هذا اللفظ.

بشرط حصول الزمان والمكان والأخوان في بعض الأوقات بحسب نظر الشيخ المعالج الواقف على دائهم ودوائهم، وإن اتفق حضور بعض أولي الإرادة، فمن لم يكن من جملتهم ولا في زمن لهم، بل متبرك بهم ومتوسل إليهم ومتأدب بآدابهم يساغ له ذلك الحضور لينال بركة صحبتهم، فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم.

وأما آداب أهل السماع فكثيرة. وهي مقصورة على ثلاثة أصول:

أحدها: الصدق مع الله في جميع أحواله فيه بحيث تكون حركاته وسكناته لله وفي الله وبالله.

وثانيها: حسن المراقبة ليتمكن الوجد فيه ويمتلي منه ولا يتحرك إلا بتحريك الوجد وتصرف الوارد أو موافقة الإخوان.

وثالثها: حفظ القلوب ورعاية الحقوق. فيراعى جانب الشيخ بالتواضع والتذلل والخضوع.

ويحسن الأدب حين يضع رأسه على قدمه لئلا يكون على هيئة السجود، ويتأدب في الرجوع ويراعى جانب الإخوان بضبط الحركات، لئلا يقع على أحد ولا يشوش عليهم حالاتهم، ويقدمهم على نفسه ويؤثر الوقت عليهم بقدر الإمكان ويوافقهم المشايخ. ولا يجب على الشيوخ موافقتهم، ويراعي نفسه عن التعري والخروج عن الثياب، ورمي الخرقة إلى القوال وتمزيقها والزعقات، إلا عن ضرورة ونية صالحة مجتنباً فيها التكلف والمراعاة، ثم الحكم في جميع ما يصدر من القوم في السماع إلقاء الخرقة، والتمزيق والتخريق وغير ذلك مفوض إلى رأي الشيخ، أو مقدم القوم واستصوابه من غير تصنع بعض القوم، لاستخراج حظ من حظوظ النفس، فإن من شرائط الصحبة وآدابها رعاية الحقوق وترك الحظوظ. وقد ورد في إلقاء الخرقة إلى الحادي إذا أحسنت النية أن كعب بن زهير دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ المسجد وأنشد أبياته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

حتى انتهى إلى قوله فيها:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ: من أنت فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، أنا كعب بن زهير فرمى إليه رسول الله ـ ﷺ ـ بردة كانت عليه(١)

---

(١) المستدرك على الصحيحين، ذكر كعب وبجير ابني زهير رضي الله عنهما، حديث رقم (٦٤٨٠) [ج ٣ ص ٦٧٤] ورواه غيره.

فلما كان زمن معاوية، بعث إلى كعب بن زهير بعنا بردة رسول الله ـ ﷺ ـ بعشرة آلاف، فوجه إليه: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ـ ﷺ ـ أحداً فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألفاً وأخذ البردة وهي البردة التي عند الإمام المستعصم بالله أمير المؤمنين ـ أعاد الله بركتها على أيامه الزاهرة ـ وقد ورد في تواجد القوم وموافقة بعضهم لبعض وسقوط الخرقة وسنة تخريقها وقسمتها على الحاضرين، ما روى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ إذ نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا رسول الله إن فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام. ففرح رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: أفيكم من ينشدنا، فقال بدوي: نعم يا رسول الله، فقال: هات، فأنشد:

كل صبح وكل إشراق ... تبك عيني بدمع مشتاق

قد لسعت حية الهوى كبدي ... فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به ... فعنده رقيتي وترياقي

فتواجد رسول الله ـ ﷺ ـ وتواجد الأصحاب معه حتى سقط رداءه عن منكبه فلما فرغوا آوى كل واحد إلى مكانه، فقال معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنه ـ: ما أحسن لعبكم يا رسول الله، قال: مه يا معاوية، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب، ثم قسم رداء رسول الله ـ ﷺ ـ بين حاضريه أربعمائة قطعة[1]. وذهب بعضهم إلى أن المخروج من الخرق تقسم على الجميع وما كان من ذلك صحيحاً يعطى القوال.

واستدل بما روى عن أبي قتادة قال: لما وضعت الحرب أوزارها يوم حنين وفرغنا من القوم، قال رسول الله ـ ﷺ ـ «من قتل قتيلاً فله سلبُه»[2]. وهذا له وجه في الخرقة الصحيحة والله أعلم.

وللسماع آداب كثيرة. فاختصرنا على هذا القدر لئلا يطول به الكتاب.

---

(١) أخرجه السهروردي في كتابه «عوارف المعارف» (انظر تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، الباب الخامس والعشرون في القول في السماع تأدباً واعتناء [ج ١ ص ١١٦]).

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق سلب القتيل، حديث رقم (٤١ـ ١٧٥١). ورواه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: «ويوم حنين...» [التوبة، الآية ٢٥]، حديث رقم (٤٣٢١) ورواه غيرهما.

فصل في خاتمة الكتاب

قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣] اعلم أن الله تعالى في تحقيق قوله[1]: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف بهم»، لما خلق الخلق، أي أرواح الخلق خلقهم في ظلمة الخلقية ثم رش عليهم من نوره، أي من نور القدم، فمن أصابه ذلك النور، فقد اهتدى، أي اهتدى بنور القدم إلى ذات القديم وصولاً ومعرفة لذاته وصفاته، وهم المجذوبون المقبولون من أهل العناية، ومن أخطأه أي لم يصبه نور القدم فقد ضل، أي عن طريق الوصول إلى الله تعالى ومعرفته، وضل في شجرة المخلوقات عن أن يكون ثمرة، كما يقال ضل الماء في اللبن، وهم المخذولون المردودون من أهل الشقاوة.

ثم اعلم أن العالم شجرة ثمرتها الإنسان وبذرها روح النبي - ﷺ - بقوله: «أول ما خلق الله روحي»[2]. وهو الروح المشرف بشرف إضافة من روحي ولهذا قال - ﷺ -: «أنا من الله والمؤمنون مني»[3]. لأنهم خلقوا من بذر روحه، كالثمار على الشجرة كما خلقت الشجرة منه كما مر شرحه، وكما أن في البذر نفس النبات معبأة لتنمو بها الشجرة فكذلك في بذر الروح النبوي. الملكوت معبأ لتنمو به شجرة العالم ولما كانت أجزاء البذر متساوية في الجنسية على طبيعة واحدة، وهي إما السكون أو الحركة، فإن كانت طبيعتها السكون فإنا نشاهدها متحركة عند النشوء والنمو فلا بد من محرك، وإن كانت طبيعتها الحركة فينبغي أن تكون الحركة الطبيعية من نوع واحد، إما إلى علو، أو إلى أسفل، فلما وجدنا بعض أجزاء البذر يتحرك إلى العلو وبعضها يتحرك إلى السفل علمنا أنه لا بد له من محرك فاعل مختار قادر عليم حكيم يدبر أمر البذر على قانون الحكمة البالغة الأزلية، لتصير شجرة كاملة مثمرة ذات عروق

---

(١) أي في الحديث القدسي.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء حديث رقم (٦١٩) طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

وأغصان وأوراق وأزهار وثمار، وهو الذي ينشيء أقسام الشجرة المختلفة من الأجزاء المتساوية المتفقة في الجنسية على خلاف طبيعتها بالقدرة الكاملة، والإرادة القديمة، إظهاراً للقدرة والحكمة، ثم تخصيص الجزء المخصوص بالثمارية من بين الأجزاء المتساوية في الطبيعة يدل على مزيد عناية منشئه في حقه، وله شرف بذلك ومزية على إخوانه من الأجزاء. وهذا المعنى ينبئك على مالكية منشيء الشجرة وملكيته على مملكة الشجرة وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢﴾ [الواقعة: ٧٢] فبالمالكية يتصرف فيه وبالملكية يحكم على كل جزء منها بأمركن عرقاً أو غصناً أو ورقاً أو ثمرة، وبالمشيئة يكونه ما يشاء كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] فإذا اتفق لك بهذا البرهان القطعي إن الله سبحانه وتعالى فاعل مختار حكيم، فاعلم أنه الذي أنشأ شجرة العالم من بذر الروح النبوي في البداية، ثم جعله ثمرة شجرة العالم في النهاية. ولهذا قال ـ ﷺ ـ: «نحن الآخرون السابقون»(١) أي الآخرون بالثمارية السابقون بالبذرية، وجعل الأنبياء والأولياء كذلك أثماراً على أغصان الشجرة بحسب مراتبهم في القربات، بعضهم أعلى درجة من بعض. كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ومن هذا قال ـ ﷺ ـ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة»(٢)، لأنه بلغ من الشجرة ذروة قاب قوسين أو أدنى، وبقي كل نبي على غصن من أغصان الشجرة وهي السمٰوات، ثم جعل أشخاص بني آدم كالغراس التي تخرج من أصل الشجرة، ولهذا قيل للإنسان العالم الصغير، فشخص كل واحد من الأشخاص شجرة بالصورة وحقيقة وجوده مخبوءة فيها بالثمارية قد رد إلى أسفل السافلين بتعلق بذر الروح في أرض القالب، وهي عرق شجرة الإنسانية، فكل روح أصابه النور المرشش في عالم الأرواح وهو أصل الإيمان لم يسكن في أسفل عرق الشجرة، وهو النفس الشهوانية المتعلقة بالدنيا وزينتها وشهواتها، فإنه يحركه النور إلى علو أغصان الشجرة، وهي القلب بالسير في صورة الأعمال الصالحة المأمورة الشرعية ليخرجه من ظلمات الطبيعة إلى نور الشريعة بالإيمان والعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] والإيمان الحقيقي هو قبول كلمة الله التي ضرب الله بها مثلاً كلمة طيبة وهو قول لا إله إلا الله كشجرة طيبة أي كغصن شجرة طيبة، وهي شجرة التوحيد توصل بها على غصن شجرة الإنسانية وهو القلب، أصلها ثابت أي أصل شجرة التوحيد

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.
(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

ثابت في النور والمرشش الذي محله القلب، وإنما يثبت فيه وينضم إليه لأنهما من جنس واحد وأصلهما الوحدانية. والجنسية علة الضم وفرعها أي الفرع المنشأ من أصل التوحيد ونور الوحدانية، وشجرة الإنسانية في السماء أي سماء الروحانية تؤتى أكلها أي ثمرتها وهي الوحدة كل حين، أي في أوانها وحينها بإذن ربها أي بلا واسطة طبيعية، بل بأمر رباني كما نودي موسى والله أعلم من الشجرة، أي شجرة التوحيد ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طٰه: ١٢] أي نعلي الدنيا والآخرة من قدم همتك ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طٰه: ١٢] أي الحضرة المقدسة المطوية فيها الدارين. كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] ومن تلك الشجرة أتى ما أتى بإذن ربها من ثمرة أنا الحق وسبحاني. فافهم جداً. وكل روح أخطأه النور المرشش في عالم الأرواح وكِلَ إلى طبيعة ظلمة الخلقية، يسكن في أسفل عرق شجرة الإنسانية وهو النفس الشهوانية كما سكن آدم إلى حواء. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. فكذلك النفس خلقت من جنب الروح ليسكن إليها ولولا سكونه إليها لما أقام في عالم الأجسام للتجارة التي بعث بها إليه، لكن بشرط النكاح الشرعي لا بالسفاح الطبعي، وهو أن يكون سكونه إليها بالأمر بحيث لا يشغله عن التجارة التي له فيها النجاة من عذاب أليم، وهو البعد عن الحضرة وله فيها الدرجات في جنات النعيم، وهي مقامات القرب إلى الحضرة. كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ [الصف: ١٠، ١١] وذلك أنه بنور الإيمان يشاهد سوء خاتمة الركون إلى الدنيا وشهواتها، يعرض عنها ويتوجه إلى الحضرة ويقول لأهله: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طٰه: ١٠] فيحرم على نفسه السكون في أسفل عرق شجرة الإنسانية، فيجاهد في سبيل الله بالخروج عن نفسه وماله، ويوفي بعهده من الله إذ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة في تسليم الثمن وطلب المشتري فيترك الدنيا وشهواتها. وبدل النفس والمال يتربى الفرع الموصل من الكلمة على غصن القلب إلى أن يبلغ سمٰوات الروحانية فيؤتى ثمرات لا مقطوعة ولا ممنوعة إلى أبد الآباد. ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٥] [التوبة: ٤١]. أي ربح هذه التجارة خير لكم من السكون في أسفل عرق شجرة الإنسانية، والركون إلى استيفاء الحظوظ الفانية إن كنتم تعلمون أن السكون في أسفل عرق شجرة الإنسانية هو السكون في أسفل نار جهنم خالدين فيها أبداً، لأن كل جزء من البذر إذا بقي في عرق شجرة الإنسانية ولم يجذبه قوة النور المرشش إلى أغصان

الروحانية التي يعبر عنها بالجنان، فلا خلاص له من جهنم أبداً وإنما يخرج من جهنم عرق شجرة الإنسانية جزء من بذر الروح ولو بعد حين، أن يكون فيه مثقال ذرة من النور المرشش في عالم الأرواح لقصده وميله إلى عالمه وقابليته لجذبات الحق تعالى.

ثم اعلم أن أجزاء بذر الروح المتفرقة في شجرة الإنسانية على ثلاثة أقسام: كما قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ [الواقِعَة: ٧] قسم منها ما قدر الله تعالى أن يصير جزءاً من أجزاء الشجرة ثابتاً فيها، فهم أصحاب المشأمة وأهل النار المخلدون فيها كما قال تعالى[١]: «هؤلاء في النار ولا أبالي»[٢].

وقسم منها ما قدر الله تعالى أن يكون سائراً في الشجرة بتوفيق الله إلى أن يخرج من أغصان الشجرة بالزهرية ولا يبلغ إلى رتبة الثمارية، وهو مقام المؤمنين إذا خرجوا من ظلمة نفس الشجرة إلى نور فضاء الروحانية، وهم أصحاب الميمنة الذين وردوا جهنم الشجرة ونجوا منها بترك الشرك، وبنور الإيمان دخلوا جنات الأزهار. كما قال تعالى[٣]: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي»[٤] وهم طائفتان: طائفة يخرجون من هٰهنا بالسير وتزكية النفس والمجاهدات، وهم الذين إذا وردوا النار يوم القيامة تقول النار لأحدهم: «جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي»[٥]. وذلك لأنهم لما وردوا اليوم جهنم بالنفس الشهوانية وتلهبت نار شهواتهم فقد أطفأوها بشعلة أنوار إيمانهم ونهوا أنفسهم عن الهوى. وطائفة يخرجون منها يوم القيامة بعد تزكية نفوسهم بورود النار والثبات فيها، وذلك لأنهم كانوا هٰهنا بمعزل عن تزكية النفس فخابوا وخسروا. كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ وكان أمرهم هٰهنا مبنياً على خلط الأعمال الصالحة بالسيئة، وذلك لأن النور المرشش وإن كان قد أصاب أرواحهم شيئاً ما ولكن باستيلاء ظلمات صفات النفس واستعلائها وخذلان الحق، صار ملبوساً مغلوباً بظلم سيئات الأعمال في بعض الأوقات، خلطوا عملاً صالحاً

---

(١) في الحديث القدسي.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن قوله ﷺ فكل ميسر...، حديث رقم (٣٣٨). ورواه أحمد في المسند، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي، حديث رقم (١٧٦٩٦) [ج ٤ ص ١٨٦]. نسخة مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.

(٣) أي في الحديث القدسي

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر البيان بأن قوله ﷺ فكل ميسر...، حديث رقم (٣٣٨). ورواه أحمد في المسند، عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي، حديث رقم (١٧٦٩٦) [ج ٤ ص ١٨٦]. نسخة مؤسسة قرطبة ـ القاهرة.

(٥) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن يعلى، حديث رقم (٦٦٨) [ج ٢٢ ص ٢٥٨].

وآخر سيئاً. فبالعمل الصالح الذي من نتائج النور كان السالك سائراً إلى الله وبالعمل السيء الذي من نتائج ظلمة صفات النفس كان يرجع القهقرى. عسى الله أن يتداركهم بجذبة العناية ويتوب عليهم. أي: يرجع بهم إلى السير بتقوية النور واستيلائه على ظلمات صفات النفس، وإطفاء لهب نار شهواتها ليجوزوا على النار، كالريح المرسلة، ولما كان بعض أجزاء بذن الروح مستعداً في أصل الفطرة للثبوت في شجرة الإنسانية، وبعضها مستعداً للخروج منها بعد الموت. قال رسول الله ـ ﷺ ـ: في جواب من سأله عن ذراري المشركين: قال: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1] يعني إن كانوا ممن أصابهم النور المرشش لكانوا عاملين بما يدخلهم الجنة ولو كانوا ممن أخطأهم لكانوا عاملين بما يدخلهم النار.

والقسم الثالث منها ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] من الأنبياء والأولياء. وقد قدر الله تعالى لهم أن يكونوا مجذوبين من أجزاء قدر الروح بالسير في شجرة الإنسانية من مقامات النفس، والطير على أغصانها في مقامات القلوب، وكالريح المرسلة إلى أزهارها على مقامات الروحانية، وكالبرق الخاطف بجذبات الألوهية للخروج عن قشر الوجود، فانياً عن الشجرية باقياً بالثمارية في مقامات الوصول، وهم الذين أحبهم الله أن يخلقهم ليعرفوه إظهاراً للكنز المخفي، وسائر المخلوقات كان تبعاً لوجودهم، كما أن سائر أجزاء الشجرة يكون تبعاً للثمرة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦] أي ليعرفون، وأما فائدة تكرار السبق في حقهم ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾ من وجوده منها أنهم هم الذين سبقت لهم منا الحسنى بأنه تعالى يجعلهم مستحقين لجمال به يحبهم ويجعلهم مستعدين لكمال به يحبونه، فهم السابقون بسبق العناية في حقهم.

ومنها: أنهم السابقون على سائر أجزاء بذر الروح من السائرين للخروج من شجرة الإنسانية بالخروج للثمارية ـ ولاية ونبوة ورسالة ـ. على حسب مراتبهم بالخروج والتفاوت فيما بينهم بالنقصان والكمال بالثمارية، وصغرها وكبرها.

ومنها: أنهم أهل السبق بالمحبوبية والمحبية في القدم. وأهل السبق في استماع خطاب الله والائتمار بأمره وجواب خطابه حين خاطبهم بقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى: كل مولود يولد على الفطرة...، حديث رقم (٢٤ ـ ٢٦٥٨)، ورواه البخاري في صحيحه، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين حديث رقم (٦٥٩٩). ورواه غيرهما.

قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فُصِّلَت: ١١] وأهل السبق بالخروج من العدم إلى عالم الأرواح، وأهل السبق في خروج ذرياتهم من صلب آدم للميثاق، وأهل السبق في الحضور عند رب العالمين، وأهل السبق في استماع خطاب قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعرَاف: ١٧٢] وأهل السبق في جواب: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأنعَام: ٣٠]، وأهل السبق في الإحياء بنفخ الصور، وأهل السبق في الجواز على الصراط وأهل السبق فيمن يكلم الله وينظر إليهم وهم أهل السبق في دخول الجنة وأهل السبق في رؤية الله تعالى حين يتجلى لعباده بذاته وصفاته تبارك وتعالى وتقدس.

ثم اعلم أن الأرواح لما خوطبوا وهم في حظائر القدس وجوار رب العالمين بقوله: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البَقَرَة: ٣٦] أي اهبطوا بالبذرية إلى أرض القالب بعضكم أي بعض روحكم عدو، وذلك لأن الله تعالى خلق النفس بازدواج الروح والقالب من الروح والقالب، فهي بعض الروح، كما أن حواء كانت بعض آدم - عليه السلام - وهي عدو للروح، كما قال - ﷺ -: «أعدى أعداءك نفسك التي بين جنبيك»[(١)]. والروح أيضاً عدو لها وذلك لأن الروح علوي النسب علي الهمة نزاع إلى الحضرة ثم يحن إلى ربه شوقه إلى لقائه. لأنه أنشأه من لا شيء وشرفه بالإضافة إلى حضرته. وكان أنيساً له برهة من الدهر قبل خلق المكونات وهو الأصل وما سواه فهو فرع له، وهو قاصد والحق مقصوده وهو طالب والحق مطلوبه، وهو محب والحق محبوبه، وهو تابع يستتبع النفس إلى الحضرة قهراً وقسراً على خلاف طبعها، فهي تعاديه لخسة طبعها ودناءة همتها ورداءة جوهرها. فإنها سفلة سفلية، تنزع إلى الدنيا الدنية لأنها تنشأت منها، أو تربت بلبان شهواتها واستلذت بملاذها وتمتعاتها، فهي تستتبع الروح إلى أسفل الدنيا، وتدعوه إلى استيفاء لذاتها قهراً وقسراً على خلاف طبعها، فيعاديها الروح بعلو همته وعظم شأنه، ولكل واحد منهما أعوان وأنصار يعينون صاحبهم وينصرونه، فأعوان الروح وأنصاره العقل والقلب، وهما يستمدان من الله ورسوله وآلة استمدادها حواس القلب، وهي معدة في القوة وما خرجت بعد إلى الفعل، وأوان البلاغة وقت إخراج القوة إلى الفعل بتصرف الائتمار بأوامر الشرع والانتهاء عن نواهيها حتى يتقي القلب من قبيل من هم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝﴾ [البقرة: ١٨]. ولهذا قال - ﷺ -: «إن في جسد ابن آدم لمضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، ألا وهي القلب». وإن

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٤١٢) [ج ١ ص ١٢٨].

أعوان النفس الهوى والشهوة وهما يستمدان من الدنيا والشيطان، وآلة استمدادها حواس القالب وهي من ابتداء الطفولة إلى نهاية البلاغة، معدة بالفعل في إعانة النفس ونصرتها مستمدة بآلة حواس القالب من الدنيا والشيطان في تزيين زينتها لتصير النفس أمارة بالسوء، ويظهر سلطانها على الروح وتستأسره وتحبسه في سجن الطبيعة الحيوانية، وأعوان الروح أعني العقل والقلب غير مستعدين لإعانته ونصرته لضعفهما وعدم استطاعتهما، وتعطل حواس القلب التي منها استمدادها من الله ورسوله فبقي جميع أجزاء الروح في أسفل أرض القالب بالبذرية بعضه لبعض عدو. كما قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] أي إلى حين مشيئة الله تعالى وإرادته القديمة بالحكمة البالغة أن تهب نفحات ألطاف الحق عن مهب العناية، ووقف مشام الروح لتنسمها والتعرض لها فتلقى آدم من ربه كلمات. وهي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] باتباع الهوى وشهوات النفس ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] تستر علينا جناح فضلك ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] بأن تنظر بنظر الرحمة إلى النفس الأمارة، فتزيل عنها الأمارية وتجعلها مأمورة باختصاص إلا ما رحم ربي لتخلص من أسرها وحبسها، فيكون من عبادك المخلصين. وإلا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] الذين خسروا أنفسهم باتباع الهوى والشهوات، فبقوا في أسر النفس في أسفل سافلين صفات القالب، فاجعلنا ممن تؤتيه هدى منك ووفقته لاتباع هداك، فلا خوف عليهم من أسر النفس وسلطانها عليهم، ولا هم يحزنون على ما فات لهم من التمتعات النفسانية والتلذذات الشهوانية الحيوانية بما اجتبيتهم على خليفتك وتبت عليهم، ناديت نفوسهم بخطاب ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨] وهديتهم بتجلي جمالك إلى حضرة جلالك.

ثم اعلم أيها الطالب الصادق والسالك الحاذق والمجذوب العاشق أني شرحت لك في هذا المختصر ما يحتاج إليه في الرجوع من أسفل سافلين الطبيعة الإنسانية إلى أعلى عليين من مراتب قرب الربانية، شرحاً وافياً وبياناً كافياً، فأريد أن يكون ختامه مسكاً تتعطر بفائحته مشام الأرواح المقدسة والمدنسة.

فأما المقدسة منها: فلما شمت روائح ألطاف الحق من هذا المهب اتبعتها للوصول به وحصول المقصود منه.

وأما المدنسة: فليكون حجة عليها وإن لم يكن لها مما لا بد للطالب الراغب منه من عمل به فقد عمل بجميع ما في هذا الكتاب، بل عمل في الحقيقة بجميع ما في الكتب المنزلة، والله الموفق والمعين.

قال بعض المشايخ: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلق، فطريقنا الذي نشرع في شرحه، أقرب الطرق إلى الله وأوضحها وأرشدها، لأن الطرق مع كثرة عددها محصورة في ثلاثة أنواع:

أحدها: طريق أرباب المعاملات. بكثرة الصوم والصلاة وتلاوة القرآن والحج والجهاد، وغيرها من الأعمال، وهو طريق الأخبار. فالواصلون بهذا الطريق في الزمان الطويل أقل من القليل.

وثانيها: طريق أصحاب المجاهدات والرياضات في تبديل الأخلاق وتزكية النفس وتصفية القلب وتخلية الروح والسعي فيما يتعلق بعمارة الباطن وهو طريق الأبرار. فالواصلون بهذا الطريق أكثر من ذلك الفريق، ولكن وصول البوادر منهم من النوادر، كما سأل ابن منصور عن إبراهيم الخواص: في أي مقام تروض نفسك قال: أروض نفسي في مقام التوكل منذ ثلاثين سنة. فقال: إذا أفنيت عمرك في عمارة الباطن، فأين أنت من الفناء بالله.

وثالثها: طريق السائرين إلى الله والطائرين بالله. وهو طريق الشطار من أهل المحبة السالكين بالجذبة. فالواصلون منهم في البدايات أكثر من غيرهم في النهايات فهذا الطريق المختار مبني على الموت بالإرادة.

قال ـ ﷺ ـ: «موتوا قبل أن تموتوا»[1]. محصورة في عشرة أصول:

أحدها: التوبة. وهي الرجوع إلى الله بالإرادة. كما أن الموت رجوع بغير الإرادة كقوله تعالى: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾ [الفجر: ٢٨] وهي الخروج عن الذنوب كلها والذنب ما يحجبك عن الله من مراتب الدنيا والآخرة، فالواجب على الطالب الخروج عن كل مطلوب سواه حتى الوجود، كما قيل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب.

وثانيها: الزهد في الدنيا: وهو الخروج عن متاعها وشهواتها، قليلها وكثيرها، مالها وجاهها، كما أن بالموت يخرجون منها. وحقيقة الزهد: أن تزهد في الدنيا والآخرة. قال ـ ﷺ ـ: «الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله»[2].

ثالثها: التوكل على الله وهو الخروج من الأسباب والتسبب بالكلية ثقة بالله كما

---

(١) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٦٦٨) [ج ٢ ص ٢٦٠].
(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

هو بالموت ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطَّلاق: ٣].

ورابعها: وهي الخروج عن الشهوات النفسانية والتمتعات الحيوانية، كما هي بالموت إلا ما اضطر إليه من حاجة الإنسانية فلا يسرف في المأكول والملبوس والمسكن ويختصر على ما لا بد منه لقوته.

وخامسها: العزلة وهي الخروج عن مخالطة الخلق بالانزواء والانقطاع كما هو بالموت، إلا عن خدمة شيخ واصل، كامل، مرب له هو كالغسال للميت. فينبغي أن تكون بين يديه كالميت بين يدي الغسال، يتصرف فيه كما شاء ليغسله بماء الولاية عن جنابة الأجنبية ولوث الحدوث. وأصل العزلة: عزل الحواس بالخلوة عن التصرف في المحسوسات. فإن كل آفة وفتنة وبلاء ابتلى الروح بها وكانت تقوية للنفس وتربية لصفاتها. فيها دخلت من روزنة الحواس وبها استتبعت النفس الروح إلى أسفل السافلين، وقيدته بها واستولت عليه. فبالخلوة وعزل الحواس ينقطع مدد النفس عن الدنيا والشيطان بإماتة الهوى والشهوة، كما أن الطبيب في معالجة المريض يستعمل أولاً الاحتماء عما يضره ويزيد في علل مرضه، فيقطع بذلك عنه مدد المواد الفاسدة التي ينبعث بها المرض وينقي به المواد، وقد قيل: الحمية رأس كل دواء، ثم يزيل عنه المواد الفاسدة، ويتقوى به قوى الطبيعة، وتنجذب الصحة، فالمسهل هنا بعد الاحتماء وتنقية المواد الذكر الدائم.

وسادسها: ملازمة الذكر: وهو الخروج عن ذكر ما سوى الله بالنسيان. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أي إذا نسيت غير الله، كما هو بالموت. فأما نسبة المسهلية بالذكر، وهو كلمة لا إله إلا الله، فبأنه معجون مركب من النفي والإثبات، فبالنفي يزيل المواد الفاسدة التي تولد منها مرض القلب وقيود الروح وتقوية النفس وتربية صفاتها، وهي الأخلاق الذميمة النفسانية والأوصاف الشهوانية الحيوانية وتعلقات الكونين، وبإثبات إلا الله ونوره تحصل صحة القلب وسلامته عن الرذائل من الأخلاق بانحراف مزاجه الأصلي واستواء مزاجه بنوره وحيويته بنور الله وتجلي الروح بشواهد الحق، وتجلي ذاته وصفاته، وأشرقت أرض النفس بنور ربها، وزالت عنها ظلمات صفاتها ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨] فعلى قضية ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] بتبدل الذاكرية بالمذكورية والمذكورية بالذاكرية، فيفنى الذاكر في الذكر ويبقى المذكور خليفة للذاكر فإذا طلبت الذاكر وجدت المذكور وإذا طلبت المذكور وجدت الذاكر.

فـإذا أبـصـرتـنـي أبـصـرتـه وإذا أبـصـرتـه أبـصـرتـنـا

وسابعها: التوجه إلى الله بكلية وجوده، وهو الخروج عن كل داعية تدعوه إلى غير الحق كما هو بالموت، فلا يبقى له مطلوب ولا محبوب ولا مقصود ولا مقصد إلا الله، ولو عرض عليه مقامات جميع الأنبياء والمرسلين، لا يلتفت إليها بالإعراض عن الله لحظة، قال الجنيد: لو أقبل صدّيق على الله ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة، فإن ما فاته أكثر مما ناله.

وثامنها: الصبر، وهو الخروج عن حظوظ النفس بالمجاهدة والمكابدة، كما هو بالموت، والثبات على فطامها عن مألوفاتها ومحبوباتها لتزكيتها، وخمود شهواتها والاستقامة على الطريقة المثلى لتصفية القلب وتحلية الروح.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وتاسعها: المراقبة. وهي الخروج عن حوله وقوته، كما هو بالموت مراقباً لمواهب الحق متعرضاً لنفحات ألطافه معرضاً عما سواه مستغرقاً في بحر هواه، مشتاقاً إلى لقياه، إليه قلبه يحن ولديه روحه يئن، به يستعين عليه ومنه يستغيث إليه حتى يفتح الله باب رحمة لا ممسك لها ويغلق عليه باب عذاب لا مفتح له. فبنور سطع من رحمة الله على النفس تزول ظلمة أمارية النفس في لحظة ما لا يزول بثلاثين سنة بالمجاهدات والرياضات. كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ٥٣] وهم الأخيار بل يبدل سيئات النفس بحسنات الروح. لقوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الفرقان: ٢٥] أي سيئات المقربين بحسنات ألطافه. كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فهذه الزيادة حسنات ألطاف الحق. و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعاشرها: الرضا وهو الخروج عن رضا نفسه بالدخول في رضاء الله بالتسليم لأحكامه الأزلية والتفويض إلى تدبيره الأبدي بلا أعراض ولا اعتراض كما هو بالموت كما قال بعضهم: وكلت للمحبوب أمري كله، فإن شاء أحياني وإن شاء أتلفا. فمن يموت بإرادته عن هذه الأوصاف الظلمانية يحييه الله بنور عنايته كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي من كان ميتاً عن أوصافه الظلمانية في الشجرة الإنسانية أحييناه بأوصافنا الربانية وجعلنا له نوراً من أنوار جمالنا يمشي به، أي بذلك النور. كقوله: بي يمشي في الناس، أي في سرائر الناس، يمشي بالفراسة ويشاهد

أحوالهم، كمن مثله في الظلمات، أي كمن بقي في ظلمات الشجرة الإنسانية ليس بخارج منها لا بزهرية المؤمنية ولا بثمارية الولاية والنبوة. تفهم إن شاء الله تعالى وتنتفع به.

فمن داومت بهذه الصفة خلوته لازمت سلوته، وبعلاج الذكر انقطعت عنه مواد الآفات والفتن وارتفعت الحجب وانكشفت الغيوم عن شموس شواهد الحق وشاهدت مشاهد الصدق، ثم دارت كؤوس المشاهدات، وسرى في العروق والأعصاب شراب المكاشفات وتساكر حلاج القلب وتظاهر تغريده أنا الحق. وترادف هل من مزيد أبي يزيد الروح وتصاعدت منه صعداء سبحاني ثم تجلى ربه بجبل النفس وجعله دكاً وخر موسى القلب صعقاً، سكراناً من سطوة روائح الشراب الطهور الذي سقاه ربه. فلما أفاق من السكر قال أداء للشكر بدل سبحاني: سبحانك إني تبت إليك من أنانيتي التي اقتضت تجاسر أرني أنظر إليك وأنا أول المؤمنين، الذين عرفوا وآمنوا بنور جمالك أن سلطان جلالك لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وبإدراكه إياها يطهرك عن لوث الحدوث وينورها بنور القدم، وتوجه مرآة القلوب المصقولة المطهرة، المنورة بنور القدم، الناظرة عن وصمة الأنانية إلى جمال الربوبية بتجلي جلال الألوهية فيكون وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة.

فهذه جملة ما سمح به الوقت وسنح لي من الوقت. فيما التمسه الطلبة مني واقترح علي الأصحاب. جمعته وألفته: تذكرة لأولي الألباب. وهي الفرائض المكتوبة على مدعي الطلب والسنن المرغوبة لذوي الرغائب وأهل الرتب، فمن غلب سلب صفات مكارم الأخلاق. ولكن لعمري.

صلاة مكارم الأخلاق فرض وما غير الأذان على بلال

ولكن لعمري. إنه لم يختصني من هذا الكتاب إلا أولو الألباب الذي لهم صدق شامل وعشق كامل ولا يتفطن لدقائقه وحقائقه إلا من أوتي قريحة ذكية ونفساً زكية ونية صالحة مرضية ونية خالية بعد إمعان النظر وجولان الفكر ولا ينقطع به من كانت همته اصطياد الناس لشبكة مظنوناته وفخ مكنوناته ولا من تهمته السمعة والرياء ليرى نفسه بأنه معدن هذه العلوم ومنبع هذه الحكم، بل يكون سبباً لخسرانه ومظنة لنقصانه. كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣] إلا من كان جل مطلبه منه درك حقائق علوم القوم بالاقتداء بهم في السلوك والاهتداء. كما قال تعالى لحبيبه ونبيه ـ ﷺ ـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] ليعلم أنه ما بلغ أحد مرتبة الاهتداء إلا بالاقتداء

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١] وقد وجدت في ضمن هذه الآية إشارة إلى بشارة قد اختصت بها هذه الأمة وهي مقام المحبة والمحبوبية الذي من الله تعالى على نبيه ـ ﷺ ـ وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤] ولهذا قال تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. ومع عظم شأنهم جعلهم للعزة طرائق قددا.

وأقول مناجياً ولكرمه راجياً: يا من أنشأ شجرة العالم وأثمرها بثمار بني آدم واختار منهم محمداً المصطفى وجعله مجتبى مجتنى، على أنه جعل أمته التي كانت خير أمة طرائق قددا، وجعل الناجي من حملهم أحداً والباقون ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ [البقرة: ١٠٩] فافترقوا بدداً فتاهموا في تيه الجهالة وتمادوا في الغي والضلالة سدى، ولم ينالوا من أمرهم رشداً. لقد خبئت مفاتيح قلوبهم في خزانة الغيب. لا يعلمها إلا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

إلهنا اهدنا الصراط المستقيم وثبتنا على دينك القويم في متابعة سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله أجمعين. ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك. وأفرغ علينا سجال فضلك وخذنا بك عنا وامنن علينا بجود وجودك منا مستغرقين في بحر فضلك ونوالك بدوام تجلي جمالك وجلالك يا إله العالمين وخير الناصرين، برحمتك يا أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين. الحمد لله الذي وفقنا لإنجاز ما وعدنا في إتمام كتاب منارات السائرين إلى الله ومقامات الطائرين بالله. فمن أمعن النظر وأنعم الفكر ووفق لكشف أسراره ومعانيه ونشر ما في مطاويه ولم تردعه العصبية والدخيلة الردية، أنصف واعترف بأني وإن كنت من المتأخرين لآت بما لم يأت به أحد من المتقدمين تصحيحاً لقول النبي ـ ﷺ ـ: «أمتي كالمطر لا يدرى أولهم خيراً أم آخرهم»(١). ولا يعلم قدر ما أودعت فيه إلا العلماء بالله والراسخون في العلم الذين هم أوتاد الأرض وعمد السماء الذين هم أقطاباً للعالم وحجج الله على الخلق ـ عليهم سلام الله ورحمته وبركاته ـ. وأقول كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾ [المُزمّل: ١٩] على

---

(١) رواه الترمذي بلفظ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدري أوله خير أم آخره»، كتاب الأمثال، باب مثل الصلوات الخمس، حديث رقم (٢٨٦٩). وورواه الطبراني في المعجم الأوسط، من اسمه سيف، حديث رقم (٣٦٦٠) [ج ٤ ص ٧٨]. وورواه الشهاب في مسنده، باب مثل أمتي مثل المطر، حديث رقم (١٣٤٩)، [ج ٢ ص ٢٧٦]. وورواه غيرهم.

أنني لم أدع فيه العصمة عن إمكان السهو والغلط فإن الإنسان معرض للنسيان. كما قيل:

وسميت إنساناً لأنك ناسياً   وأول ناس آدم أول الناس

فالمتوقع من كرم الناظرين المتأملين فيه، إن اطلع عالم منصف على موضع سهو أو غلط أن يصلحه بقلمه، بفضله وكرمه بشرط أن يكون على يقين، دون تحيز وظن فإن الظن يخطىء ويصيب. ولا يكون ممن إذا رأى ألف صواب غطاه، إذا وجد سهواً نادى عليه وأبداه، كما قيل: صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به، وإن ذكرت بسوء عندهم أذن. ختمت الكتاب بالخير ختم الله كتاب آجالنا بالخير، وذلك من ربيع الأول سنة أربع وتسعين وتسعمائة، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين وعترته الطاهرين وسلم تسليماً كثيراً.

فهرس المحتويات